بسم الله الرحمن الرحيم

# التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء السادس والعشرون

# التفسير المنير

## في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ

الأنفال ٨/٢٤


الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق


### الجزء السادس والعشرون


دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

## بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة الأحقاف

مكيّة ، وهي خمس وثلاثون آية.

**تسميتها :**

سميت (سورة الأحقاف) للحديث فيها عن الأحقاف : وهي مساكن عاد في اليمن الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية بسبب كفرهم وطغيانهم ، في قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ ..﴾ [٢١].

**مناسبتها لما قبلها :**

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة هي :

١ ـ تطابق مطلع السورتين في : ﴿حم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

٢ ـ تشابه موضوع السورتين وهو إثبات التوحيد والنبوة والوحي والبعث والمعاد.

٣ ـ ختمت السورة السابقة بتوبيخ المشركين على الشرك ، وبدئت هذه السورة بتوبيخهم على شركهم ، ومطالبتهم بالدليل عليه ، وبيان عظمة الإله الخالق المجيب من دعاه ، على عكس تلك الأصنام التي لا تستجيب لدعاتها إلى يوم القيامة.

**ما اشتملت عليه السورة :**

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السور المكية وهو إثبات أصول العقيدة الإسلامية الثلاثة : وهي التوحيد ، والرسالة والوحي ، والبعث والجزاء.

بدأت السورة بالحديث عن تنزيل الكتاب وهو القرآن من الله تعالى ، وإنما كرر لأنه بمنزلة عنوان الكتب (الكتابة) ثم أقامت الأدلة على وجود الإله والتوحيد والحشر ، وذمّت المشركين عبدة الأصنام ، وردّت عليهم ردا دامغا مقنعا ، وأجابت عن شبهاتهم حول الوحي والنبوة.

ثم ذكرت حال فريقين : فريق أهل الاستقامة الذين أقروا بتوحيد الله واستقاموا على ملّته ، وأطاعوا والديهم وأحسنوا إليهم ، فكانوا أصحاب الجنة ، وفريق الكافرين الخارجين عن هدي الفطرة ، المنهمكين في شهوات الدنيا ، المنكرين البعث والحساب ، العاقين لوالديهم ، بالتنكر للإيمان والمعاد ، فكانوا أصحاب النار.

ثم ضربت المثل بقصة هود عليه السلام مع قومه «عاد» الطغاة الذين اغتروا بقوتهم ، وأصروا على عبادة الأصنام ، فأهلكهم الله بريح عاتية ، تدمّر كل شيء بأمر ربها ، إرهابا لكفار قريش ، وتحذيرا من استبدادهم وتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنذارا بعذاب مماثل جزاء استهزائهم.

كما ذكّرتهم بإهلاك القرى المجاورة ، وبمبادرة الجن إلى الإيمان بما سمعوه من آيات القرآن ، ودعوة قومهم إلى إجابة نبي الله والإيمان برسالته ، فإن من عاند وأعرض عن إجابة داعي الله ، فهو في ضلال مبين.

ثم ختمت السورة بالتأكيد على قدرة الله على البعث ، لأنه خالق السموات والأرض ، وبأن تعذيب الكافرين بالنار حق كائن لا محالة ، وبالتهديد بأهوال القيامة ، وبأن العذاب أو الهلاك لا يكون إلا للقوم الفاسقين الخارجين عن حدود

الله وطاعته ، فما على الرسول إلا الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، وعدم استعجال العذاب.

## إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته ووقوع الحشر والرد على عبدة الأوثان

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (٥) وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (٦)﴾

**الإعراب :**

﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿ما ذا خَلَقُوا﴾ مفعول به ثان ل ﴿أَرُونِي﴾.

**البلاغة :**

﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ صيغة مبالغة.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ فيه مجازان ، حيث أطلق الرؤيا وأراد الإخبار ، والعلاقة السببية ، واستعمل

همزة الاستفهام في الأمر ، لأن كلّا من الاستفهام والأمر يدل على الطلب ، و ﴿أَرُونِي﴾ توكيد لأرأيتم.

﴿ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا﴾ أمر يراد به التعجيز.

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ استفهام على سبيل الإنكار ، أي لا أحد أبعد عن الحق وأقرب إلى الجهل ممن يدعو الأصنام من دون الله ، فيتخذها آلهة ويعبدها ، وهي إذا دعيت لا تسمع.

**المفردات اللغوية :**

﴿حم﴾ هذه الحروف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن وتحدي العرب في أنه منظوم من حروفهم الهجائية ، وللتنبيه على خطورة ما يتلى في السورة ﴿الْكِتابِ﴾ القرآن الكامل في كل شيء ، وإنما كرر مع بداية السورة السابقة لتأكيد مدلول الكتابة ﴿الْعَزِيزِ﴾ القوي القاهر في ملكه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره وصنعه ، يضع كل أمر في موضعه ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ أي إلا خلقا ملازما للحق : وهو ما تقتضيه الحكمة والعدل ، للدلالة على قدرة الله ووحدانيته ، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم والبعث للجزاء والحساب ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي بتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكل ، وهو يوم القيامة ﴿أُنْذِرُوا﴾ خوّفوا به من العذاب ﴿مُعْرِضُونَ﴾ مدبرون ، لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل فيها ﴿ما تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الأصنام ﴿أَرُونِي﴾ أخبروني ، وهو تأكيد لما سبق من طلب الإخبار ﴿أَمْ﴾ همزة الإنكار ﴿شِرْكٌ﴾ نصيب ومشاركة ﴿فِي السَّماواتِ﴾ مشاركة مع الله في خلق السموات ﴿ائْتُونِي بِكِتابٍ﴾ منزّل ﴿مِنْ قَبْلِ هذا﴾ أي القرآن ﴿أَوْ أَثارَةٍ﴾ بقية ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يؤثر ويروى عن الأولين بصحة دعواكم في عبادة الأصنام أنها تقرّبكم إلى الله ﴿صادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَمَنْ أَضَلُ﴾ استفهام بمعنى النفي ، أي لا أحد ﴿يَدْعُوا﴾ يعبد ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ غيره ، وهم الأصنام ، لا يجيبون عابديهم إلى شيء يسألونه أبدا ﴿وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ﴾ عبادتهم ﴿غافِلُونَ﴾ لأنهم جماد لا يعقلون أو عباد مشتغلون بأحوالهم.

﴿حُشِرَ النَّاسُ﴾ جمعوا يوم القيامة ﴿كانُوا﴾ أي الأصنام ﴿لَهُمْ﴾ لعابديهم ﴿بِعِبادَتِهِمْ﴾ بعبادة عابديهم ﴿كافِرِينَ﴾ جاحدين.

**التفسير والبيان :**

﴿حم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي إنه تعالى كما بدأ سورة الجاثية هو الذي أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وليس من عند محمد ﷺ كما يزعم المشركون ، وهو مع هذا التنزيل موصوف بالعزة التي لا يفوقها شيء ، فهو القوي القاهر الذي لا يغلب ، وهو الحكيم في تدبيره وصنعه وأقواله وأفعاله ، يضع كل أمر في موضعه. وإذا كان الأمر كذلك ، فما على الناس إلا الإيمان بالقرآن والتصديق بما جاء فيه ، والإيمان بصدق محمد ﷺ في نبوته ، وفيما دعا إليه من التوحيد الخالص ، وإثبات البعث والجزاء ، ودعوة الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة ، والأخلاق الكاملة النافعة.

﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي ما أوجدنا وأبدعنا السموات العلا ، والأراضي السفلى وما بينهما من سائر المخلوقات إلا خلقا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه المشيئة الإلهية ، وليس على وجه العبث والباطل ، فليس خلقها عبثا ولا باطلا.

وقد خلقناها إلى مدة معينة محددة لا تزيد ولا تنقص ، وهي يوم القيامة ، فإن السموات والأرضين والمخلوقات تنتهي ، وتتبدل السموات والأرض بغيرها.

أما الذين جحدوا بالله ، بالرغم من هذه الأدلة ، ومن إنزال الكتب ، وإرسال الرسل ، فهم لا هون عما يراد بهم ، مولّون عما خوّفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء ، غير مستعدين له ، وسيعلمون غب ذلك وعاقبته.

وبعد إثبات وجود الإله ووقوع الحشر والبعث يوم القيامة ، ردّ الله تعالى على عبدة الأوثان بقوله :

﴿قُلْ : أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ

شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره : أخبروني وأرشدوني عن حال آلهتكم من الأصنام وأصحاب القبور ، بعد التأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما ، هل استطاعوا الاستقلال بخلق شيء في الأرض ، وهل لهم مشاركة في ملك السموات والتصرف فيها؟

الواقع أنهم لم يخلقوا شيئا ولا شركة لهم في السموات والأرض ، فكيف تعبدون مع الله الخالق لكل شيء غيره وتشركون به؟

﴿ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي أحضروا لي دليلا مكتوبا قبل القرآن مما نزل على الأنبياء كالتوراة والإنجيل يدل على صحة عبادتكم لآلهتكم ، أو بقية من علم الأولين والأنبياء السابقين يرشد إلى صحة هذا المنهج الذي نهجتموه ، إن كنتم صادقين في ادعائكم ألوهية الأصنام. والمعنى : لا دليل لكم نقليا ولا عقليا على ذلك.

وبعد أن نفى الله تعالى القدرة عن الأصنام في الخلق وغيره ، أتبعه بنفي العلم عنهم من كل الوجوه ، فقال :

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد من دون الله أصناما ، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ، فإنه دعا من لا يسمع ، فكيف يطمع في الإجابة؟ والأصنام التي يدعونها غافلون عمن دعاها ، لا يسمعون ولا يعقلون ، لكونهم جمادات.

والمعنى : أن الأصنام لا قدرة لها على شيء ، ولا علم لديها بشيء ، فما هي إلا جماد ، وعبادة الجماد محض الضلال ، وهذا يستدعي التوبيخ والتهكم.

وقوله : ﴿إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ تأبيد على عادة العرب ، أي ما دامت الدنيا.

ثم أكد الله تعالى نفي العلم بعبادة الناس لها بقوله :

﴿وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً ، وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ أي وإذا جمع الناس العابدون للأصنام في موقف الحساب ، كانت الأصنام لهم أعداء ، تتبرأ منهم وتلعنهم ، وكانوا جاحدين مكذبين منكرين لعبادتهم ، فيخلق الله الحياة في الأصنام فتكذبهم ، وتتبرأ الملائكة والمسيح وعزير والشياطين ممن عبدوهم يوم القيامة.

ونظير الآية قوله سبحانه : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٨١ ـ ٨٢] أي سيكذبونهم ويعادونهم في وقت أحوج ما يكونون إليهم. وقال تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه‌السلام : ﴿وَقالَ : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً ، مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وَمَأْواكُمُ النَّارُ ، وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٥].

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات البينات إلى ما يأتي :

١ ـ تأكيد مطلع سورة الجاثية : وهو كون مصدر القرآن من الله العزيز الحكيم ، لا من عند محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم ولا غيره من العرب أو العجم.

٢ ـ دلت آية : ﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ ..﴾ على أمور ثلاثة : هي إثبات الإله بخلق هذا العالم ، وإثبات أن إله العالم عادل رحيم ، لقوله تعالى : ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ أي إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان ، وإثبات البعث والقيامة ، إذ لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين ، ولتعطل إيفاء الثواب للمطيعين ، وإقامة العقاب على الكافرين ، وذلك ينافي كون خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق.

٣ ـ دل قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ على أن الكفار معرضون عن هذه الدلائل ، غير ملتفتين إليها ، وهذا كما ذكر الرازي يدل على وجوب النظر والاستدلال ، أي لتكوين العقيدة وتصحيحها ، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا.

٤ ـ بعد إثبات أصول العقيدة الثلاثة المتقدمة ، فرّع الله تعالى عنها التفاريع ، فرد على عبدة الأصنام بأنها عديمة القدرة على خلق الأشياء ، وغير عالمة أصلا بعبادة الوثنيين لها ، وكل من الأمرين ينفي صلاحيتها للعبادة ، فهي لا قدرة لها أصلا على الخلق والفعل ، والإيجاد والإعدام ، والنفع والضر ، وهي جمادات لا تسمع دعاء الداعين ، ولا تعلم حاجات المحتاجين ، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه ، لم يبق مسوغ للعبادة ببديهة العقل ، فهي لا تضر ولا تنفع.

ثم وبخ الله تعالى عبدة الأصنام ، وأبان لهم أنه لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد الأوثان ، وهي إذا دعيت لا تسمع ، ولا يتصوّر منها الإجابة لا في الحال ، ولا بعد ذلك إلى يوم القيامة.

٥ ـ أرشد قوله تعالى : ﴿أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ إلى جواز الاعتماد على الخط المكتوب ، وكان الإمام مالك رحمه‌الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه ، أو عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه ، فيحكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحيل والتزوير ، وقد روي عنه أنه قال : «يحدث الناس فجورا ، فتحدث لهم أقضية».

ولكن أجاز مالك الأخذ بشهادة الشهود على أن هذا خط الحاكم وكتابه ، وكذلك الوصية ، أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ، ونحو ذلك.

٦ ـ قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يبق من الأسباب الدالة على الغيب

التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ، فإنه أذن فيها وأخبر أنها جزء من النبوة ، وكذلك الفأل ، فأما الطّيرة والزّجر فإنه نهى عنهما. والفأل : هو الاستدلال بما يستمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا ، فإن سمع مكروها فهو تطيّر ، وأمر الشرع بأن يفرح بالفأل ، ويمضي على أمره مسرورا به. وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجله ، وقال .كما علّمه النبي ﷺ : «اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك»(١).

## شبهات المشركين حول الوحي والنبوة والقرآن

**. ١ .**

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾

**الإعراب :**

﴿بَيِّناتٍ﴾ حال.

﴿كَفى بِهِ شَهِيداً﴾ تمييز منصوب.

---

(١) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٨٥

﴿ما يُفْعَلُ بِي ما﴾ : إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة.

﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ جملة حالية.

﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ ..﴾ أدغمت الدال من ﴿شَهِدَ﴾ في الشين من ﴿شاهِدٌ﴾ لقرب الدال من الشين ، كما يجوز إدغام الثاء والسين والضاد في الشين ، فالثاء كقوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ والسين كقوله تعالى : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ والضاد كقوله تعالى : ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾. وإنما أدغمت هذه الأحرف في الشين ، ولم يدغم الشين في هذه الأحرف ، لأنها أزيد صوتا منها ، لما فيها من التفشي.

**البلاغة :**

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَمْ﴾ : بمعنى «بل» الإضرابية ، والإضراب : الانتقال من معنى لآخر ، والهمزة للإنكار.

﴿بِما تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ استعارة تبعية ، استعمل الإفاضة في الأخذ في الشيء والاندفاع فيه.

﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

**المفردات اللغوية :**

﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل مكة ﴿آياتُنا﴾ القرآن ﴿بَيِّناتٍ﴾ واضحات ظاهرات ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿لِلْحَقِ﴾ أي آيات القرآن والمعنى في شأن الحق ولأجله ﴿لَمَّا جاءَهُمْ﴾ حينما جاءهم من غير نظر وتأمل ﴿هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر بطلانه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي بل أيقولون ، والهمزة الاستفهامية للإنكار ، والمراد : الإضراب عن تسميتهم إياه سحرا إلى ذكر ما هو أشنع منه وإنكار له وتعجيب ﴿افْتَراهُ﴾ أي اختلقه وهو القرآن ﴿قُلْ : إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ على سبيل الافتراض ﴿مِنَ اللهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئاً﴾ أي إن عاجلني الله بالعقوبة ، فلا تقدرون على دفع شيء منها ، فكيف أجترئ عليه ، وأعرّض نفسي للعقاب من غير توقع نفع ، ولا دفع ضرّ من قبلكم ﴿تُفِيضُونَ﴾ تندفعون وتقولون في القرآن من القدح والطعن والتكذيب ﴿كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ ، وعليكم بالكذب والإنكار ، وهو وعيد بالجزاء على إفاضتهم في آيات القرآن ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الكثير المغفرة والرحمة ، وهو وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن ، وإشعار بحلم الله ، فلم يعاجلهم بالعقوبة.

﴿بِدْعاً﴾ أو بديعا ، أي مبتدعا ليس له مثال أو سابقة ، وقرئ : بدعا جمع بدعة ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي لست أول مرسل ، فقد سبق قبلي كثيرون منهم ، فكيف تكذبونني؟ ﴿وَما أَدْرِي﴾

﴿ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ في الدارين ، إذ لا علم لي بالغيب ، و ﴿لا﴾ لتأكيد النفي ، و ﴿ما﴾ إما موصولة منصوبة ، أو استفهامية مرفوعة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ أي ما أتبع إلا القرآن الموحى به ، ولا أبتدع شيئا من عندي ، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه من الغيوب ﴿وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ منذر بيّن الإنذار بالشواهد والمعجزات عن عقاب الله.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني عن حالكم ﴿إِنْ كانَ﴾ القرآن ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ هو عبد الله بن سلام ، وشهادته بما في التوراة من نعت الرسول ﴿عَلى مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن ، أي شهد على مثل ما في القرآن من التوراة من المعاني المصدّقة للقرآن المطابقة لها ، أو شهد على مثل ذلك وهو كون القرآن من عند الله ﴿فَآمَنَ﴾ الشاهد ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن الإيمان ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا دليل على جواب الشرط المحذوف ، تقديره : ألستم ظالمين؟.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١٠):**

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ..﴾ : أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عوف بن مالك الأشجعي قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه ، دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : يا معشر اليهود ، أروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، يحطّ الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه ، فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، ثم انصرف ، فإذا رجل من خلفه ، فقال : كما أنت يا محمد ، فأقبل ، فقال : أي رجل تعلموني يا معشر اليهود؟

قالوا : والله ما نعلم فينا رجلا كان أعلم بكتاب الله ، ولا أفقه منك ، ولا من أبيك قبلك ، ولا من جدك قبل أبيك ، قال : فإني أشهد أنه النبي الذي تجدون في التوراة ، قالوا : كذبت ، ثم ردوا عليه ، وقالوا فيه شرا ، فأنزل الله : ﴿قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ..﴾ الآية.

وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن سعد بن أبي وقاص قال : في

عبد الله بن سلام نزلت ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله. وأخرج ابن جرير والترمذي وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : «فيّ نزلت» ونزل فيّ : ﴿قُلْ : كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ [الرعد ١٣ / ٤٣].

**المناسبة :**

بعد تقرير التوحيد ونفي الأضداد والأنداد ، ذكر الله تعالى أمر النبوة وشبهات المشركين حولها وحول القرآن ، فأبان أنهم يسمون معجزة القرآن بالسحر ، وأنهم متى سمعوا القرآن قالوا : إن محمدا افتراه واختلقه من عند نفسه ، ثم أبطل تعالى شبهتهم ، فقال : إن افتريته على سبيل الفرض ، فإن الله تعالى يعاجلني بالعقوبة ، وأنتم لا تقدرون على دفع العذاب عني ، فكيف أقدم على هذه الفرية ، وأعرّض نفسي لعقابه؟!

ثم حكى عنهم نوعا آخر من الشبهات ، وهو أنهم كانوا يقترحون عليه معجزات عجيبة ، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات ، فأجابهم الله تعالى بأن يقول لهم النبي ﷺ : لست بأول رسول أرسله الله ، حتى تنكروا إخباري بأني رسول الله إليكم ، وتنكروا دعوتي لكم إلى التوحيد ، ونهيي عن عبادة الأصنام ، فإن كل الرسل إنما بعثوا لهذه الأهداف والغايات ، وأنا من جنس الرسل وواحد منهم لا أستطيع ولا أقدر على الإتيان بالمعجزات والإخبار عن المغيبات ، فذلك ليس في وسع البشر ، وإنما هو بقدرة الله تعالى.

**التفسير والبيان :**

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ : هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

أي إذا تليت على المشركين آيات القرآن حال كونها بيّنة واضحة

جلية ، قالوا في شأن الحق الذي أتاهم وهو القرآن : هذا سحر واضح وتمويه خادع ، فكذبوا به وافتروا ، وكفروا وضلوا.

ثم ذكر الله تعالى ما هو أشنع من وصف القرآن بالسحر ورد عليهم ، فقال :

﴿أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ ، قُلْ : إِنِ افْتَرَيْتُهُ ، فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ أي بل أيقولون : افترى محمد هذا القرآن واختلقه من عند نفسه ، كذبا على الله؟ فرد الله تعالى عليهم : قل لهم أيها الرسول : لو افتريته وكذبت على الله على سبيل الفرض والتقدير كما تدّعون ، وزعمت أنه أرسلني رسولا إليكم ، ولم يكن الأمر كذلك ، لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض ، لا أنتم ولا غيركم أن يدفع عقابه عني ، فكيف أقدم على هذه الفرية ، وأعرّض نفسي لعقابه؟

وقوله : ﴿أَمْ﴾ للإنكار والتعجيب كما تقدم ، كأنه قيل : دع هذا واسمع القول المنكر العجيب.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿قُلْ : إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ، إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ﴾ [الجن ٧٢ / ٢٣]. وقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ، لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٤٤ ـ ٤٧] وذكر هنا :

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي الله أعلم بما تقولون في القرآن ، وتخوضون فيه ، من التكذيب له ، والقول بأنه سحر وكهانة ، كفى بالله شاهدا صادقا يشهد لي بأن القرآن من عنده ، وبالبلاغ لكم ، وبالتكذيب والجحود منكم ، ومع كل هذا الذي صدر منكم فالله هو الغفور لمن تاب وآمن ، وصدّق بالقرآن ، وعمل بما فيه.

وهذا جمع بين الوعيد والتهديد والترهيب وبين الترغيب لهم في التوبة

والإنابة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ، قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٥ ـ ٦].

ثم رد الله على المشركين شبهة أخرى هي اقتراح الإتيان بمعجزات ، والإخبار عن مغيبات فقال :

﴿قُلْ : ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ، وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ أي لست بأول رسول جاء إلى العالم ، بل قد بعث الله قبلي كثيرا من الرسل ، فما أنا بالأمر المبتدع الذي لا نظير له ، حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم ، ولست أعلم ما يفعل بي ولا بكم في مستقبل الزمان في الدنيا وكذا يوم القيامة ، هل أبقى في مكة أو أخرج منها؟ وهل أموت أو أقتل ، وهل تعجل لكم العقوبة أيها المكذبون أم تمهلون؟ والمعنى : إني لا أعلم بما لي بالغيب ، فأفعاله تعالى وما يقدره لي ولكم من قضاياه لا أعلمها (١).

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ ، وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي إنما أتبع الوحي الذي ينزله الله علي في القرآن والسنة ، ولا أبتدع من عندي شيئا ، ولست إلا نذيرا لكم أنذركم عقاب الله وأخوفكم عذابه على نحو واضح ظاهر لكل عاقل.

وهذا دليل على أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم لا يدري ما يؤول إليه أمره وأمر المشركين في دار الدنيا ، أما في الآخرة فهو صلى‌الله‌عليه‌وسلم جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وذلك في الجملة ، ولا يقطع لشخص معين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة المبشرين بالجنة (٢) ، وابن سلام ، والعميصاء ، وبلال ، وسراقة ،

---

(١) البحر المحيط : ٨ / ٥٦

(٢) وهم الخلفاء الراشدون الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وطلحة بن عبد الله ، والزبير بن العوام ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف رضي‌الله‌عنهم .

وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، والقرّاء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم ، والدليل على ذلك الحديث التالي :

أخرج أحمد والبخاري عن أم العلاء ـ وهي امرأة من نساء الأنصار ـ قالت : «لما مات عثمان بن مظعون ، قلت : رحمك الله أبا السائب ، شهادتي عليك ، لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يفعل بي ولا بكم ، قالت أمّ العلاء : فو الله لا أزكي بعده أحدا».

وفي رواية الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس : «أنه لما مات قالت امرأته أو امرأة : هنيئا لك ابن مظعون الجنة ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضب ، وقال : وما يدريك؟ والله ، إني لرسول الله ، وما أدري ما يفعل الله بي ، فقالت : يا رسول الله ، صاحبك وفارسك وأنت أعلم ، فقال : أرجو له رحمة ربه تعالى ، وأخاف عليه ذنبه».

ثم أكد الله تعالى خسارة المشركين قائلا :

﴿قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَكَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ ، فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله في الحقيقة ، والحال أنكم قد كفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوراة على صحته وعلى مثله وهو القرآن ، أو على مثل ما قلت ، فآمن الشاهد بالقرآن لما تبيّن له أنه من كلام الله ، وهذا الشاهد هو عبد الله بن سلام الذي أسلم بعد الهجرة ، ثم تكبرتم عن الإيمان به ، فقد ظلمتم أنفسكم (١) وكنتم

---

(١) هذا جواب الشرط المحذوف لقوله : إنْ المفهوم من قوله : إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي ... والمفعول الثاني لقوله ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ مقدر ، أي ألستم ظالمين؟

من الخاسرين. وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ معناه لا يوفقهم إلى الخير ، وهو استئناف بياني ، تعليل لاستكبارهم.

وبعبارة أخرى : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي قد جئتكم به قد أنزله الله علي لإبلاغكم به ، وقد كفرتم به وكذبتموه ، ألستم تكونون أضل الناس وأظلمهم؟! أو ألستم كنتم ظالمين لأنفسكم؟ يدل على هذا الجواب المحذوف قوله : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

والشاهد في رأي أكثر المفسرين هو عبد الله بن سلام ، بدليل ما ذكر صاحب الكشاف : «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر ـ أي ابن سلام ـ إلى وجهه ، فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر ، وقال له : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ :

أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وأما الولد ، فإذا سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته ، فقال : أشهد أنك رسول الله حقا ، ثم قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ، فقال لهم النبي ﷺ : أيّ رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبد الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله ، وأحذر» [1].

أما إنكار أن يكون الشاهد هو عبد الله بن سلام ، لأن إسلامه كان بالمدينة

(١) الكشاف : ٣ / ١١٩

قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين ، وهذه السورة مكية ، فالجواب عليه ـ كما ذكر الكلبي ـ بأن السورة مكية إلا هذه الآية ، فإنها مدنية ، وكانت الآية تنزل ، فيؤمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في سورة كذا ، فهذه الآية نزلت بالمدينة ، وإن الله تعالى أمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في هذه السورة المكية ، في هذا الموضع المعين [1].

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ عادى مشركو مكة النبي ﷺ ، فكذبوا كون القرآن نازلا من عند الله ، وكذبوا النبوة ، ووصفوا القرآن بأنه سحر واضح.

٢ ـ ولم يكتفوا بوصف القرآن بأنه سحر ، بل قالوا ما هو أشنع من ذلك ، قالوا : إن محمدا اختلقه وافتراه من عند نفسه ، لا من عند الله.

٣ ـ ردّ الله عليهم افتراءهم بأنه لو افتراه محمد ﷺ على سبيل الفرض والتقدير لعجّل الله له العقوبة في الدنيا ، ولم يقدر أحد أن يرد عنه عذاب الله ، والله أعلم بما يتقوّله ويخوض به من التكذيب هؤلاء المشركون ، وكفى بالله شاهدا على أن القرآن من عند الله ، وأنه يعلم صدق نبيه وأنهم مبطلون.

وبالرغم من ذلك فالله الغفور لمن تاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فإذا آمن هؤلاء المشركون ، غفر لهم ما قد سلف منهم من الذنوب والمعاصي.

٤ ـ ليس النبي ﷺ أول رسول يرسل ، بل هو خاتم الرسل الكرام ، قد كان قبله رسل ، فليست دعوته إلى التوحيد ، وإنكار عبادة الأصنام ، وعدم علمه بالغيب مقصورا عليه ، وتلك دعوة قديمة هي دعوة جميع الرسل.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ١٠

٥ ـ النبي ﷺ غير عالم بالغيبيات إلا بطريق الوحي ، فلا وجه لطلب إخباره بمغيبات لا يعلم بها ، فهو لا يدري بما يفعل به ولا بالناس من أحوال الدنيا وأحوال الآخرة ، من الأحكام والتكاليف وما يؤول أمر المكلفين إليه. وبه يعلم أن ما يدّعى من علم بعض الأولياء بالغيب هو أمر باطل وكذب مفترى.

لكن نظرا لأن النبي ﷺ يعلم كونه نبيا ، فهو يعلم أنه لا تصدر عنه الكبائر ، وأنه مغفور له ، وقد تأكد هذا بقوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ [الفتح ٤٨ / ٢] وقوله سبحانه : ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ [الفتح ٤٨ / ٥] وقوله عزّوجلّ : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٤٧].

٦ ـ لا نسخ في آية : ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ لما ذكر الواحدي وغيره عن ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصّها على أصحابه ، فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ، فقالوا : يا رسول الله ، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت النبي ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ أي لا أدري أأخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا ، ثم قال : «إنما هو شيء رأيته في منامي ، ما أتبع إلا ما يوحى إلي» أي لم يوح إليّ ما أخبرتكم به. قال القشيري : فعلى هذا لا نسخ في الآية.

٧ ـ دلت آية ﴿قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ..﴾ على إنذار المشركين الظالمين بعذاب أليم إذا استمروا في تكذيبهم بالقرآن ، وتكبروا عن الإيمان به وعن اتباعه وطاعة الرسول المنزل عليه ، بالرغم من شهادة رجل منصف عارف بالتوراة بأن القرآن حق ، سواء أكان عبد الله بن سلام أم موسى عليه‌السلام . وعلى كل حال فهذه الآية بشارة بالنبي ﷺ في التوراة وعلى لسان موسى عليه‌السلام

ولسان علماء بين إسرائيل ، فهي كبشارة عيسى عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف ٦١ / ٦].

وفي الآية تقديم وتأخير ، تقديره : قل : أرأيتم إن كان من عند الله ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على ذلك ، أي على صدق القرآن ، فآمن هو ، وكفرتم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، أي الكافرين المعاندين.

وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تهديد ، وهو قائم مقام الجواب المحذوف للشرط : ﴿إِنْ﴾ والتقدير : قل أرأيتم إن كان من عند الله ، ثم كفرتم به ، فإنكم لا تكونون مهتدين ، بل تكونون ضالين.

## شبهات أخرى للكفار

### ـ ٢ ـ

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)﴾

**الإعراب :**

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً كِتابُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ : خبره ، و ﴿إِماماً وَرَحْمَةً﴾ : منصوبان على الحال من الضمير في الظرف ، أو من «الكتاب».

﴿وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ هذا كِتابٌ﴾ : مبتدأ وخبر ، و ﴿لِساناً عَرَبِيًّا﴾ : منصوبان على الحال من ضمير ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أو من «الكتاب» لأنه قد وصف ب ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أو من «ذا» والعامل فيه معنى الإشارة ، أي أشير إليه لسانا عربيا ، أو أنبه عليه لسانا عربيا. ﴿وَبُشْرى﴾ : إما مرفوع عطفا على كتاب ، أو منصوب على أنه مصدر.

﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها خالِدِينَ﴾ : منصوب على الحال من ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ﴾ والعامل فيها معنى الإشارة في ﴿أُولئِكَ﴾ كقولك : هذا زيد قائما.

﴿جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ جَزاءً﴾ : إما مفعول لأجله ، أو منصوب على المصدر المؤكد ، أي جوزوا جزاء.

**البلاغة :**

﴿لِيُنْذِرَ وَبُشْرى﴾ بينهما طباق.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم قريش ، وقيل : بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع ، لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار ، وقيل : اليهود حين أسلم ابن سلام وصحبه.

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي لأجلهم وفي حقهم ، وقيل : إليهم. ﴿لَوْ كانَ﴾ الإيمان. ﴿ما سَبَقُونا إِلَيْهِ﴾ فهم أناس أدنياء ، إذ عامتهم فقراء وموالي ورعاة. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي حينما لم يهتد القائلون بالقرآن ، وإذ للماضي ظرف لمحذوف مثل : ظهر عنادهم. ﴿هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي القرآن كذب قديم ، مثل قولهم : أساطير الأولين.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن. ﴿كِتابُ مُوسى﴾ التوراة. ﴿وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ﴾ أي القرآن مؤيد لكتاب موسى. ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم مشركو مكة ، وهو علة لقوله.

﴿مُصَدِّقٌ وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي والقرآن مبشر للمؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ على الطاعة ، أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم ، والاستقامة في أمور الدين والعمل ، وقوله ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تأخير رتبة العمل وتوقفه على التوحيد. ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه في المستقبل. ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب في الماضي ، والفاء في ﴿فَلا﴾ لتضمن جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ معنى الشرط. ﴿جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١١):**

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : أخرج الطبراني عن قتادة قال : قال ناس من المشركين : نحن أعزّ ، ونحن ونحن ، فلو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾.

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها (زنّين) أو (زنّيرة) فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيرا ما سبقتنا إليه زنين ، فأنزل الله في شأنها : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ كانَ خَيْراً﴾ الآية.

وقال عروة بن الزبير : إن زنّيرة ـ رومية كان أبو جهل يعذبها ـ أسلمت ، فأصيب بصرها ، فقالوا لها : أصابك اللات والعزّى ، فرد الله عليها بصرها ، فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زنّيرة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عباس والكلبي والزجاج : إن الذين كفروا هم بنو عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة وأشجع ، قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجهينة ومزينة وخزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه رعاة البهم ، إذ نحن أعزّ منهم.

وقال أكثر المفسرين : إن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا ـ يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ـ : لو كان دين محمد حقا ما سبقونا إليه.

**المناسبة :**

هذه شبهة أخرى للقوم : المشركين أو اليهود ، في إنكار نبوة محمد ﷺ ،

تتعلق بإيمان جماعة من الفقراء كعمّار وصهيب وابن مسعود ، فقالوا : لو كان هذا الدين خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء. ثم رد الله تعالى عليهم بأن التوراة دلت على صدق القرآن ، وبشرت ببعثة محمد ﷺ.

وبعد تقرير دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المنكرين والإجابة عنها ، ذكر تعالى جزاء المؤمنين العاملين عملا صالحا ، طبقا لما جاء به القرآن المجيد.

**التفسير والبيان :**

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ﴾ أي قال كفار مكة أو اليهود لأجل إيمان بعض الفقراء والمستضعفين ، كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم رضي الله عنهم : لو كان هذا الدين حقا وكان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيرا ما سبقونا إلى الإيمان به ، ظنا منهم أنهم سبّاقون إلى المكارم ، وأن لهم وجاهة عند الله ، وله بهم عناية.

وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا ، فإن الله سبحانه يصطفي للنبوة ولدينه من يشاء ، والآية كقوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا : أَهؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا﴾ [الأنعام ٦ / ٥٣] أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا.

وقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه كما ذكر الزمخشري : لأجلهم ، يعني أن الكفار قالوا لأجل إيمان الذين آمنوا : لو كان خيرا ما سبقونا إليه. ويصح أن يكون المعنى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا ، على وجه الخطاب ، كما تقول : قال زيد لعمرو ، ثم تترك الخطاب وتنتقل إلى الغيبة ، كقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس ١٠ / ٢٢].

ثم وصف الله تعالى حال أولئك الكفار بعد ذلك القول وأجاب عنه بقوله :

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، فَسَيَقُولُونَ : هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي وحين لم يهتدوا بالقرآن ، ظهر عنادهم ، وسيقولون بعدئذ : هذا كذب مأثور عن الناس الأقدمين ، كما قالوا : ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ بقصد انتقاص القرآن وأهله. وهذا هو الكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود : «الكبر : بطر الحق ، وغمص - أو غمص - الناس» أي احتقارهم. وبطر الحق : دفعه ورده.

ثم ذكر الله تعالى دليلا على صدق القرآن وصحته ، فقال :

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً ، وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ومما يدل على أن القرآن حق وصدق وأنه من عند الله : اعترافكم بإنزال الله التوراة على موسى ، الذي هو إمام وقدوة يقتدى به في الدين ، وهو رحمة لمن آمن به ، وهذا القرآن الموافق للتوراة في أصول الشرائع مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب الإلهية المتقدمة ، أنزله الله حال كونه بلغة عربية واضحة فصيحة يفهمونها ، من أجل أن ينذر به هذا النبي من عذاب الله الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة ، ويبشر به المؤمنين الذين أحسنوا عملا ، فهو مشتمل على النذارة للكافرين ، والبشارة للمؤمنين. وهو ليس إفكا قديما كما يزعمون ، بدليل توافقه مع التوراة.

وبعد ذكر شبهات المنكرين ، ذكر الله تعالى حال المؤمنين وجزاءهم قائلا :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا ، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي إن الذين جمعوا بين التوحيد والاستقامة على منهج الشريعة ، لا يخافون من وقوع مكروه بهم في المستقبل ، ولا يحزنون من فوات محبوب في الماضي ، وجزاؤهم ما قال تعالى :

﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أولئك المؤمنون الموحدون المستقيمون على أمر الله هم أهل الجنة ، ماكثين فيها على

الدوام ، مقابل ما قدموه من أعمال صالحة في الدنيا ، أي أن الجزاء بسبب العمل الصالح في الدنيا.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن شأن المتكبرين المقصرين تسويغ تقصيرهم بأتفه الأسباب وأسخف المقالات بدافع الكبر والاستعلاء ، لذا قال أهل مكة : لو كان هذا الدين حقا ما سبقنا إليه هؤلاء العبيد والمستضعفون ، وأضافوا إلى ذلك حينما لم يهتدوا افتراءهم بقولهم : هذا القرآن كذب متوارث ، وأساطير الأولين. ومن جهل شيئا عاداه.

٢ ـ مما يدل على صدق القرآن وأنه من عند الله توافقه في أصول العقيدة والشريعة مع التوراة كتاب موسى عليه‌السلام الذي يقرّون بأنه كتاب الله ، فهو قدوة ورحمة يؤتم به في دين الله وشرائعه ، والقرآن مصدّق للتوراة ولما قبله من كتب الله في أن محمدا صلى‌الله‌عليه‌وسلم رسول حقا من عند الله ، وهو بلغة عربية فصيحة بيّنة واضحة لكل من نظر فيه وتأمل ، يشتمل على إنذار الكافرين وبشارة المؤمنين.

وكأنه تعالى قال : الذي يدل على صحة القرآن : أنكم لا تنازعون في أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه‌السلام ، وجعل هذا الكتاب إماما يقتدى به ، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، فإذا سلّمتم كون التوراة إماما يقتدى به ، فاقبلوا حكمه في كون محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم رسولا حقا من عند الله تعالى.

٣ ـ إن الذين جمعوا بين الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وبين الاستقامة على الشريعة في غاية السعادة النفسية والمادية ، فهم آمنون مطمئون مرتاحون لا يعكر صفوهم مخاوف المستقبل ولا أحزان الماضي ، وهم خالدون دائمون في جنات النعيم ، بسبب ما قدموا من عمل صالح في دار الدنيا.

## الوصية ببر الوالدين

## ـ ١ ـ

### وصف الولد البار بوالديه

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾

**الإعراب :**

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً﴾ وقرئ : حسنا وحسنا ، وإحسانا : منصوب على المصدر ، أي أن يحسن إحسانا. وحسنا : صفة لمفعول محذوف ، أي ووصينا الإنسان بوالديه أمرا ذا حسن ، وحسنا : تقديره : فعلا حسنا.

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ثَلاثُونَ﴾ : خبر مبتدأ الذي هو ﴿حَمْلُهُ﴾ وإنما رفع ، لأن في الكلام مقدرا محذوفا ، تقديره : وقدّر حمله وفصاله ثلاثون شهرا. وفي هذا ما يدل على أن أقل الحمل ستة أشهر ، مراعاة لآية أخرى هي : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٣] فإذا أسقط حولان من ثلاثين أشهرا بقي مدة الحمل ستة أشهر.

﴿فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ﴾ حال ، أي كائنين في جملتهم.

﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه.

**البلاغة :**

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً﴾ بعد قوله : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية بالأم.

﴿حَمَلَتْهُ وَوَضَعَتْهُ﴾ بينهما طباق.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَوَصَّيْنَا﴾ من التوصية والإيصاء والوصية : وهي الأمر المقترن بضرورة الاعتناء والاهتمام ، أي أمرنا ﴿إِحْساناً﴾ أن يحسن لهما إحسانا : وهو ضد الإساءة ، والحسن ضد القبح ، أي أن يفعل معهما فعلا ذا حسن ﴿كُرْهاً﴾ مشقة. ﴿وَحَمْلُهُ﴾ مدة حمله. ﴿وَفِصالُهُ﴾ فطامه ، أي المدة القصوى لفطامه من الرضاع سنتان ، وأقل مدة الحمل ستة أشهر ، والباقي أكثر مدة الرضاع. ﴿حَتَّى إِذا﴾ غاية لجملة مقدرة ، أي وعاش حتى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ بلوغ الأشد : كمال العقل والرأي والقوة ، وأقله ثلاثون أو ثلاث وثلاثون سنة. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي تمامها ، وهو أكثر الأشد ، قيل : لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأنه إذا حط منه للفصال حولان لقوله تعالى : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٣] بقي ذلك ، وبه قال الأطباء. ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما.

﴿أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني ووفقني ورغّبني. ﴿نِعْمَتَكَ﴾ نعمة الدين وغيرها من النعم. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ﴾ نكّر كلمة ﴿صالِحاً﴾ أي عملا صالحا للتعظيم ، أو أنه أراد أي عمل أو نوع من جنس الأعمال يحقق رضا الله عزوجل. ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل الصلاح ساريا في ذريتي راسخا فيهم. ﴿أُولئِكَ﴾ أي قائلو هذا القول ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا﴾ أي حسن أعمالهم وطاعاتهم ، فإن المباح حسن ولا يثاب عليه وقرئ : يتقبل. ﴿وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ لتوبتهم وقرئ : ويتجاوز. ﴿فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ﴾ أي كائنين في عدادهم أو معدودين فيهم. ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا في قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ﴾ [التوبة ٩ / ٧٢].

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١٥):**

﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ : روى الواحدي عن ابن عباس قال : أنزلت في

أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وذلك أنه صحب رسول الله ﷺ ، وهو ابن ثمان عشرة سنة ، ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ، وهم يريدون الشام في التجارة ، فنزلوا منزلا فيه سدرة (شجرة السدر) فقعد رسول الله ﷺ في ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين ، فقال له : من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، قال : هذا والله نبيّ ، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد نبي الله ، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، وكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضوره ، فلما نبّئ رسول الله ﷺ ، وهو ابن أربعين سنة ، وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدّق رسول الله ﷺ ، فلما بلغ أربعين سنة قال : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[1].

وقال السدّي والضحاك : نزلت في سعد بن أبي وقاص ، أخرج مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه عن سعد رضي الله عنه قال : قالت أم سعد لسعد : أليس الله قد أمر بطاعة الوالدين ، فلا آكل طعاما ، ولا أشرب شرابا ، حتى تكفر بالله تعالى ، فامتنعت من الطعام والشراب ، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا ، ونزلت هذه الآية : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً﴾.

وقال الحسن البصري : «هي مرسلة نزلت على العموم». وهذا هو الأولى ، لأن حمل اللفظ على العموم منذ بداية نزول الوحي أوقع وأفيد وأشمل ، وإن كانت العبرة دائما لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

**المناسبة :**

بعد أن ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين الموحدين المستقيمين على الشريعة ، أمر ووصى ببر الوالدين ، وأشاد بصفة خاصة بالبارّ والديه بعد بلوغه سن الأربعين ،

---

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري : ص ٢١٦ ، تفسير القرطبي : ١٦ / ١٩٤

وبشّره بقبول أعماله الصالحة ، والتجاوز عن سيئاته ، وجعله في عداد أصحاب الجنة ، وعدا منجزا لا خلف فيه.

**التفسير والبيان :**

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً﴾ أي وصيناه وأمرناه أن يحسن إليهما إحسانا في الحياة وبعد الممات بالحنو عليهما وبرهما والإنفاق عليهما عند الحاجة والبشاشة عند لقائهما ،كما جاء في آيات أخرى مثل قوله تعالى : ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ..﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٣] وقوله سبحانه : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان ٣١ / ١٤].

وجاءت الأحاديث النبوية الكثيرة المؤيدة للقرآن في هذا الأدب العظيم ، وجعل بر الأبوين من أفضل الأعمال ، وعقوقهما من الكبائر ، ووصل البر بعد الوفاة ، منها ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس» ومنها ما أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال : «بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ جاءه رجل من بني سلمة ، فقال : يا رسول الله ، هل بقي من برّ أبويّ شيء أبرّهما به بعد موتهما؟ فقال : نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما».

ثم ذكر سبب التوصية وخص الأم لزيادة العناية والاهتمام بها ، فقال تعالى :

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ أي حملته في بطنها بمشقة ، وولدته بمشقة ، فإنها قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبا من وحم وغشيان وثقل وكرب ، ووضعته بمشقة أيضا من ألم الطّلق وشدته ، ووجع الولادة ثم الرضاع

والتربية ، وكانت أيام الوحم تمتنع من الطعام والشراب ، وتعاف كل شيء ، مما يستدعي البر بها والإحسان الزائد إليها ، كما قال تعالى :

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ أي إن مدة حمله وفطامه ثلاثون شهرا ، أي عامان ونصف ، عانت فيهما الأم آلام السهر ، وعناء الرضاع والغذاء والتنظيف والتربية بمحبة وحنان ، دون ضجر ولا سأم.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم آكد من حق الأب ، لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة ، وأرضعته وحضنته ، وعنيت به بتعب وصبر ، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك ، وإن تعب في الكسب والإنفاق ، لذا جاءت الأحاديث النبوية تؤكد بر الأم ، وتقدّمه بمراتب ثلاث على مرتبة الأب ، أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، من أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال : أمّك ، قال : ثم من؟ قال : أمّك ، قال : ثم من؟ قال : أمّك ، قال : ثم من؟ قال : ثم أبوك».

وفي الآية أيضا إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر (نصف عام) وكان علي رضي الله عنه أول من استدل بهذه الآية وآية لقمان. ﴿وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾ [١٤] وقوله تعالى : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٣] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأن أكثر مدة الرضاع والفطام حولان كاملان ، فبقي للحمل من الثلاثين شهرا ستة أشهر.

وهو استنباط صحيح ، وافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، روى ابن أبي حاتم ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية عن معمر بن عبد الله الجهني قال : تزوّج رجل منا امرأة من جهينة ، فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه ، فذكر ذلك له ، فبعث إليها ،

فلما قامت لتلبس ثيابها ، بكت أختها ، فقالت : وما يبكيك؟ فو الله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضي الله سبحانه وتعالى فيّ ما شاء ، فلما أتى بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا رضي الله عنه ، فأتاه ، فقال له : ما تصنع؟ قال : ولدت تماما لستة أشهر ، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي رضي الله عنه : أما تقرأ القرآن؟ قال : بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجل يقول : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ وقال : ﴿حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر ، فقال عثمان رضي الله عنه : والله ما فطنت بهذا ، عليّ بالمرأة ، فوجدوها قد فرغ منها [1] ، فقال معمر : فو الله ما الغراب بالغراب ، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه ، قال : ابني والله ، لا أشك فيه.

وروى ابن أبي حاتم أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر ، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر ، كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعته لستة أشهر ، فحولين كاملين ، لأن الله تعالى يقول : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ، حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾.

﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي حتى إذا قوي وشب وارتجل ، فاستحكم عقله وقوته ، وذلك بين الثلاثين والأربعين ، وتناهي عقله ، وكمل فهمه وحلمه ببلوغ الأربعين سنة. وقوله ﴿حَتَّى﴾ غاية لمحذوف تقديره : فعاش أو طالت حياته حتى إذا بلغ الأشد ، أي القوة ، وذلك يكون بكمال قوته المادية والعقلية ، لذلك قيل : إنه لم ينبأ نبي قبل الأربعين إلا ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام .

﴿قالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ﴾ أي إذا بلغ الأربعين قال : رب ألهمني ووفقني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها علي

---

(١) وفي رواية : أن عثمان رجع عن قوله ولم يحدّها ، أي أن الأمر تم قبل الحدّ.

وعلى والدي من نعمة الهداية إلى الدين الحق والتوحيد وغير ذلك من نعم الدنيا ، كسلامة العقل ، والصحة والعافية ، وسعة العيش ، وتمام الخلقة السوية ، وحنان الأبوين حين ربياني صغيرا.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ هذا معطوف على قوله : ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ أي ألهمني ووفقني للعمل الصالح الذي ترضاه مني ، والعمل الصالح المرضي : هو ما يكون سالما من غوائل عدم القبول ، واجعل الصلاح ساريا في ذريتي (١) ، متمكنا راسخا فيهم ، حتى يكون لهم طبعا وخلقا.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي إني تبت وأنبت إليك من جميع الذنوب ، والآثام ، وإني من المستسلمين لك ، المنقادين لطاعتك ، المخلصين لتوحيدك ، الخاضعين لربوبيتك.

قال ابن كثير : وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عزوجل ، ويعزم عليها (٢) ، وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي‌الله‌عنه أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم كان يعلّمهم أن يقولوا في التشهد : «اللهم ألّف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجّنا من الظلمات إلى النور ، وجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك ، قابليها ، وأتمّها علينا».

ثم ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء الصالحين قائلا :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ، وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ ، فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ. وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي أولئك الذين هذه

---

(١) أصلح : يتعدى بنفسه ، وإنما عدي بالحرف في هنا لإفادة الرسوخ والسريان.

(٢) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٥٧ وما بعدها.

طريقتهم ، الموصوفون بالصفات المتقدمة التائبون إلى الله المنيبون إليه ، هم الذين يكرمهم الله ، فيتقبل عنهم ما قدموا من صالح العمل ، وأعمال الخير في الدنيا المنسجمة مع أوامر الله ، ويعفو عنهم ويغفر لهم سيئاتهم وذنوبهم ، فلا يعاقبهم عليها ، إذ هي تتلاشى بجانب الحسنات : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود ١١ / ١١٤].

وهم في جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله عَزَّجَلَّ ، كما وعد الله من تاب إليه وأناب ، فهو وعد منجّز لا خلف فيه ولا شك في حصوله ، وهو الوعد الذي وعدهم الله به في كتبه وعلى لسان أنبيائه ، والله منجز ما وعد.

وقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الإنسان المذكور في قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وجمعه باعتبار أفراد الإنسان الذين تحقق فيهم ما ذكر من الأوصاف من معرفة حقوق الوالدين ، والرجوع إلى الله بسؤال التوفيق للشكر ، وهو إيذان بأن هذه الأوصاف هي صفات الإنسانية الكاملة.

وقوله : ﴿أَحْسَنَ ما عَمِلُوا﴾ أي حسن ما عملوا ، فيشمل الحسن والأحسن.

وقوله : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لما قبله ، أي وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على ما يأتي :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن الإحسان إلى الوالدين فرض في الإسلام ، لقوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ والتوصية : الأمر ، والأمر يقتضي الوجوب.

٢ ـ إن سبب وجوب الإحسان إلى الأبوين واضح وهو كونهما كانا سببا لوجود الأولاد ، وتربيتهم وتنشئتهم ، وعلى التخصيص الأم التي تعاني من أجل الولد معاناة شديدة ربما تضحي بحياتها له ، فقد حملته بكره ومشقة ، ووضعته بكره ومشقة ، وسهرت على راحته الليالي الطوال ، وعانت في حضانته ورضاعته عناء لا يقدر.

٣ ـ إن حق الأم كما تقدم بدلالة الآية أعظم من حق الأب ، لأنه تعالى قال أولا : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً﴾ فذكرهما معا ، ثم خص الأم بالذّكر ، فقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ وذلك يدل على أن حقها أعظم ، وأن تحملها المشاق بسبب الولد أكثر.

٤ ـ دلت الآية أيضا كما تقدم على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثين شهرا ، وكان أقصى مدة الرضاع حولين كاملين ، بقي أقل مدة الحمل ستة أشهر ، بعد إسقاط مدة حولي الرضاع ، وهي أربع وعشرون شهرا من الثلاثين. روي عن عمر أن امرأة رفعت إليه ، وكانت قد ولدت لستة أشهر ، فأمر برجمها ، فقال علي : لا رجم عليها ، وكذلك روي عن عثمان أنه همّ بذلك ، فأبان له علي أو ابن عباس ما دلت عليه الآيات كما تقدم ، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها.

وروي أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق ، وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهرا ، حملته أمه تسعة أشهر ، وأرضعته إحدى وعشرين شهرا.

٥ ـ ودلت الآية أيضا على أن أكثر مدة الرضاع سنتان ، لأنه إذا دلت على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، فإنها تدل في الباقي من الثلاثين شهرا على أن أكثر مدة الرضاع حولان كاملان ، وتأيّد هذا بآية : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٣].

٦ ـ إن بلوغ الأشد يكون قبل الأربعين سنة ، والآية تدل على أن الإنسان كالمحتاج إلى رعاية الوالدين له إلى مدة قريبة من مدة الأربعين سنة.

٧ ـ على الإنسان أن يشكر نعمة الله عليه إذا بلغ أربعين سنة ، وهي مرحلة كمال العقل والبنية ، وأن يطلب من الله تعالى توفيقه للعمل الصالح الذي يرضيه ، وأن يجعل الصلاح ساريا في ذريته ، راسخا متمكنا فيهم.

قال علي رضي الله عنه : هذه الآية : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ! أسلم أبواه جميعا ، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ، ولزم ذلك من بعده.

ووالده : هو أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم. وأمه : أم الخير ، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد. وأم أبيه أبي قحافة : «قيلة». وامرأة أبي بكر الصديق اسمها «قتيلة» بنت عبد العزّى.

وقال ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ : أجاب الله دعاء أبي بكر ، فأعتق تسعة من المؤمنين يعذّبون في الله ، منهم بلال وعامر بن فهيرة ، ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه. ولم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده ، ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر. وهذا دليل على استجابة دعاء أبي أبكر.

ومن فضائل أبي بكر : ما ذكر في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أصبح منكم اليوم صائما؟ قال أبو بكر : أنا ، قال : فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر : أنا ، قال : فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟ قال أبو بكر : أنا ، قال : فمن عاد منكم اليوم مريضا؟ قال أبو بكر : أنا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة».

٨ . دلت آية : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ..﴾ على أن الآية التي قبلها : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ ..﴾ مرسلة ، نزلت على العموم ، وهو قول الحسن كما تقدم ، فتشمل أبا بكر وغيره.

٩ . وهذه الآية أيضا تدل على أن المتصف بالصفات التي قبلها هو أفضل الناس ، لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله ، ويتجاوز عن كل سيئاته ، يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم.

وأجمعت الأمة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، لدلالة الآية عليه ، وأنه هو أولا المراد منها ، وتنطبق على أمثاله من بعده.

١٠ . وصف الله تعالى هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء : هي أن يوفقه الله للشكر على نعمته ، وأن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله ، وأن يصلح له في ذريته ، وبذلك جمع جوانب السعادة النفسية والبدنية والخارجية. ويلاحظ منها أنه تعالى قدم الشكر على العمل ، وأن طلب إلهام الشكر على نعم الله دليل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى ، وأنه لا يكفي كون الشيء صالحا في ظنه ، بل يكون صالحا عنده وعند الله تعالى.

١١ . دل آخر الآية : ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ على أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة والإسلام والانقياد لأمر الله تعالى.

**ـ ٢ ـ**

## وصف الولد العاقّ لوالديه منكر البعث

﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾

**الإعراب :**

﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ : أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي؟ .. الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ﴾ : في موضع رفع مبتدأ ، وخبره محذوف ، تقديره : وفيما يتلى عليكم الذي قال لوالديه أو خبره : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَ﴾. و ﴿أُفٍ﴾ اسم فعل مضارع مبني على الكسر بمعنى أتضجر. و ﴿أَتَعِدانِنِي﴾ بكسر النون ، على الأصل في نون التثنية ، وهو الكسر ، في اللغة المشهورة الفصيحة ، وقرئ بالفتح على لغة بعض العرب تشبيها لها بنون الجمع ، كما كسروا نون الجمع تشبيها لها بنون التثنية ، حملا لإحداهما على الأخرى ، وقرئ أيضا بالإدغام.

﴿وَيْلَكَ آمِنْ وَيْلَكَ﴾ : منصوب على المصدر ، وهو من المصادر التي لا أفعال لها ، وهي ويحك ، وويسك ، وويبك. والأجود في هذه المصادر إذا كانت مضافة النصب ، والرفع فيها جائز ، والأجود فيها إذا كانت غير مضافة الرفع ، والنصب جائز فيها.

**البلاغة :**

﴿ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ بصيغة الحصر.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ فيها استعارة ، استعار الدرجات للمراتب.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا﴾ إيجاز بالحذف مع التقريع والتوبيخ ، أي يقال لهم : ﴿أَأَذْهَبْتُمْ﴾.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ﴾ أراد به الجنس من أي قائل ، وإن صحّ نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه ، فإن خصوص السبب لا يوجب التخصيص. ﴿أُفٍ﴾ بكسر الفاء وفتحها ، اسم فعل مضارع بمعنى : أتضجر ، أو مصدر ، أي : نتنا وقبحا ، والأصل فيه أنه صوت يظهر عند التضجر والتبرم. ﴿لَكُما﴾ أتضجر منكما. ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أبعث من القبر. ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ مضت الأمم من قبلي ولم يخرج أحد من القبور. ﴿وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ﴾ يقولان له : الغياث بالله منك ، أي من كفرك ، إنكارا واستعظاما له ، أي يطلبان الغوث من الله من كفره ، أو يطلبان من الله أن يغيثه بالتوفيق للإيمان ، أي يسألان الله أن يوفقه للإيمان ، ويقولان له : ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ بالله وبالبعث. ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ أي هلكت ، آمن بالبعث ، والويل : دعاء بالهلاك والثبور ، أو واد في جهنم ، والمراد به الحث على الفعل أو تركه حتى لا يهلك ، لا حقيقة الهلاك. ﴿فَيَقُولُ : ما هذا﴾ أي ما هذا القول بالبعث ﴿إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أكاذيب الأقدمين وأباطيلهم التي سطروها في كتبهم من غير حقيقة.

﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وجب عليهم الحكم بالعذاب وأنهم من أهل النار ، قال البيضاوي : وهو يردّ النزول في عبد الرحمن بن أبي بكر ، لأنه يدل على أنه من أهلها لذلك ، وقد جبّ عنه إن كان لإسلامه. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ تعليل للحكم على الاستئناف ، أي إنهم من الذين ضيعوا الفكر والنظر ، الشبيه برأس المال ، باتباعهم وساوس الشياطين.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي ولكل من الفريقين المؤمن والكافر مراتب ومنازل من جزاء وسبب ما عملوا من الخير والشرّ ، فدرجات المؤمنين في الجنة عالية ، ودرجات الكافرين في النار سافلة. والدرجات غالبة في المثوبة والعلو ، وجاءت هنا على التغليب ، ويقابلها الدركات في الانخفاض والنزول. و ﴿عَمِلُوا﴾ أي عمل المؤمنون من الطاعات ، والكافرون من المعاصي. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم ، وقرئ ولنوفيهم. ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ شيئا بنقص ثواب للمؤمنين وزيادة عقاب للكفار.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي يعذبون فيها ، أو تكشف لهم. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي يقال لهم : ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ ، فالقول مضمر وتقرأ بهمزتين مخففتين ، وبهمزة ومدة ، وبهمزة وتسهيل الثانية. ﴿طَيِّباتِكُمْ﴾ لذائذكم وشبابكم وقوتكم. ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها﴾ تمتعتم بها ، فما بقي لكم منها شيء. ﴿عَذابَ الْهُونِ﴾ الهوان والذلّ. ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تتكبرون. ﴿تَفْسُقُونَ﴾ أي تخرجون عن

طاعة الله ، وقرئ بكسر السين. وهذا دليل على أن تعذيبهم بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله تعالى.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١٧):**

﴿**وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ**﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي قال : نزلت هذه الآية : ﴿**وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ : أُفٍّ لَكُما**﴾ في عبد الرحمن بن أبي بكر قال لأبويه ، وكانا قد أسلما ، وأبى هو ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فيرد عليهما ، ويكذبهما ويقول : فأين فلان وأين فلان؟ يعني مشايخ قريش ممن قد مات ، ثم أسلم بعد ، فحسن إسلامه ، فنزلت توبته في هذه الآية : ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا**﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس مثله.

لكن أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهان قال : قال مروان بن الحكم في عبد الرحمن بن أبي بكر : إن هذا الذي أنزل الله فيه : ﴿**وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ : أُفٍّ لَكُما**﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري.

وأخرج عبد الرزاق من طريق مكي : أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقالت : إنما نزلت في فلان ، وسمّت رجلا.

وقال الحافظ ابن حجر : ونفي عائشة أصح إسنادا ، وأولى بالقبول.

وقال ابن كثير : ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما ، فقوله ضعيف ، لأن عبد الرحمن أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وكان من

خيار أهل زمانه [١]. وقال القرطبي : الصحيح أن الآية نزلت في عبد كافر عاق لوالديه [٢]

**المناسبة :**

بعد أن وصف الله تعالى الولد البار بوالديه وفوزه وتقبل الله عمله ، وصف الولد العاقّ لوالديه هنا وجزاءه المستحق له ، ثم أخبر تعالى أن لكل من الفريقين منازل ودرجات عند ربهم : إما رفعة وإما انخفاضا ، وأخبر أيضا عما يقال للكفار توبيخا وتقريعا حين عرضهم على النار : إنكم تمتعتم في الحياة ، وتكبّرتم عن اتباع الحق ، وفسقتم عن طاعة الله ، فتجازون اليوم جزاء ما عملتم ومن أجل ما عملتم.

**التفسير والبيان :**

﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما ، أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ، وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي؟﴾ هذا عام في كل من قال هذا ، إذ قال لأبويه حينما دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر : أفّ لكما ، أي تضجر وتبرم مما تقولانه ، أأنتما تخبرانني أنني سأبعث من قبري بعد الموت لموعد الله؟ إن هذا البعث بعد الموت المستبعد مستنكر ، فقد مضت الأمم السابقة الكثيرة من قبلي ، كعاد وثمود ، ماتوا ولم يبعث منهم أحد ، وذهبوا ولم يرجع منهم مخبر.

والخلاصة : المراد بالآية الجنس ، لأن خصوص السبب لا يوجب التخصيص.

﴿وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ ، وَيْلَكَ آمِنْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي ووالداه يسألان الله أن يوفقه للإيمان ، ويقولون له : ويلك آمن بالله وبالبعث ، أي

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٥٨

(٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ١٩٧

(٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ١٩٧

هلاكا لك أو هلكت ، صدّق بوعد الله في اليوم الآخر الذي وعد به خلقه أنه باعثهم من قبورهم ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، والمراد بالدعاء عليه : الحث والتحريض على الإيمان ، لا حقيقة الهلاك.

﴿فَيَقُولُ : ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فيقول هذا الولد مكذبا لما قال والداه : ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين وأباطيلهم التي سطّروها في الكتب ، فما البعث في الحقيقة إلا أمر باطل ، لا يقبله العقل ، أي في زعمه ووهمه.

ثم ذكر الله تعالى جزاء هذا القائل ، فقال :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ أي إن أولئك القائلين هذه المقالة هم الذين وجب عليهم العذاب ، واستحقوا غضب الله ، في جملة الأمم الكافرة المتقدمة ، فهم منضمون في ذلك إليهم ، سواء كانوا من الجن أو الإنس الذين كذبوا الرسل ، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، لتضييعهم الفكر والنظر الشبيه برأس المال ، باتباعهم ووساوس الشيطان.

والمراد بالقول : قول الله أنه يعذبهم في جملة أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس. وهذا يقتضي أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالإنس (١). ولعل المراد بالقول هنا قوله سبحانه لإبليس : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص ٣٨ / ٨٥]. والإشارة بقوله : ﴿أُولئِكَ﴾ للتحقير.

ثم ذكر الله تعالى مراتب كل من الفريقين : المحسن والمسيء ، فقال :

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولكل فريق من الفريقين : المؤمنين المحسنين الأبرار ، والكافرين الأشقياء المسيئين

---

(١) البحر المحيط : ٨ / ٦٢

الأشرار من الجن والإنس مراتب ومنازل عند الله يوم القيامة إما عليا وإما دنيا ، من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، ومن أجل ما عملوا منها ، وليوفيهم جزاء أعمالهم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئا بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب ، ولا يظلمهم الله مثقال ذرة فما دونها.

والدرجات : بمعنى المنازل والمراتب تشمل درجات أهل الجنة العالية ، ودركات أهل النار النازلة ، لكنه عبر بالدرجات للتغليب ، إذ الثواب درجات ، والعقاب دركات.

وبعد بيان إيصال الحق لكل أحد ، بيّن الله تعالى أولا أحوال العقاب وأهوال القيامة التي يتعرض لها الكافرون ، فقال :

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ، أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا ، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي واذكر أيها النّبي لقومك حين تعرض النار على الكفار ، أي يعذبون فيها ، أو يوم ينكشف الغطاء ، فينظرون إلى النار ، ويقربون منها ، فيقال لهم تقريعا وتوبيخا : استوفيتم وأخذتم لذائذكم في الدنيا ، وتمتعتم بها ، باتباع الشهوات واللذات في معاصي الله سبحانه ، دون مبالاة بالذنب ، وتكذيبا منهم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب ، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظوظكم شيء منها ، ففي هذا اليوم تجازون بالعذاب الذي فيه ذلّ لكم ، وخزي عليكم ، وإهانة ، بسبب تكبركم عن عبادة الله والإيمان به وتوحيده ، وخروجكم عن طاعة الله وعملكم بمعاصيه.

وهكذا جوزوا من جنس عملهم ، فكما متعوا أنفسهم ، واستكبروا عن اتباع الحق ، وتعاطوا الفسق والمعاصي ، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة ، والحسرات المتتابعة في دركات جهنم ، أعاذنا الله منها.

أما الاستمتاع بالطيبات المباحات من غير اعتداء ولا تجاوز الحدود ، فهو مباح للمسلم والكافر على السواء ، لقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ، وَلا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة ٥ / ٨٧] ، وقوله سبحانه : ﴿قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٢].

**فقه الحياة أو الأحكام :**

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن عقوق الوالدين من الكبائر ، وإن من أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وإنكار البعث والمعاد.

٢ ـ إن عاطفة الأبوين الصادقة المتأججة تدفعهما إلى الاستغاثة بالله وسؤاله ودعائه بالهداية لولدهما الكافر منكر البعث ، أو الاستغاثة بالله من كفره ، وهما يقولان له : ويلك آمن ، أي صدّق بالبعث ، إن وعد الله صدق لا خلف فيه ، والمراد بالدعاء عليه الحثّ والتحريض على الإيمان ، لا حقيقة الهلاك.

٣ ـ لم يقابل الولد تلك العاطفة بالتقدير والاحترام ، فأجاب والديه : ما هذا الذي تقولانه من أمر البعث وتدعوانني إليه إلا أكاذيب الأولين الأقدمين وأباطيلهم. ولم يكن قوله بلطف وإنما بتضجر وتبرم ، وذلك من الكبائر أيضا.

٤ ـ كان هذا الولد القائل وأمثاله من الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، أي وجب عليهم العذاب بكلمة الله : «هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي» مع أمم تقدمت ومضت من قبلهم من الجن والإنس الكافرين ، وإن تلك الأمم الكافرة ومن سار في منهجهم كانوا خاسرين لأعمالهم ، ضيعوا سعيهم ، وخسروا الجنة.

٥ . لكل واحد من فريقي المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم ، وليوفيهم الله أعمالهم ولا يظلموا حقوقهم ، فلا يزاد على مسيء ، ولا ينقص من محسن.

٦ . يقال للكافرين تقريعا وتوبيخا حين تقريبهم من النار ونظرهم إليها ، أو عند تعذيبهم بها : لقد تمتعتم بطيبات الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات ، يعني المعاصي ، فاليوم تجزون عذاب الخزي والفضيحة والهوان ، بسبب استعلائكم على أهل الأرض بغير استحقاق ، وتكبركم عن اتباع الحق والإيمان ، وخروجكم عن طاعة الله بغيا وظلما.

ويلاحظ أن الاستكبار عن قبول الحق : ذنب القلب ، والفسق : عمل الجوارح (الأعضاء).

ويحتج بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأن فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم ، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات.

قال المفسرون : والأشياء الطيبة اللذيذة غير منهي عنها ، لقوله تعالى : ﴿قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٢] ، ولكن التقشف وترك التكلف دأب الصالحين ، لئلا يشتغل بغير المهم عن المهم ، ولأن ما عدا الضروري لا حصر له ، وقد يجرّ بعضه بعضا إلى أن يقع المرء في حد البعد عن الله تعالى [١].

وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ دخل على أهل الصّفّة ، وهم يرقعون ثيابهم بالأدم[٢] ، ما يجدون لها رقاعا ، فقال : «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلّة ، ويروح في أخرى ، ويغدى عليه بجفنة ، ويراح بأخرى ، ويستر

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للحسن بن محمد النيسابوري النظّام : ٢٦ / ١٢

(٢) أدم : جمع أديم وهو الجلد.

البيت كما تستر الكعبة؟» قالوا : نحن يومئذ خير ، قال : «بل أنتم اليوم خير».

وذكر قتادة عن عمر رضي الله عنه ، قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما ، وأحسنكم لباسا ، ولكنني أستبقي طيباتي للآخرة ، لأن الله وصف قوما ، فقال : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ﴾.

وعن عمر أن رجلا دعاه إلى طعام فأكل ، ثم قدّم شيئا حلوا فامتنع ، وقال : رأيت الله نعى على قوم شهواتهم ، فقال : ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ الآية ، فقال الرجل : اقرأ يا أمير المؤمنين ما قبلها : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولست منهم ، فأكل وسرّه ما سمع.

وفي صحيح مسلم وغيره : أن عمر رضي الله عنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مشربته (١) حين هجر نساءه ، قال : فالتفت فلم أر شيئا يردّ البصر إلا أهبا (٢) جلودا معطونة ، قد سطع ريحها ، فقلت : يا رسول الله ، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر في الدّيباج والحرير؟ قال : فاستوى جالسا وقال : «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» فقلت : استغفر لي ، فقال : «اللهم اغفر له».

والخلاصة : أن الآية للنعي على الكفار الذين يعذبون بالنار ، وأن استمتاعهم بالطيبات في الدنيا ليحرموا منها في الآخرة ، عدلا من الله وفضلا ورحمة. وليس في الآية أن كل من أصاب الطيبات المباحات في الدنيا ، فإنه لا يكون له منها حظ في الآخرة ، والمؤمن يؤدي بإيمانه شكر المنعم ، فلا يوبّخ بتمتعه بالدنيا.

---

(١) المشربة : الموضع الذي يشرب منه الناس. والمشربة : الغرفة.

(٢) الأهب : جمع إهاب : وهو الجلد.

وعلى كل حال كان السلف الصالح يؤثرون التقشف في الدنيا ، ليكون ثوابهم في الآخرة أكمل ، أما التمتع بزخارف الدنيا المباحة فليس ممتنعا ، للآيات المتقدمة : ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة ٥ / ٨٧] ، ﴿قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ..﴾ الآية [الأعراف ٧ / ٣٢]. قال الرازي : نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أولى ، لأن النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقباض ، وحينئذ فربما حمله الميل إلى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغي ، وذلك مما يجرّ بعضه إلى بعض ، ويقع في البعد عن الله تعالى بسببه (١).

## قصة هود عليه‌السلام مع قومه عاد

﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ٢٥

مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾

**الإعراب :**

﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ إِذْ﴾ : بدل اشتمال.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ .. فَما أَغْنى .. وَحاقَ بِهِمْ﴾ قد : حرف يقرب الماضي من الحال ويقلل المستقبل. و ﴿فِيما﴾ أي في الذي و ﴿إِنْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ تحتمل ﴿إِنْ﴾ وجهين: إما بمعنى (ما) النافية ، أو زائدة. ﴿فَما أَغْنى﴾ : ما : إما نافية ، ويؤيده دخول (من) للتأكيد في قوله تعالى : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أو استفهامية منصوبة ب ﴿أَغْنى﴾ والتقدير : أي شيء أغنى هو؟

﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ﴾ : ﴿فِيما﴾ فاعل ﴿حاقَ﴾ وهي مصدرية ، وفي الكلام حذف مضاف تقديره : وحاق بهم عقاب استهزائهم ، لأن نفس الاستهزاء لا يحل عليهم. وإنما يحل عليهم عقابه.

﴿قُرْباناً آلِهَةً قُرْباناً﴾ : إما منصوب على المصدر ، أو مفعول لأجله ، أو مفعول ﴿اتَّخَذُوا﴾ و ﴿آلِهَةً﴾ بدل منه.

﴿وَما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ و ﴿ما﴾ : مصدرية ، أو موصولة ، والعائد محذوف ، أي فيه.

**البلاغة :**

﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً﴾ ثم قال : ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ من قبيل الإطناب بتكرار اللفظ لزيادة التقبيح عليهم.

﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ توافق الفواصل الذي يزيد في جمال الكلام.

**المفردات اللغوية :**

﴿أَخا عادٍ﴾ هو هود عليه‌السلام ، وعاد قبيلة عربية من إرم. ﴿أَنْذَرَ﴾ خوف. ﴿بِالْأَحْقافِ﴾ واد باليمن فيه منازلهم ، بين عمان ومهرة ، وهي في الأصل جمع حقف : وهو رمل مستطيل مرتفع معوج فيه انحناء. ﴿خَلَتِ النُّذُرُ﴾ مضت الرسل التي تنذر ، والنذر جمع نذير أي منذر ، والجملة معترضة أو حال. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبل هود ومن بعده. «ألا» أي بأن قال : «لا تعبدوا» أو النذر بألا تعبدوا ، فإن النهي عن الشيء إنذار بمضرته. ﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غير الله. ﴿عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائل بسبب شرككم.

﴿لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا﴾ لتصرفنا عن عبادتها. ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ من العذاب على الشرك. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في وعدك أنه يأتينا. ﴿قالَ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ﴾ قال هود : لا يعلم أحد متى يأتيكم العذاب ، ولا مدخل لي فيه فأستعجل به ، وإنما علمه عند الله ، فيأتيكم به في وقته المقدّر له. ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم ، وما على الرسول إلا البلاغ. ﴿وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ باستعجالكم العذاب ما هو ، ولا تعلمون أن الرسل بعثوا مبلّغين منذرين ، لا معذّبين مقترحين.

﴿فَلَمّا رَأَوْهُ﴾ أي العذاب. ﴿عارِضاً﴾ سحابا عرض في أفق السماء. ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ متوجها نحو أوديتهم. ﴿هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾ أي يأتينا بالمطر. ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب. ﴿رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ ريح مشتملة على عذاب مؤلم ، أي هي ريح ، أو بدل من ﴿فَلَمّا﴾.

﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلك. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من النفوس والأموال. ﴿بِأَمْرِ رَبِّها﴾ بإرادته ومشيئته ، فأهلكت رجالهم ونساءهم وصغارهم وأموالهم. ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جزيناهم نجزي الكافرين. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ﴾ أي لقد جعلنا لهم مكنة وقدرة في الذي جعلناه لكم يا أهل مكة من القوة والمال. ﴿سَمْعاً﴾ أسماعا. ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ قلوبا. ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ شيئا من الإغناء ، وقوله : ﴿مِنْ شَيْءٍ مِنْ﴾ : زائدة للتأكيد. ﴿إِذْ كانُوا إِذْ﴾ : معمولة لأغنى ، وفيها معنى التعليل. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ينكرون. ﴿بِآياتِ اللهِ﴾ حججه وبراهينه البيّنة. ﴿وَحاقَ﴾ نزل. ﴿ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى﴾ أي أهلكنا من جواركم من أهل القرى كثمود وعاد وقوم لوط. ﴿وَصَرَّفْنَا الْآياتِ﴾ بيّناها لهم. ﴿فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ﴾ هلا نصرهم بدفع العذاب عنهم؟ ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ غيره. ﴿قُرْباناً﴾ مصدر أو اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى ، من طاعته. ﴿آلِهَةً﴾ معه وهم الأصنام. ﴿ضَلُّوا﴾ غابوا. ﴿عَنْهُمْ﴾ عند نزول العذاب. ﴿وَذلِكَ﴾ أي الضلال والضياع وعدم نفع آلهتهم سببه : ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي كذبهم ، وقرئ : أفكهم أي صرفهم. ﴿يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون.

**المناسبة :**

بعد بيان أدلة التوحيد والنبوة التي أعرض عنها أهل مكة ، بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها ، ذكر الله تعالى قصة قوم عاد للعظة والتذكر والعبرة ، فقد أهلكهم الله تعالى بسبب شؤم كفرهم ، مع أنهم كانوا أكثر أموالا وقوة وجاها من مشركي مكة ، ليعتبروا بذلك ، ويتركوا الاغترار بالدنيا.

ويقبلوا على طلب الدين ، فإن ضرب الأمثال الواقعية يستدعي عمق التأمل ، وتغيير المواقف ، وفيه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب قومه.

**التفسير والبيان :**

﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ ، وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي واذكر أيها النبي لقومك أخا عاد : وهو هود عليه‌السلام الذي كان أخاهم في النسب ، لا في الدين ، بعثه الله إلى عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأحقاف في حضر موت ، جمع حقف : وهو الهضبة من الرمل العظيم ، وهو الأصح ، أو واد يدعى برهوت ، وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبل هود وبعده أنذروا نحو إنذاره بألا يعبدوا غير الله ولا يشركوا معه إلها آخر ، فإني أخشى عليكم عذاب يوم عظيم الأهوال.

ونظير الآية قوله عزوجل : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ ، إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [فصلت ٤١ / ١٣ ـ ١٤].

**فأجابه قومه قائلين :**

﴿قالُوا : أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا؟ فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي قال قومه له : هل جئتنا لتصرفنا وتصدنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه ، فأتنا بما تعدنا من العذاب العظيم إن كنت صادقا في قولك ووعدك لنا به على الشرك.

وهذا دليل واضح على أنهم استعجلوا عذاب الله وعقوبته ، استبعادا منهم وقوعه ، وإنكارا لحصوله ، كقوله سبحانه : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها﴾ [الشورى ٤٢ / ١٨]. وفيه دلالة على أن الوعد قد يستعمل في موضع الوعد.

فرد عليهم هود عليه‌السلام :

﴿قالَ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ ، وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ أي قال هود : لا علم لي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب ، وإنما العلم بوقت مجيئه عند الله تعالى ، لا عندي ، لأنه هو الذي قدّره ، لا أنا ، ولم يخبرني متى سيأتي به ، وإنما شأني أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار ، والتحذير من العذاب ، لا أن آتي به ، فليس ذلك في مقدوري ، ولكني أراكم قوما لا تعقلون ولا تفهمون حيث بقيتم مصرّين على الكفر ، ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم علي ما ليس من شأن الرسل ووظائفهم.

ثم ذكر الله تعالى مقدمات العذاب ، فقال :

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ، قالُوا : هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾ أي حينما رأوا العذاب أو السحاب مستقبلهم ومتجها نحو أوديتهم ، قالوا : هذا سحاب ممطر ، ففرحوا به واستبشروا ، وقد حبس عنهم المطر واحتاجوا إليه ، فكان مطر عذاب ، كما قال تعالى واصفا جواب هود ، أو أنه من قول الله لهم :

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بل هذا هو العذاب الذي طلبتموه بقولكم : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنه ريح نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه ، تحمل بين جوانبها العذاب المهلك المؤلم. قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياما ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد يقال له (المعتّب).

وضمير ﴿رَأَوْهُ﴾ عائد إلى غير مذكور ، بيّنه قوله ﴿عارِضاً﴾ كما قال تعالى : ﴿ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٥] ولم يذكر الأرض ، لكونها معلومة ، فكذا هنا الضمير عائد إلى السحاب ، كأنه قيل : فلما رأوا

السحاب عارضا ، وهذا أولى ، أو أن الضمير عائد إلى ما في قوله : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ أي فلما رأوا ما يوعدون به عارضا.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن عائشة ، قالت : «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته [1] ، إنما كان يتبسم ، وكان إذا رأى غيما أو ريحا ، عرف ذلك في وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ قال : يا عائشة ، وما يؤمّني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذّب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب ، فقالوا : هذا عارض ممطرنا».

ثم وصف الله تعالى تلك الريح ، فقال :

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها ، فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ ، كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي تخرب وتهلك تلك الريح كل شيء مرّت به من نفوس (عاد) وأموالها مما شأنه الخراب ، بإذن الله لها في ذلك ، كقوله سبحانه : ﴿ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات ٥١ / ٤٢] أي كالشيء البالي. ولهذا ذكر تعالى أنهم قد بادوا كلهم عن آخرهم ، ولم تبق لهم باقية ، وأصبحوا لا يرى من أموالهم وأنفسهم شيء ، لكن ترى آثار مساكنهم.

وهذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا ، فكما جازينا عادا بكفرهم بالله بذلك العذاب ، نجازي كل مجرم كافر. والمقصود منه تخويف كفار مكة.

أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن عائشة رضي‌الله‌عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت :

---

(١) لهواته : جمع لهاة وهي أقصى سقف الفم.

وإذا تخيلت السماء تغيّر لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سرّي عنه ، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها ، فسألته ، فقال رسول الله ﷺ : «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا : هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾» والاختيال : أن يخال في السماء المطر.

وأخرج مسلم أيضا عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» والصبا : ريح الشمال ، والدبور : ريح الجنوب.

وبعد تخويف كفار مكة وتهديدهم ووعيدهم ، وصف الله تعالى قوة عاد قائلا :

﴿وَلَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ولقد مكنا قوم عاد والأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد وقوة الأبدان وطول العمر بمقدار لم نجعل لكم مثله ولا قريبا منه ، فقد كانوا أشد منكم قوة يا أهل مكة ، وأكثر أموالا وأولادا ، وأعز جانبا وأمنع سلطانا وتسلطا ، كما قال تعالى : ﴿كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَأَشَدَّ قُوَّةً ، وَآثاراً فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر ٤٠ / ٨٢].

وإنهم أعرضوا عن قبول الحجة والهداية ، بالرغم مما أعطاهم الله من الحواس التي بها تدرك الأدلة ، فما نفعهم ما أعطاهم الله من مفاتيح المعرفة والتذكر ، ولم يتوصلوا بها إلى التوحيد وصحة الوعد والوعيد ، ولم يستعملوا قدرات السمع والبصر والفؤاد في الخير وما خلقت له من شكر المنعم.

ثم ذكر الله تعالى علة عدم انتفاعهم بحواسهم قائلا :

﴿إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لأجل أنهم كانوا يجحدون بآيات الله ، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ، حيث قالوا : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾.

فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا.

ثم أكد تعالى ضرورة العظة بأمثال عاد أيضا من الأمم السالفة المكذبة بالرسل ، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى ، وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وأهلكنا أيضا يا أهل مكة ما حولكم من البلاد ، من القرى المكذبة بالرسل ، مثل قرى ثمود وقرى قوم لوط ومدين مما جاور بلاد الحجاز ، وأهل سبأ باليمن ، وكانت في طريقهم يمرون بها في رحلاتهم صيفا وشتاء ، وبينا الآيات وأوضحناها ، وأظهرنا الحجج ونوّعناها ، لكي يرجعوا عن كفرهم ، فلم يرجعوا.

ثم أبان الله تعالى مدى الكرب والشدة بفقد الأعوان والنصراء لدفع عذاب الله ، فقال:

﴿فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي فهلا نصرتهم آلهتهم التي تقرّبوا بها إلى الله لتشفع لهم ، ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم ، بل غابوا وذهبوا عنهم ، ولم يحضروا لنصرتهم وعند الحاجة إليهم ، وذلك الضلال والضياع سببه اتخاذهم إياها آلهة ، وزعمهم الكاذب أنها تقربهم إلى الله ، وتشفع ، وافتراؤهم وكذبهم بقولهم : إنها آلهة ، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها ، واعتمادهم عليها.

وفي هذا توبيخ لأهل مكة ، وتنبيه إلى أن أصنامهم لا تنفعهم شيئا ، فلو نفعت لأغنت من كان قبلهم من الأمم الضالة.

### فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ . إن قصص القرآن للعبرة والعظة ، ومن أكثر القصص تأثيرا قصة قوم عاد بالأحقاف بحضر موت عند اليمن ، لذا أمر الله نبيه أن يذكر لمشركي مكة قصة عاد ليعتبروا بها ، وليتذكر في نفسه قصة هود عليه‌السلام ، فيقتدي به ، ويهون عليه تكذيب قومه له.

٢ . لقد توالت الإنذارات على عاد من نبيهم هود عليه‌السلام ، ومن الرسل الذين كانوا قبله ، وجاؤوا بعده ، وتتركز في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي نبذ الشرك وعبادة الأصنام ، فإن الشرك سبب لعذاب عظيم الأهوال.

٣ . قاوم قوم عاد دعوة هود هذه ، وقالوا له : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ فأتنا بالعذاب الذي توعدنا به إن كنت صادقا في أنك نبي.

٤ . النبي مجرد مبلّغ رسالة ربه ، فلا يعلم الغيب ، لذا قال هود لهم : إنما العلم بوقت مجيء العذاب عند الله ، لا عندي ، وما شأني إلا أن أبلغكم ما أرسلت به عن ربكم إليكم ، وأراكم قوما تجهلون في سؤالكم استعجال العذاب.

٥ . فوجئ قوم عاد بأمارات العذاب حينما رأوا سحابا معترضا في السماء والأفق ، فظنوا أنه سحاب ممطر إياهم ، مغيث لهم ، ولكنه كان مشتملا على أداة العذاب ، ألا وهي الريح المدمرة ، فإن الريح التي عذّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه ، وخرج هود عليه‌السلام من ديارهم ، فكانت الريح تحمل الفسطاط ، فترفعها في الجو حتى يرى كأنها جرادة ، ثم تضرب بها الصخور.

٦ . إن أعاصير الريح بالسرعة الهائلة دمرت كل شيء مرت عليه من رجال (عاد) وأموالها ، بإذن ربها ، فلم يبق إلا آثار مساكنهم ، ومثل هذه العقوبة يعاقب بها المشركون والكفار في كل زمان ومكان. وما أكثر ما يسمى بالحوادث الطبيعية في هذا العصر من البراكين والزلازل والأعاصير المدمرة.

٧ ـ إن وسائل التعذيب الربانية يضعف ويصغر أمامها كل الناس سواء أكانوا عتاة طغاة أشداء أم دون ذلك ، ولقد أنذر الله بهذا العقاب أهل مكة وخوّفهم ، وأبان لهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة ، وأكثر أموالا وأولادا ، وآثارا حضارية وعمرانية في الأرض.

٨ ـ لم يعذب الله قوما بعذاب الاستئصال إلا بعد أن طغوا وبغوا واستكبروا في الأرض بغير الحق ، وعطلوا طاقات المعرفة والهدى ، ووسائل التفكير والنظر والتأمل ، وإذ عطلوها لم تنفعهم شيئا من عذاب الله ، لأنهم كانوا يجحدون بآيات الله ، ويكفرون بها ، فأحاط بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب الإلهي الذي أنذروا به.

٩ ـ ضرب الله مثلين واضحين لكفار مكة في هذه الآيات ، المثل الأول ـ قوم عاد ، والمثل الثاني ـ ما حولهم من أهل القرى ، كديار ثمود وقرى لوط وبلاد مدين ، مما كان يجاور بلاد الحجاز على طريق الشام ، وكانت أخبارهم متواترة معروفة عندهم ، وكذا أهل سبأ باليمن ، وكانوا يمرون على ديارهم في رحلاتهم بالصيف والشتاء.

١٠ ـ إن عدل الله مطلق ، فإنه تعالى لم يهلك أولئك الأقوام إلا بعد أن أقام لهم الحجج والدلالات ، وأنواع البينات والعظات ليرجعوا عن كفرهم ، فلم يفعلوا ، وأصروا على الكفر والعناد.

١١ ـ لقد بات مؤكدا لمن كان عنده أدنى نظر وتأمل أن الآلهة المزعومة من الأصنام وغيرها لم تنفع عابديها بمنع العذاب عنهم في الدنيا ، فكذلك لن تنفعهم بالشفاعة لهم في الآخرة ، حيث قالوا : ﴿هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس ١٠ / ١٨] فإن تلك الآلهة ضلت وغابت عنهم وقت الشدة والمحنة ، وهي إفكهم وكذبهم في قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى ، وافتراؤهم بأنها آلهة ، أو أن

عدم نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم وقت الحاجة محصول إفكهم وافترائهم ، أو عاقبة شركهم وثمرة كذبهم على الله عَزَّجَلَّ .

## إيمان الجن بالقرآن

﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٢)﴾

**الإعراب :**

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ الجملة حالية.

**المفردات اللغوية :**

﴿إِذْ﴾ واذكر حين ﴿صَرَفْنا﴾ أملنا ووجهنا نحوك ﴿نَفَراً﴾ جماعة ما دون العشرة ، جمع أنفار ﴿مِنَ الْجِنِ﴾ جن نصيبين أو جن نينوى ، وكانوا سبعة أو تسعة ، وكان ﷺ ـ فيما رواه الشيخان ـ ببطن نخلة ـ على نحو ليلة من مكة عند منصرفه من الطائف ـ يصلي بأصحابه الفجر ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ ورد الفعل جمعا مراعاة للمعنى ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن أو الرسول ﴿قالُوا : أَنْصِتُوا﴾ قال بعضهم لبعض : أنصتوا أي اسكتوا واستمعوا بإصغاء ﴿قُضِيَ﴾ فرغ وانتهى من قراءته ، وقرئ : ﴿قُضِيَ﴾ بالبناء للمجهول ، والضمير للرسول ﷺ أي فرغ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ رجعوا ﴿مُنْذِرِينَ﴾ مخوفين قومهم العذاب إن لم يؤمنوا ، وكانوا يهودا ثم أسلموا.

﴿سَمِعْنا كِتاباً﴾ هو القرآن ﴿أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى﴾ قيل : إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهودا ،

أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه السلام ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما تقدمه كالتوراة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ من العقائد وهو الإسلام ﴿وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريقة سليمة من الشرائع.

﴿أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ﴾ وهو محمد ﷺ الذي يدعو إلى الإيمان بالله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يغفر بعض ذنوبكم وهو ما يكون خالص حق الله تعالى ، فإن حقوق الناس ومظالم العباد لا تغفر بالإيمان ، وإنما تسقط برضا أصحابها ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يحمكم من عذاب مؤلم معدّ للكفار. قال البيضاوي : واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارة على أن لا ثواب لهم ، والأظهر أنهم في توابع التكليف كبني آدم.

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يعجز الله بالهرب منه ولا يفوته ﴿وَلَيْسَ لَهُ﴾ لمن لا يجيب ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ دون الله ﴿أَوْلِياءُ﴾ أنصار يدفعون عنه العذاب ﴿أُولئِكَ﴾ الذين لم يجيبوا ﴿فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ خطأ بيّن ظاهر.

**سبب نزول الآية (٢٩):**

﴿وَإِذْ صَرَفْنا﴾ : أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : إن الجن هبطوا على النبي ﷺ ، وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه ، قالوا : أنصتوا ، وكانوا تسعة ، أحدهم زوبعة ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا : أَنْصِتُوا﴾ الآية ، إلى قوله : ﴿فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

**المناسبة :**

بعد أن بيّن الله تعالى أن في الإنس من آمن ، وفيهم من كفر ، أردفه هنا ببيان أن الجن أيضا فيهم من آمن وفيهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرّض للثواب ، وكافرهم معرّض للعقاب ، وأن الرسول ﷺ مرسل إلى الإنس والجن معا.

والملائكة والجن عالمان غيبيان غير مرئيين ، يجب أن يؤمن المسلم بهما ، كما يجب أن يؤمن بأن النبي ﷺ تلقى الوحي من طريق الملائكة ، وأنه بلّغ رسالته إلى الجن فبشّرهم وأنذرهم ، أما كيفية التلقي والتبليغ فغير معروفة لدينا إلا بطريق الأخبار الدينية السمعية النقلية ، ولا مجال للعقل في ذلك.

**التفسير والبيان :**

﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي واذكر أيها النبي لقومك حين وجهنا إليك يا محمدا نفرا من الجن ، وبعثناهم إليك ، لهداية قومهم ، فلما حضروا القرآن عند تلاوته ، أمروا بعضهم بعضا بالإنصات والإصغاء لكي يسمعوا سماع تدبر وتأمل وإمعان ، وكان ذلك ببطن نخلة على بعد ليلة من مكة على طريق الطائف ، وكانوا من أشراف جنّ نصيبين أو من نينوى بالموصل ، بعد عودة النبي ﷺ من الطائف حينما خرج يدعوهم إلى الإسلام.

فلما فرغ من تلاوة القرآن في صلاة الفجر ، رجعوا قاصدين إلى قومهم ، مخوفين إياهم من مخالفة القرآن ، ومحذرين لهم من عذاب الله.

والآية دالة على أنه ﷺ كان مرسلا إلى الجن والإنس ودلت روايات السنة على أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة في الليلة الأولى ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا ، قوما بعد قوم ، وفوجا بعد فوج.

من تلك الروايات الدالة على أنه ﷺ لم يشعر بحضورهم : ما ذكر سابقا عن ابن مسعود في سبب النزول ، ومنها ما رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان الجن يستمعون الوحي ، فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشرا ، فيكون ما سمعوا حقا ، وما زادوا باطلا ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك ، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث ، فبثّ جنوده ، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض.

وأما ما رواه البخاري ومسلم عن مسروق قال : «سألت ابن مسعود ، من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن قال : آذنته بهم الشجرة» فهو مؤيد لما سبق ، فإنه ﷺ لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أي أعلمته باجتماعهم.

وهناك روايات كثيرة دالة على لقاء النبي ﷺ بالجن وتبليغهم رسالته وتلاوة القرآن عليهم [1] ، منها ما أخرجه أحمد ومسلم في صحيحة عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل؟! استطير؟! ما فعل؟ قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح ـ أو قال : في السحر ـ إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله ، فذكروا له الذي كانوا فيه ، فقال : «إنه أتاني داعي الجن ، فأتيتهم ، فقرأت عليهم القرآن» فانطلق ، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم.

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «بت الليلة أقرأ على الجن واقفا بالحجون».

وسورة الجن قاطعة الدلالة على استماع الجن القرآن ومطلعها : ﴿قُلْ : أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ، فَقالُوا : إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ، فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً﴾ [١ ـ ٢].

وقال الله تعالى هنا :

﴿قالُوا : يا قَوْمَنا ، إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى ، مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قالت الجن : يا قومنا الجن : إنا سمعنا كتابا أنزله الله من بعد توراة موسى ، مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة على

---

(١) راجع تفسير ابن كثير : ٤ / ١٦٤ ـ ١٦٩

الرسل ، يرشد إلى الدين الحق ، وإلى طريق الله القويم في العقائد والعبادات والأعمال والأخبار.

ولم يذكروا عيسى عليه السلام إما لأنه كما قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ، وإما لأن عيسى أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ ورقائق أدبية إنسانية ، وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة في التشريع لليهود والنصارى على السواء هو التوراة ، فلهذا قالوا : أنزل من بعد موسى.

وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة بدء نزول الوحي عليه ونزول جبريل عليه السلام أول مرة ، فقال : «هذا الناموس [1] الذي نزّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعا [2] إذ يخرجك قومك».

والخلاصة : أنهم خصوا التوراة ، لأنها مصدر الشرائع والأحكام في الماضي ، ولأنها متفق عليها عند أهل الكتاب.

﴿يا قَوْمَنا ، أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يا قومنا الجن ، أجيبوا رسول الله خاتم النبيين أو القرآن إلى توحيد الله وعبادته وطاعته ، يغفر لكم بعض ذنوبكم التي هي من حقوق الله ، أما حقوق العباد فلا تسقط إلا بتنازل أصحابها عنها ، وكذلك يحميكم ويقيكم وينقذكم من عذاب موجع مؤلم هو عذاب النار ، ويدخل المؤمن منكم الجنة ، لقوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٤٦ ـ ٤٧].

وفي الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى أرسل محمدا ﷺ إلى الثقلين : الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم سورة الرحمن التي فيها خطاب

---

(١) ناموس الرجل : أمين السر ، أو صاحب السر الذي يطلعه على باطن أمره ويخصّه بما يستره عن غيره ، وأهل الكتاب يسمون جبريل عليه السلام النّاموس.

(٢) أي شابا جلدا قويا.

الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم.

ولا فرق في الثواب والعقاب والأوامر والنواهي واستحقاق الجنة والنار بين الإنس والجن ، لأن التكليف واحد ، ولأن عموم آيات خطاب الفريقين يشمل كلا منهما ، فلا يصح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما يجأرون فقط من عذاب النار يوم القيامة. ومما يدل على ذلك أيضا عموم قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف ١٨ / ١٠٧].

ثم حذروا قومهم من المخالفة ، فقالوا :

﴿وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ ، فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ ، أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي ومن لا يجب رسول الله ﷺ إلى التوحيد وطاعة الله ، فلا يفوت الله ولا يسبقه ، ولا يفلت منه ، ولا يقدر على الهرب منه ، لأنه في أرض الله ، وليس له من غير الله أنصار ينصرونه ويمنعونه من عذاب الله ، أولئك الذين لا يجيبون داعي الله في خطأ ظاهر واضح.

وهذا تهديد ووعيد ، وبذلك جمعوا على وفق نهج القرآن بين الترغيب والترهيب ، ولهذا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن المقصود من الآيات توبيخ مشركي قريش على عدم إيمانهم ، فإن الجن سمعوا القرآن ، فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله ، فما بالكم أيها المشركون وأمثالكم تعرضون وتصرون على الكفر؟!

٢ ـ وهناك قصد آخر وهو تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من صدود قومه عن

دعوته ، حتى إنه ذهب إلى الطائف لدعوة ثقيف وأهلها إلى الإسلام ، فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم ، فرموه بالحجارة وأدموه ، فاتجه داعيا إلى الله في خشوع وتضرع واستنصار قائلا ـ كما روى محمد بن إسحاق في سيرته ـ : «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين ، ورب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى عدو بعيد يتجهّمني (١) ، أم إلى صديق قريب ملّكته أمري ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك ، أو يحل بي سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك».

٣ ـ وفي عودته ﷺ من الطائف حينما كان يصلي الفجر أو قيام الليل في موضع يسمى «نخلة» من ضواحي مكة ، جاءه وفد من الجن سبعة أو تسعة من جن نصيبين أو من نينوى بالموصل ، فاستمعوا إلى تلاوته القرآن ، وهو لا يشعر بهم ، فكانت هذه الآيات تطييبا لخاطره ، وشد عزيمته وتقوية روحه.

٤ ـ كان أدب الجن عظيما حين سماعهم القرآن ، فينبغي التأسي بهم ، فإنهم لما حضروا القرآن واستماعه أو حضروا النبي ﷺ ، قال بعضهم لبعض : اسكتوا لاستماع القرآن ، فلما فرغ النبي ﷺ من تلاوة القرآن ، انصرفوا قاصدين من وراءهم من قومهم من الجنّ ، منذرين لهم مخالفة القرآن ، ومحذّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا.

٥ ـ دلت هذه القصة على أن النبي ﷺ مرسل مبعوث إلى الإنس والجن معا ، وعلى أنهم آمنوا به ، وأنه بعد علمه بهم ، أرسلهم في الليلة الثانية إلى قومهم ،

---

(١) أي يلقاني بالغلظة والشدة والوجه الكريه.

بدليل قولهم : ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ ولو لا ذلك لما أنذروا قومهم ، فتكون ليلة الجن ليلتين.

٦ ـ لقد وصفوا القرآن بوصفين :

الأول ـ كونه مصدقا لما بين يديه ، أي مصدقا لكتب الأنبياء المشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوة والمعاد والأمر بمحاسن الأخلاق.

الثاني ـ قوله : ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى دين الحق ، ودين الله القويم.

وهذا يدل على أنه ﷺ كان مبعوثا إلى الجنّ والإنس ، قال مقاتل : ولم يبعث الله نبيا إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ .

ويؤكد عموم دعوته ما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلّت لي الغنائم ، ولم تحلّ لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجدا ، فأيّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة». قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة : «وبعثت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون».

٧ ـ أمر الجن قومهم بإجابة النبي ﷺ في كل ما أمر به ، ومنه الأمر بالإيمان ، فإن آمنتم بالداعي ، وهو محمد ﷺ يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وينقذكم من عذاب مؤلم موجع. قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا ، فرجعوا إلى النبي ﷺ ، فوافقوه بالبطحاء ، فقرأ عليهم القرآن ، وأمرهم ونهاهم.

ويلاحظ أنهم حين عمموا الأمر بإجابة الداعي خصصوه بقولهم : ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ لأن الإيمان أشرف أقسام التكاليف. وخصصوا المغفرة ببعض الذنوب ، لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كالمظالم.

٨ ـ دلت هذه الآي على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقال الحسن البصري : ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، وكذا قال أبو حنيفة ، ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم. وقد أجبت عن هذا في تفسير الآيات ، لذا ذهب مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك إلى أن الجن كما يعاقبون في الإساءة ، يجازون في الإحسان مثل الإنس. قال القشيري : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشيء ، والعلم عند الله. وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٢] يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة ، لأنه قال في أول الآية : ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٠] إلى أن قال : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[1]. وقال النيسابوري : «والصحيح أنهم في حكم بني آدم ، يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون» [2].

٩ ـ إن من لا يجيب رسول الله ﷺ ليس بمعجز لله في الأرض فلا يفوته ولا يسبقه ولا يهرب منه ، وليس له من دون الله أنصار يمنعونه من عذاب الله ، وهو من الضالين المخطئين في ضلال واضح.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٢١٧ وما بعدها.

(٢) غرائب القرآن : ٢٦ / ١٧

## إثبات البعث والأمر بالصبر

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (٣٥)﴾

**الإعراب :**

﴿بِقادِرٍ﴾ : دخلت الباء لدخول حرف النفي في أول الكلام ، فهو في قوة أليس الله بقادر ، كما دخلت في قوله تعالى : ﴿ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ١٠٥] وقادر : خبر ﴿أَنَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. يَوْمَ﴾ : منصوب بتقدير فعل ، أي واذكر يوم يعرض.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ ، بَلاغٌ﴾ فيه محذوف تقديره : فإنهم لم يلبثوا يوم يرون ما يوعدون إلا ساعة من نهار ، فيوم : منصوب ب ﴿يَلْبَثُوا﴾. و ﴿بَلاغٌ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا بلاغ ، فحذف المبتدأ للعلم به ، ويجوز فيه النصب لوجهين :

أحدهما ـ على أنه مصدر.

والثاني ـ على الوصف لساعة.

**المفردات اللغوية :**

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا ، أي يعلم منكرو البعث ﴿يَعْيَ﴾ يعجز عنه ويضعف ﴿بَلى﴾ هو قادر على إحياء الموتى ، والفرق بين بلى ونعم أن ﴿بَلى﴾ جواب للنفي بإبطاله وتقرير نقيضه ، أي فهي لإثبات النقيض ، ونعم لتقرير ما قبلها. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ بأن يعذبوا في النار ﴿أَلَيْسَ هذا﴾ أي يقال لهم : أليس هذا التعذيب أو العذاب؟.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى قومك ﴿أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أصحاب الثبات والحزم والجد والصبر ، فإنك من جملتهم ، و ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ للبيان ، فكلهم ذوو عزم ، وهم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، فإنهم أصحاب الشرائع الكبرى الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاقها ، ومعاداة الطاعنين فيها ﴿وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لقومك نزول العذاب بهم ، فإنه نازل بهم في وقته لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ، لطوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ﴾ لم يقيموا في الدنيا في ظنهم إلا مقدار ساعة ، لشدة ما يرون من أهوال ﴿بَلاغٌ﴾ أي هذا القرآن أو السورة أو الذي وعظتهم به تبليغ من الله إليكم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ أي لا يهلك عند رؤية العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ﴾ أي الكافرون الخارجون عن الاتعاظ أو الطاعة.

**المناسبة :**

بعد إثبات وجود الإله القادر الحكيم المختار في أول السورة ، وإبطال قول عبدة الأصنام ، وإثبات النبوة ، ومناقشة المشركين في عقائدهم الباطلة ورد شبهاتهم ، وتوبيخهم على عدم إيمانهم مع أن الجن آمنوا بالقرآن ، بعد هذا أثبت الله تعالى مسألة المعاد ، لأن المشركين كانوا ينكرونها ، فتكون أغراض السورة المكية قد تحققت ، وهي إثبات التوحيد والنبوة والبعث ، ثم ذكر بعض أحوال الكفار في الآخرة.

ثم سلّى الله نبيه ﷺ بأمره بالصبر في دعوته ، كصبر الأنبياء أولي العزم قبله ، لتبليغ ما أمروا بأدائه ، وعدم استعجال العذاب لهم ، وذلك تعليم لنا ودرس وعظة بليغة.

**التفسير والبيان :**

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى؟ بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أو لم يتفكر ويعلم هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة ، المستبعدون لإعادة الحياة في الأجسام مرة أخرى ، أن الذي خلق الكون من السموات والأرض في ابتداء الأمر ، ولم يعجز عن ذلك ولم يضعف عن خلقهن ، بل قال لها : كوني فكانت ، بقادر على أن يحيي الموتى من قبورهم مرة أخرى ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر ٤٠ / ٥٧].

وبما أن الجواب معروف بداهة ، أجاب الله تعالى عن ذلك بقوله : بلى أي بل هو قادر على ذلك كله ، إنه سبحانه قادر على أي شيء أراد خلقه ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبعد إثبات البعث ذكر تعالى بعض أحوال الكفار يوم القيامة ، فقال :

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ، أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ؟ قالُوا : بَلى وَرَبِّنا﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم يعذب الكافرون بالله في النار ، ويقال لهم توبيخا وتأنيبا : أليس هذا العذاب الذي تعذبونه حقا وعدلا وواقعا لا شك فيه؟ فيقولون معترفين حيث لا ينفعهم الاعتراف : بلى والله ربنا إنه لحق ، أي إنه لا يسعهم إلا الاعتراف.

﴿قالَ : فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي قال الله على سبيل الإهانة والتوبيخ : ذوقوا عذاب النار بسبب كفركم به في الدنيا وإنكاركم له.

وبعد تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجواب عن شبهات المشركين ، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب قومه قائلا :

﴿فاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك كصبر أولي الثبات والجد والعزيمة من الرسل وأنت من جملتهم ، وهم أصحاب الشرائع : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، ولا تستعجل يا محمد العذاب لهم ، أي للكفار ، فإنه واقع بهم لا محالة. ومفعول الاستعجال محذوف ، وهو العذاب.

روى ابن أبي حاتم والديلمي عن مسروق قال : قالت لي عائشة رضي الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائما ، ثم طواه . أي ظل في يومه لا يأكل ولا يشرب . ثم ظل صائما ثم طواه ، ثم ظل صائما ، ثم قال : «يا عائشة ، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ، ولا لآل محمد ، يا عائشة ، إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال : ﴿فاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا ، جهدي ، ولا قوة إلا بالله».

ونظير ﴿لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ قوله تعالى : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ، وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل ٧٣ / ١١] وقوله سبحانه : ﴿فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [الطارق ٨٦ / ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ ، بَلاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ﴾؟ أي كأن الكافرين حين يشاهدون ما أوعدهم الله به من العذاب ، لم يمكثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام ، لما يشاهدونه من الأهوال العظام ، كما قال تعالى : ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قالُوا : لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١١٢ ـ ١١٣] وقال عزّ وجلّ : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٤٦].

وهذا القرآن الذي وعظهم به الله تعالى والنبي : تبليغ كاف يقطع حجة

الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٥٢] وقال سبحانه ﴿إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٦]. والبلاغ : بمعنى التبليغ.

ولا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة ، والواقعون في معاصي الله ، فلا يهلك على الله إلا هالك مشرك ، وهذا من عدل الله تعالى ألا يعذب إلا من يستحق العذاب. وهذه الآية أقوى آية في الرجاء.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ دلت الآية الأولى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ على كونه تعالى قادرا على البعث ، لأنه خلق السموات والأرض ، ولا شك أن خلقها أعظم من إعادة الشخص حيا بعد أن صار ميتا ، والقادر على الأقوى الأكمل ، لا بد من أن يكون قادرا على الأقل والأضعف.

ثم إن الله تعالى قادر على كل شيء ، وتعلق الروح بالجسد أمر ممكن ، إذ لو لم يكن ممكنا لما وقع أولا ، والله تعالى قادر على كل الممكنات ، فوجب كونه قادرا على تلك الإعادة.

٢ ـ ذكر الله تعالى الكفار حين تعذيبهم بالنار ، حيث يقال لهم توبيخا وتهكما على استهزائهم بوعد الله ووعيده : أليس هذا العذاب حقا؟ فذوقوا العذاب بكفركم.

٣ ـ أمر الله نبيه والمؤمنين بالصبر في تبليغ الدعوة ومشاق الحياة ، كصبر أصحاب الشرائع الكبرى : وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام. وسبب هذا الأمر : أن الكفار كانوا يؤذون النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ،

ويضايقونه ويوغرون صدره الشريف ، فتكون كلمة من للتبعيض.

وفي قول آخر : إن كل الرسل أولو عزم ، ولم يبعث الله رسولا إلا إذا كان ذا عزم وحزم ، ورأي وكمال وعقل ، فتكون كلمة من للتبيين لا للتبعيض.

وفي قول : كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متّى ، لأن النبي ﷺ نهي أن يكون مثله ، لخفة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مغاضبا لقومه.

وهل الأمر بالصبر منسوخ؟ قال بعض المفسرين : الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل : محكمة ، قال القرطبي : والأظهر أنها منسوخة ، لأن السورة مكية. وذكر مقاتل : أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ يوم أحد ، فأمره الله عزّ وجلّ أن يصبر على ما أصابه ، كما صبر أولو العزم من الرسل ، تسهيلا عليه وتثبيتا له.

والراجح لدي أنها غير منسوخة ، لأن فضيلة الصبر ذات قيمة أدبية رفيعة ، ومبدأ أخلاقي ضروري وسام في كل وقت ، ومثل هذا لا يصلح للنسخ. والصبر لا يمنع الجهاد ورد العدوان وقتال الأعداء من المشركين وغيرهم ، فهو أمر مطلوب في السلم والحرب.

٤ ـ أمر الله نبيه والمؤمنين أيضا من بعده بعدم الاستعجال في الدعاء على الكفار ، فلكل شيء أو ان بعلم الله وحكمته ، والعذاب منهم قريب ، وأنه نازل بهم لا محالة ، وإن تأخر. والسنة في الدعاء طلب الوقاية من السوء والأذى ، أخرج الطبراني عن أنس أن النبي ﷺ كان يدعو : «اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل برّ ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لا تدع لي ذنبا إلا غفرته ، ولا همّا إلا فرّجته ، ولا دينا إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين».

٥ . إن أجل الدنيا قصير ، والآخرة خالدة دائمة ، ويحسب الكفار حين يرون أهوال عذاب الآخرة أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مقدار ساعة من ساعات النهار.

٦ . في القرآن والسنة البلاغ والكفاية في إنذار الناس من العذاب ، وتحذيرهم من العقاب بسبب الكفر والعصيان.

٧ . من عدل الله ورحمته ألا يعذب إلا من فسق بأن خرج من طاعة الله تعالى ، ولم يعمل بأمره ونهيه.

قال ابن عباس : إذا عسر على المرأة ولدها ، تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة ، ثم تغسل وتسقى منها ، وهي : بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا العظيم : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٤٦]. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ ، بَلاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ﴾ صدق الله العظيم.

## بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة محمّد عليه الصلاة والسلام

مدنيّة ، وهي ثمان وثلاثون آية.

**تسميتها :**

سميت سورة محمد ، لبيان تنزيل القرآن فيها على محمد ﷺ : ﴿وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ﴾ [٢]. ولم يذكر محمد باسمه في القرآن إلا أربع مرات ، في سورة آل عمران : ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [١٤٤] وفي سورة الأحزاب : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ [٤٠] وهنا في هذه السورة ، وفي سورة الفتح : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ [٢٩]. وأما في غير هذه المواضع الأربعة فيذكر بصفة الرسول أو النبي.

وسميت أيضا سورة القتال ، لبيان أحكام قتال الكفار فيها في أثناء المعارك وبعد انتهائها : ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ [٤].

**مناسبتها لما قبلها :**

هذه السورة يرتبط أولها ارتباطا قويا بآخر سورة الأحقاف : ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ﴾ حتى إنه لو أسقطت البسملة بينهما ، لكان الكلام متصلا مباشرة بما قبله اتصالا لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة.

**ما اشتملت عليه السورة :**

يمكن أن يوصف موضوع هذه السورة بأنه الجهاد في سبيل الله ، وبما أن

السورة مدنية ، فهي معنية بأحكام التشريع ، لا سيما أحكام القتال والأسرى والغنائم ووصف الكافرين والمؤمنين وجزاء الفريقين في الدنيا والآخرة ، وأحوال المنافقين والمرتدين ووعدهم ووعيدهم.

بدأت السورة مباشرة وبما يلفت النظر بالحديث عن الكفار أعداء الله والرسول ، وإظهار غضب الله عليهم ، وأردفت ذلك بوصف المؤمنين وبيان رضا الله عليهم ، لإظهار الفرق الواضح بين الفريقين : ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ﴾.

ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين قتالا عنيفا لا هوادة فيه ، لأنهم كفروا واتبعوا الباطل ، وبشّرت المؤمنين بالنصر إن نصروا دين الله وصبروا في مواجهة الأعداء ، وأبانت خذلان الكافرين لكراهيتهم ما أنزل الله ، وفي هذا تعريف بجزاء المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

ثم عنيت بضرب الأمثال لكفار مكة وأمثالهم بالطغاة السابقين وكيفية تدميرهم بسبب طغيانهم : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ..﴾.

ووصفت بعدئذ ألوان نعيم الجنة المعدة للمتقين للترغيب والإقبال على الإيمان والطاعة.

وانتقل البيان إلى وصف المنافقين والمرتدين ووعدهم وتهديدهم : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى آخر السورة. وذكرت في ثنايا ذلك أن الكافرين الصادّين عن سبيل الله والمعادين للرسول لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ، ولن يغفر الله لهم ، وذكّرت بوجوب طاعة الله تعالى والرسول ﷺ.

وختمت السورة بما يناسب موضوعها الأصلي وهو الجهاد في سبيل الله ، فدعت المؤمنين إلى تحقيق العزة والكرامة ، وتجنب الضعف والوهن والمسالة

المهينة ، وحذّرت من صلح الأعداء حال القوة ، ووصفت حال الدنيا باللهو واللعب ، ودعت إلى الإنفاق في سبيل الله ، فإن الدنيا فانية زائلة : ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ .. إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...﴾.

**فضل السورة :**

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ كان يقرؤها في صلاة المغرب.

## بيان الفرق بين الكفار والمؤمنين

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾

**الإعراب :**

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا .. أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ مبتدأ وخبر ، وكذلك : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا .. كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ البال : الحال والشأن : لا يثنى ولا يجمع.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ﴾ مبتدأ وخبر أيضا.

**البلاغة :**

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..﴾ بينهما مقابلة. وبين ﴿كَفَرُوا﴾ و ﴿آمَنُوا﴾ طباق.

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ بعد قوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ذكر خاص بعد عام تعظيما

للمنزل عليه ، وإشعارا بأن الإيمان لا يتم دونه ، وأنه الأصل فيه ، ولذلك أكده بقوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

﴿أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أَصْلَحَ بالَهُمْ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ﴾ سجع رصين غير متكلف.

**المفردات اللغوية :**

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة وأهل الكتاب وأمثالهم ، أي امتنعوا عن الدخول في الإسلام ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ منعوا الناس من الدخول في الإسلام ، وهذا عام في جميع من كفر وصد. ﴿أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها بالكفر ، فلا ثواب لها في الآخرة ، ويجزون بها في الدنيا فضلا من الله تعالى ، وذلك كصلة الأرحام ، وفك الأسارى ، وحفظ الجوار.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ من المهاجرين والأنصار وأهل الكتاب وغيرهم ﴿وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ﴾ أي آمنوا بالقرآن المنزل على النبي ﷺ ، وتخصيصه بعد العموم تعظيم له واعتناء بشأنه. وقرئ : نزّل بالبناء للمعلوم ، وأنزل بالبناء للمعلوم والمجهول ، ونزل بالتخفيف ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي والقرآن هو الحق الثابت الذي لا شك فيه من الله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ سترها بالإيمان وعملهم الصالح ، والسيئات : الذنوب ﴿وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾ أي حالهم وشأنهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد. والبال : لا يثنى ولا يجمع.

﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من الإضلال والتكفير والإصلاح ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ﴾ أي بسبب اتباع الكفار الباطل من الأمر والشيطان. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي بسبب اتباع المؤمنين الحق وهو القرآن ومحمد ﴿كَذلِكَ﴾ مثل ذلك البيان وضرب المثل ﴿يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ﴾ أي يبين أحوال الفريقين ، فالكافر يحبط عمله ، والمؤمن يغفر زلته ، والأول مثل لخيبته ، والثاني مثل لفوزه.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١):**

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ قال : هم أهل مكة نزلت فيهم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ قال : هم الأنصار.

وقال ابن عباس في رواية أخرى : نزلت في المطعمين ببدر ، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبيّ وأميّة ابنا خلف ، ومنبّه ونبيه ابنا الحجاج ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن عامر بن نوفل.

**التفسير والبيان :**

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ أي الذين جحدوا توحيد الله وآياته ، وعبدوا غيره ، وصدوا غيرهم عن دين الإسلام ، بنهيهم عن الدخول فيه ، وهم كفار قريش ، أبطل الله ثواب أعمالهم وأحبطها وجعلها ضائعة ، ولم يجعل لها ثوابا ولا جزاء في الآخرة.

فكل ما يسمونه مكارم الأخلاق ، كصلة الرحم ، وفك الأسارى ، وقرى الأضياف ، وعمارة المسجد الحرام بالسّقاية والخدمة للحجاج ، وإجارة المستجير ، لا يقبل مع الكفر والصدّ.

ونظير الآية : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٣].

وبعد بيان حال الكفار وجزائهم ، بيّن حال المؤمنين وجزاءهم ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ، وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾ أي والذين صدقوا بالله ، وأطاعوه ، واتبعوا أمره ونهيه ، وانقادوا لشرع الله ظاهرا وباطنا ، وعملوا بما يرضيه من صالح الأعمال ، وصدقوا بالقرآن الذي أنزل على نبيه محمد ﷺ ، فآمنوا أنه حق وآمنوا بأنه كلام الله ، والقرآن هو الحق الثابت الذي لا شك فيه أنه من الله ، محا عنهم ذنوبهم التي عملوها في الماضي ، وغفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح ، وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا والآخرة ، فعصمهم عن المعاصي ، وأرشدهم إلى أعمال الخير في

الدنيا ، وورثهم نعيم الجنة في الآخرة. وهذا يشمل المهاجرين والأنصار وغيرهم من المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

وقوله : ﴿وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. وقوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة.

ثم بيّن الله تعالى سبب إضلال الكافرين وإصلاح وإسعاد المؤمنين ، فقال : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي إن ذلك الجزاء المتقدم للفريقين بسبب اتباع الكافرين الباطل ، من الشرك بالله ، والعمل بمعاصيه واختياره على الحق ، وبسبب اتباع المؤمنين الحق الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات.

﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ﴾ أي مثل ذلك البيان الرائع ، يبين الله للناس أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة ، ويظهر مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه في معادهم.

### فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن جزاء أهل مكة الذين كفروا بتوحيد الله ، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله ، وهو الإسلام ، بنهيهم عن الدخول فيه ، هو إبطال ثمرة أعمالهم في كفرهم ، بما كانوا يسمونه مكارم الأخلاق ، فلم يبق لهم عمل ، ولم يوجد ، وأدى ذلك بالتالي إلى أنه لم يمتنع الإهلاك عنهم ، ولا صرفهم عن التوفيق لسبل السعادة.

والمراد بالإضلال : إبطال العمل وأثره بحيث لا يجده ولا يجد من يثيبه عليها.

٢ ـ إن المغفرة هي جزاء الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة باتباع الفرائض ، واجتناب النواهي ، والتصديق بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وبما جاء به ، دون أن يخالفوه في شيء. والقرآن : هو الحق الثابت الراسخ من ربهم ، الذي نسخ به ما قبله ، والمغفرة أو التكفير : الستر والتجاوز عما مضى من ذنوبهم وسيئاتهم قبل الإيمان ، وإصلاح البال : إصلاح شأنهم وحالهم وأمورهم ، والمراد إصلاح ما تعلق بدنياهم. وتكفير السيئات من الكريم : سترها بما هو خير منها ، فهو في معنى قوله تعالى : ﴿فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٧٠].

وهذا متفق مع منهج القرآن ، كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح ، رتب عليهما المغفرة والأجر ، كما قال تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج ٢٢ / ٥٠] وقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٧].

٣ ـ دل قوله تعالى : ﴿وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ﴾ على أن الإيمان بالقرآن المنزل من عند الله شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. وهذا في مقابلة قوله تعالى في حق الكافر : ﴿وَصَدُّوا﴾ أي صدوا عن اتباع محمد ﷺ ، وهو حث على اتباعه.

٤ ـ إن القرآن الكريم هو الحق النازل من الرب عزوجل ، وفي الآية دليل على أن دين محمد ﷺ لا يرد عليه النسخ أبدا.

٥ ـ الفرق بين جزاءي الفريقين : أن إضلال الكفار وإبطال أعمالهم بسبب اتباعهم الباطل وهو اتباع إله غير الله ، واتباع الشيطان والشرك ، وأن تكفير

سيئات المؤمنين وإسعادهم وإصلاح شأنهم وحالهم وأمورهم بسبب اتباع الحق وهو التوحيد والإيمان.

أي إن ذلك الإضلال والهدى المتقدم بسبب اتباع الباطل من الكافرين ، واتباع الحق من المؤمنين ، فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق.

٦ ـ إن مثل هذا البيان الذي بيّن ، يبين الله للناس أمر الحسنات وأمر السيئات وأحوال الفريقين. فقوله ﴿كَذلِكَ﴾ أي مثل هذا البيان وضرب المثل ، على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. وضرب المثل في الآية : هو أن الله جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين.

## أحكام القتال والأسرى والقتلى في سبيل الله ونصرة الإسلام

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (٨) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩)﴾

**الإعراب :**

﴿فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ منصوب على أنه مصدر ، تقديره : فاضربوا ضرب الرقاب ، فحذف الفعل.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً مَنًّا﴾ ... و ﴿فِداءً﴾ : منصوبان على المصدر.

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ، ذلِكَ ذلِكَ﴾ : في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف ، تقديره الأمر ذلك.

﴿فَتَعْساً لَهُمْ﴾ منصوب على المصدر ، تقديره : تعسهم تعسا أو تعسوا تعسا ، ويقال أيضا : أتعسهم إتعاسا. والجملة خبر المبتدأ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ عطف على تعسوا تعسا.

**البلاغة :**

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ بينهما طباق.

﴿تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾ استعارة تبعية ، شبه ترك القتال بوضع آلته ، واشتق من الوضع ﴿تَضَعَ﴾ بمعنى تنتهي وتترك.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ مجاز مرسل ، أطلق الجزء وهو الأقدام وأراد الكل ، أي يثبتكم ، وعبر بها لأنها أداة الثبات ، وهو مثل ﴿فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى ٤٢ / ٣٠].

﴿أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ ..﴾ سجع غير متكلف.

**المفردات اللغوية :**

﴿لَقِيتُمُ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ أي فاضربوا الرقاب ضربا ، أي اقتلوهم ، وعبر بضرب الرقاب مجازا عن القتل ، لأن الغالب في القتل أن يكون بضرب الرقبة ، ولتصوير القتل بأشنع صورة للإرهاب ﴿أَثْخَنْتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾ أي فأسروهم ، والوثاق كالرباط : ما يوثق به الأسير من الحبل أو القيد وغيره ، وشدة : إحكام ربطه حتى لا يفلت ويهرب.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ أي فإما تمنون عليهم منا ، أو يفدون فداء ، والمن : إطلاق سراح الأسير من غير مقابل أو فدية ، والفداء أو المفاداة : إطلاق الأسير في مقابلة مال أو غيره كمبادلة الأسرى ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾ مجاز عن انتهاء الحرب ، أي حتى تنقضي الحرب أو تنتهي ، ولم يبق إلا مسلم أو مسالم ، والأوزار : الأثقال من السلاح والكراع (الخيول) وغيرها من أدوات القتال الثقيلة والمعدات الحربية ﴿ذلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ، أو افعلوا بهم ذلك مما ذكر ﴿وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لانتقم منهم بغير قتال كالخسف والغرق والرجفة ﴿وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ولكن أمركم بالقتال ليختبر المؤمنين بالكافرين ، بأن يجاهدوهم ، فيستوجبوا الثواب

العظيم ، والكافرين بالمؤمنين ، بأن يعجل عذابهم ليرتدع بعضهم عن الكفر.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي استشهدوا ، وقرئ : قاتلوا ، أي جاهدوا ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ فلن يحبطها ويضيعها ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ سيهدي من بقي حيا إلى الثواب أو سيثبت هدايتهم ، أو سيهديهم في الدنيا والآخرة إلى ما ينفعهم ﴿وَيُصْلِحُ بالَهُمْ﴾ حالهم وشأنهم في الدنيا والآخرة. ويلاحظ أن الهداية وإصلاح البال لمن لم يقتل ، وأدرجوا في قوله : ﴿قُتِلُوا﴾ بطريق التغليب ﴿عَرَّفَها لَهُمْ﴾ بيّنها لهم وأعلمها بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق.

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ﴾ تنصروا دين الله ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ يثبتكم في أثناء القتال والمجاهدة مع الكفار ﴿فَتَعْساً لَهُمْ﴾ هلاكا لهم وخيبة من الله ﴿ذلِكَ﴾ أي التعس وإضلال الأعمال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ أي بسبب كراهيتهم ما أنزل الله من القرآن المشتمل على التكاليف ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾ أبطلها.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (٤):**

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد ، ورسول الله ﷺ في الشّعب ، وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذ : اعل هبل (أكبر أصنامهم) ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، فقال المشركون : إن لنا العزّى ولا عزّى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم.

**المناسبة :**

بعد قسمة الناس إلى فريقين : فريق الكافرين الذين يتبعون الباطل وهم حزب الشيطان ، وفريق المؤمنين الذين يتبعون الحق وهم حزب الرحمن ، ذكر الله تعالى حكم القتال عند التحزب ، وأرشد المؤمنين إلى قواعد الحرب مع المشركين أثناء المعركة وبعد انتهائها.

**التفسير والبيان :**

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ أي فإذا واجهتم الكفار في القتال ، فاحصدوهم حصدا بالسيوف ، واضربوا الرقاب ضربا. وهذا أمر بجهاد الكفار ، وهم من لم يكن لهم عهد مع المسلمين ، من المشركين وأهل الكتاب ، عند وجود مسوغات القتال وتوافر العدوان ، وهو قتال لا شفقة فيه ولا هوادة ، وإنما يجب إعمال السلاح فيهم ، حسبما تقتضي طبيعة الحرب ، كما قال تعالى : ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٣].

هذا هو الحكم الأول في أثناء المعركة ، أما بعد انتهاء المعركة فقال الله تعالى :

﴿حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ ، فَشُدُّوا الْوَثاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾ أي حتى إذا أكثرتم فيهم القتل ، وغلبتموهم ، وأصبحوا بلا قوة كالرجل المثخن بالجراح ، فضعفوا واستكانوا وصاروا أسرى في أيديكم ، وانتهت الحرب بإثخانهم وقهرهم ، فأسروهم وأحكموا القيد عليهم لئلا يفلتوا ويهربوا.

وبعد الأسر أنتم مخيرون بين أمرين : إما المنّ عليهم بإطلاق سراحهم بلا مقابل أو بغير عوض ، وإما الفداء بمبادلتهم بالأسرى المسلمين أو بدفع الفداء وهو المال الذي يفدي به الأسير نفسه من الأسر.

وذلك حتى لا يكون حرب مع الكفار ولا قتال ، بأن يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة ، أي إن غاية هذه الأوامر إنهاء الحرب والقتال. وهذا في الحقيقة حث على السلم المستتب ، ليعيش الناس في سلام وأمان ، ويتم تبادل الأفكار ، وتنتشر دعوة الإسلام بالحكمة والإقناع ، والحجة والبرهان ، والموعظة الحسنة ، فليس انتشار الإسلام بالسيف كما يتصور بعض

الأعداء ، وإنما كان انتشاره بالقناعة الذاتية ، وبالاستحسان الحر الطليق دون إجبار ولا إكراه : ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٦].

وصريح الآية يوجب القتل فقط قبل الإثخان ، والتخيير بعد الأسر بين المن والفداء. وجاءت السنة مبينة جواز القتل بعد الأسر للمصلحة ، كما جاء فيها إباحة الاسترقاق جريا على العادة السائدة في الماضي ومعاملة بالمثل. والظاهر أن الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله تعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ، ليأخذوا منهم الفداء.

ثم بيّن الله تعالى الحكمة في شرع القتال ، فقال :

﴿ذلِكَ ، وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ذلك هو الحكم في قتال الكفار ، والله قادر على الانتصار من أعدائه بالانتقام منهم ، وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب كالخسف والرجفة والغرق ، دون قتال منكم أيها المؤمنون ، ولكن الله أمركم بحربهم ليختبر بعضكم ببعض ، فيعلم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على ابتلائه ، ويجزل ثوابهم ، ويعذب الكفار بأيديهم ، أو يحملهم الخوف على الإيمان بالله تعالى قبل نزول العذاب بهم ، ومشاهدة قتل أمثالهم ، فالحكمة من القتال : هي امتحان الناس واختبار صبرهم على المكاره : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ ، وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٤٢].

ثم ذكر الله تعالى ثواب الشهداء المجاهدين في سبيله قائلا :

١ ـ ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ أي إن المقتولين في سبيل الله لا يضيع الله سبحانه أجرهم ، ولن يجعل أعمالهم ضائعة كما تضيع أعمال الكفار.

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن المقدام بن معد يكرب الكندي ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلّى حلّة الإيمان ، ويزوّج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصّع بالدر والياقوت ، الياقوتة خير من الدنيا وما فيها ، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفّع في سبعين إنسانا من أقاربه».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ﵄ ، وعن أبي قتادة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال : «يغفر للشهيد كل شيء إلّا الدّين».

٢ ـ ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ﴾ أي سيوفقهم الله تعالى للعمل بما يحبه ويرضاه ، ويرشدهم إلى طريق الجنة ، ويصلح حالهم وأمرهم وشأنهم في الآخرة ، أي تحفظ أعمالهم وتخلد لهم ، ويدخلهم روضات الجنات يحبرون فيها ، وقد عرّفهم بها ، وأعلمهم وبيّنها لهم من غير استدلال ، حتى إن أهلها يهتدون إلى بيوتهم ومساكنهم من غير مرشد ولا دليل.

جاء في الحديث الصحيح عند البخاري : «والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

وقال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون ، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحدا.

والتكرار بين ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ﴾ لأن الأول سبب النعيم ، والثاني نفس النعيم.

والناس في الجنة درجات بحسب أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٢].

ثم بشرهم الله بالنصر بشرط نصرة دينه وحثهم على تحقيق الشرط ، فقال :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ أي يا أهل الإيمان بالله والقرآن والإسلام إن تنصروا دين الله ينصركم على أعدائكم ، ويثبّت أقدامكم عند القتال في مواطن الحرب ، حتى تتحقق الغلبة والعزة والتفوق لكم ، وتكون كلمة الله هي العليا.

وتأكيدا لذلك وتقوية لقلوبهم ذكر الله تعالى جزاء الكافرين بعد بيان جزاء المجاهدين ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ أي وللكافرين بالله وبرسالة محمد ﷺ الخيبة والخزي والشقاء ، وقد أبطل الله أعمالهم وأحبطها ، فلا ثواب لهم ولا خير يرتجى منها في الآخرة. وقوله : ﴿فَتَعْساً لَهُمْ﴾ مقابل تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ.

ثم ذكر الله تعالى سبب الخيبة وإبطال الأعمال ، وسبب بقائهم على الكفر والضلال قائلا :

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾ أي ذلك التعس. وإضلال الأعمال بسبب كراهيتهم ما أنزل الله في قرآنه على نبيّه المصطفى ﷺ من التكاليف ، فهم لا يريدونه ولا يحبونه ، فأبطل الله ثواب أعمالهم بذلك السبب. والمراد بالأعمال : أعمال الخير حال الكفر ، لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١ ـ إباحة القتل الشديد في أثناء القتال ، لأن ذلك من طبيعة الحرب ، تحقيقا للنصر والغلبة ، ودحرا للعدو وإنزال الهزيمة الساحقة بجيشه. وقد

خصص بعض المفسرين جواز ضرب الرقاب والإثخان (الإكثار من القتل في الحرب) بالمشركين أهل الأوثان ، أو بمن لا عهد لهم ولا ذمة. والصحيح أن الآية عامة ، والتخصيص لا دليل عليه ، لعموم الآية : ﴿فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾.

وهذه الآية متفقة مع آية الأنفال : ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [٦٧] غير أن آية الأنفال لم يذكر فيها ما يكون بعد الإثخان ، والآية التي هنا فيها بيان تقرير مصير الأسرى وتخيير الإمام فيهم بين أحد أمرين : المنّ أو الفداء.

أما قتل الأسير لضرورة أو مصلحة حربية معينة في حالات خاصة وكذا استرقاقه ، فمأخوذ من السّنة النّبوية ، فيصير الإمام مخيّرا في الأسرى بين أربعة أمور : القتل ، والاسترقاق ، والمنّ ، والفداء.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «بعث النّبي صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة ، يقال له ثمامة بن أثال ، فربطوه في سارية من سواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما عندك يا ثمامة؟ فقال : عندي خير ، إن تقتلني تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل ما شئت ، حتى كان الغد ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ما عندك يا ثمامة؟ قال : عندي ما قلت لك ، قال : أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم دخل المسجد ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك ، فأصبح دينك أحبّ الدين إليّ ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ ، وإن خيلك أخذتني ، وأنا أريد العمرة ، فما ذا ترى؟ فبشّره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم

مكة قال له قائل : صبوت؟ قال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد ﷺ».

وهذا دليل من السّنة على جواز المنّ على الأسير.

وهناك دليل آخر من السّنة على جواز الفداء ، قال عمران بن حصين : أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلا من عقيل فأوثقوه ، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين ، من أصحاب النّبي ﷺ ، ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف.

وأما دليل جواز قتل الأسير : فقال أبو بكر الجصاص : اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير ، لا نعلم بينهم خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النّبي ﷺ في قتله الأسير ، منها قتله عقبة بن أبي معيط ، والنّضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر ، وقتل - أي النّبي - يوم أحد أبا عزّة الشاعر بعد ما أسر ، وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل ، وسبي الذّرّيّة ، ومنّ على الزبير بن باطا من بينهم.

وفتح خيبر بعضها صلحا وبعضها عنوة ، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله. وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل ، ومقيس بن صبابة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وآخرين ، وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. ومنّ على أهل مكة ولم يغنم أموالهم (١).

وأما دليل جواز استرقاق الأسرى الذي كان معاملة بالمثل مع صنيع الأمم الأخرى بعد الحرب : فهو أن الرسول ﷺ استرق بعض العرب كهوازن وبنى المصطلق وقبائل من العرب (٢) ، وسبى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٣٩١

(٢) نيل الأوطار : ٨ / ٢ وما بعدها.

بني ناجية من قريش ، وفتحت الصحابة بلاد فارس والروم ، فسبوا من استدلوا عليه.

وأما الاستدلال بالآية : ﴿حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾ على جواز قتل الأسير فغير سديد ، لأن الآية واضحة في القتل قبل الأسر ، وأما بعد الإثخان وهو الإضعاف ، فإن المحارب يقع في الأسر ، وحكم ذلك مختلف عما قبل الأسر. وقد فهم بعضهم من الآية جواز الاسترقاق ، وذلك من الأمر بشدّ الوثاق ، ويبقى بعده حالان ، هما : المنّ والفداء.

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ : ذلك يوم بدر ، والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم ، أنزل الله تعالى بعد هذا في الأسارى : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ، وَإِمَّا فِداءً﴾ فجعل الله النّبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار : إن شاؤوا قتلوهم ، وإن شاؤوا استعبدوهم ، وإن شاؤوا فادوهم [١]. أي يفعل الإمام ما يراه مصلحة حربية.

٢ ـ هل الآية : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ محكمة أو منسوخة؟ قال أبو حنيفة عملا بقول السّدّي : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة ٩ / ٦] فلا يفادى الأسير بالمال ، ولا يباع السبي لأهل الحرب ، فيرجعون حربا علينا ، ولا يفادون بأسرى المسلمين ، ولا يمنّ على الأسرى ، حتى لا يعودوا حربا على المسلمين. وقال أبو يوسف ومحمد : لا بأس أن يفادى أسرى المؤمنين بأسرى المشركين ، وهو قول الثوري والأوزاعي.

وأجاز الجمهور المنّ والفداء بأسرى المسلمين وبالمال للآية : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ فقد أجازت الآية الفداء مطلقا من غير تقييد ، وفادى النّبي ﷺ أسرى بدر بالمال ، وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين قال : أسرت ثقيف

---

(١) الجصاص : ٣ / ٣٩٠

رجلين من أصحاب النّبي ﷺ وأسر أصحاب النّبي رجلا من بني عامر بن صعصعة ، فمرّ به على النّبي ﷺ ، فقال الأسير : علام أحبس؟ فقال : بجريرة حلفائك ، فقال : إني مسلم ، فقال النّبي ﷺ : «لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح» ثم مضى رسول الله ﷺ فناداه أيضا ، فأقبل فقال : إني جائع فأطعمني ، فقال النّبي : نعم هذه حاجتك ، ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما. وروي أن النّبي ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين.

قال ابن العربي والقرطبي : والتحقيق الصحيح أن الآية محكمة في الأمر بالقتال (١). وهذا مذهب جمهور العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم. ولا يلجأ إلى القول بالنسخ إلا عند تعذر التوفيق والجمع بين الأدلة المتعارضة ، وهنا يمكن التوفيق بحمل آيات القتال على حالة الحرب ونقض العهد ومقتضيات المعركة ، فلا بدّ حينئذ من القتل لإعلاء كلمة الله تعالى وإظهار عزّة الإسلام وإعلاء هيبة المسلمين ، فإن تحقق المطلوب تخيّر المسلمون بعد انتهاء الحرب واستقرار السلم بين المنّ والفداء. أما القتل بعد الأسر فهو ضرورة ولا تكون إلا لمصلحة حربية واضحة يراها الإمام.

قال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف ، لقوله تعالى : ﴿ماكانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال ٨ / ٦٧]. فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما يراه من قتل أو غيره (٢). وهذا مذهب الجمهور : المالكية والشافعية والحنابلة.

---

(١) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٨٩ ، تفسير القرطبي : ١٦ / ٢٢٨

(٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ٢٢٨

والخلاصة : لم يأخذ الفقهاء بمقتضى الحصر المفهوم من الآية : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ وقالوا إن حال المقاتلين بعد الأسر غير منحصر في الأمرين ، بل يجوز القتل والاسترقاق والمنّ والفداء ، لأن المذكور في الآية إرشاد ، لأن الظاهر في المثخن الازمان أي الإنهاء أو الإضعاف ، والقتل مذكور في قوله : ﴿فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾.

٣ . الجهاد طريق للامتحان والاختبار ، ليعرف الصادق الصابر ، والمضحي المجاهد في سبيل الله ، وإن كان الله منزّها عن الاستعانة بأحد ، وقادرا على البطش بالأعداء وإهلاكهم بوسائل مختلفة غير القتال ، أو تسليط الملائكة أو أضعف خلقه ، فالله يمتحن المؤمنين بالكافرين ، هل يجاهدون في سبيله حقّ الجهاد أم لا؟ ويبتلي الكافرين بالمؤمنين ، هل يذعنون للحقّ أم لا؟ إلزاما للحجة. ومعنى الابتلاء من الله سبحانه كما تقدم مرارا أنه مجاز ، أي يعاملهم معاملة المختبر أو ليظهر الأمر لغيره من الملائكة أو الثقلين.

٤ . القتلى في سبيل الله أو الشهداء لا تضيع أعمالهم ، ويهديهم ربّهم إلى إدراك السعادة في الدنيا والآخرة وإلى الثواب ويثبتهم على الهداية ، ويرشدهم إلى طريق الجنة من غير بحث ولا حيرة ولا توقف بعد خروجهم من قبورهم ، ويصلح حالهم وشأنهم ومعاشهم في مستقبل الأمر في العقبى والمعاد أو في الدنيا ، ويدخلهم الجنة التي بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، وطيّبها لهم بأنواع الملاذّ.

٥ . النصر مشروط بنصرة دين الله تعالى وتطبيق شرعه والتزام أوامره واجتناب نواهيه ، لذا كرر الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة قائلا : إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار ، ويثبّت قلوبكم بالأمن والنصر والمعونة في موطن الحرب.

٦ ـ إن جزاء الكافرين عسير ومظلم وشاق ، فالخيبة والخزي والهزيمة لهم في الدنيا ، وإبطال أعمالهم في الآخرة ، بسبب كراهيتهم ما أنزل الله من الكتب والشرائع ، ولأن أعمالهم كانت في طاعة الشيطان ، فيحبط الله ما لهم من أعمال الخيرات ، كعمارة المسجد الحرام وغيره ، وقرى الضيف ، وأصناف القرب ، ولا يقبل الله العمل إلا من مؤمن.

وبه يتبيّن الفرق بين موتى الكافرين في قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ وبين موتى المسلمين وقتلاهم حيث قال تعالى في حقهم : ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾.

## النظر في آثار الأمم السابقة والتأمل في أحوال المؤمنين والكافرين

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (١٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٤)﴾

**الإعراب :**

﴿فَيَنْظُرُوا﴾ إما مجزوم بالعطف بالفاء على ﴿يَسِيرُوا﴾ أو في موضع نصب على جواب الاستفهام بالفاء بتقدير «أن».

﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ أَخْرَجَتْكَ﴾ : أي أخرجك أهلها ، ولهذا قال:

أهلكناهم ، فحذف الأصل ، وأقيم ضمير القرية مقامهم ، فصار ضمير القرية في موضع رفع ب «أخرج» كما كان ضمير الأهل كذلك ، ثم استتر ضمير القرية في «أخرج» وظهرت علامة التأنيث ، لأن القرية مؤنثة ، وهذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، مثل ﴿فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد ٤٧ / ٢١] أي أصحاب الأمر.

**البلاغة :**

﴿وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر.

﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ مجاز مرسل أي أخرجك أهلها ، والإخراج باعتبار التسبب. وكذا قوله ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ مجاز مرسل أطلق المحل وأريد الحالّ.

**المفردات اللغوية :**

﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلك أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وهو أبلغ من قوله : دمرهم الله ، فهذا يدلّ على الإهلاك مطلقا ، والأول : إهلاك ما يختص به الإنسان من نفسه وماله وولده وغيره. ﴿وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ أمثال تلك العاقبة أو العقوبة ، لأن التدمير يدلّ عليها. ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ﴾ أي نصر المؤمنين وقهر الكافرين بسبب ولاية الله. ﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولي وناصر المؤمنين ، أي ناصر المؤمنين على أعدائهم. ﴿وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾ لا ناصر لهم يدفع العذاب عنهم. ويأتي المولى بمعنى المالك كما في قوله تعالى : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ﴾ [يونس ١٠ / ٣٠] أي إلى مالك أمورهم والمتصرف في شؤونهم.

﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا. ﴿وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ﴾ ليس لهم همّ إلا بطونهم وفروجهم ، ولا يلتفتون إلى العاقبة أو الآخرة. ﴿مَثْوىً﴾ منزل ومقام ومصير. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من أهل قرية. ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ أي مكة أي من أهل مكة ، حذف المضاف وأجريت أحكامه على المضاف إليه ، وقوله ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ روعي فيه لفظ قرية. ﴿أَهْلَكْناهُمْ﴾ بأنواع العذاب ، روعي فيه معنى ﴿قَرْيَةٍ﴾ الأولى. ﴿فَلا ناصِرَ لَهُمْ﴾ من إهلاكنا.

﴿بَيِّنَةٍ﴾ حجة وبرهان ، وتشمل القرآن والحجج العقلية. ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ كالشرك والمعاصي. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾ في عبادة الأوثان ، فلا شبهة دليل لهم في ذلك ، فضلا عن وجود حجة لديهم. والجواب عن قوله : ﴿أَفَمَنْ كانَ﴾ و ﴿كَمَنْ زُيِّنَ﴾ هو لا مماثلة بين المؤمنين وكفار مكة.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١١):**

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى﴾ : قال قتادة : نزلت يوم أحد والنّبي ﷺ في الشّعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزّى ولا عزّى لكم ، فقال النّبي ﷺ : «قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم» وقد تقدّم ذلك.

**نزول الآية (١٣):**

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ : أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ تلقاء الغار ، نظر إلى مكة ، فقال : أنت أحبّ بلاد الله إليّ ، ولو لا أن أهلك أخرجوني منك ، لم أخرج منك ، فأنزل الله : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ الآية. وذكره الثعلبي أيضا عن قتادة وابن عباس ، وهو حديث صحيح.

**المناسبة :**

بعد أن أبان الله تعالى مصير الكافرين والمؤمنين ، ونعى على الأولين ، وأثنى على الآخرين تنبيها على وجوب الإيمان ، حضّ على النظر في آثار الأمم المتقدّمة ، والتأمل في أحوال المؤمنين والكافرين ، للعبرة والعظة ، وإدراك أن الله ناصر المؤمنين وخاذل الكافرين ، ومنعم على أهل الإيمان والصلاح بالجنة ، بسبب تبيّنهم الحق ، ومعاقب الكفار بالنار ، بسبب اتباعهم أهواءهم في عبادة الأوثان.

**التفسير والبيان :**

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللهُ﴾ ﴿عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها؟﴾ أي أفلم يمش هؤلاء المشركون بالله تعالى

المكذبون لرسوله ﷺ في الأرض أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا ، فيروا كيف كان مصير الأمم السالفة ، وما آل إليه أمر الكافرين من قبلهم ، فإن آثار العذاب في ديارهم بسبب تكذيبهم وكفرهم باقية ، لقد هدّم الله عليهم ديارهم ، وأهلكهم واستأصلهم ، فلم يبق من الأهل والولد والمال شيئا يذكر ، ونجّى الله تعالى المؤمنين من بين أظهرهم.

ولهؤلاء الكافرين المكذبين ولجميع الأمم الكافرة أمثال عاقبة من قبلهم من الكفرة. وقد عوقب كفار قريش في الدنيا بالهزيمة المنكرة في بدر وفتح مكة ، ولهم عقاب أشدّ في نار جهنم في الآخرة.

وسبب العقاب ما قال تعالى :

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾ أي ذلك التدمير والاستئصال للكافرين ، ونجاة المؤمنين بسبب أن الله ناصر عباده الذين آمنوا بالله تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ ، وأن الكافرين الجاحدين بالله تعالى والمكذبين رسوله ﷺ لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، فوقعت العقوبة بهم.

ولما بيّن الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا ، بيّن حالهم في الآخرة ، فقال :

١ ـ ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ أي إن الله ينعم يوم القيامة على عباده الذين آمنوا بالله وصدقوا به وعملوا صالح الأعمال ، فقاموا بالفرائض واجتنبوا المعاصي ، بدخول الجنات (البساتين) التي تجري الأنهار من تحت قصورها ، تكريما لهم.

٢ ـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ ، وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ أي والذين جحدوا بوجود الله وتوحيده وكذبوا رسوله ينتفعون بمتاع الدنيا ، ويأكلون منها كأكل الأنعام (الإبل والبقر والغنم) لا همّ لهم إلا بطونهم

وفروجهم ، ساهون عن العاقبة ، لاهون بما هم فيه ، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عند أحمد والشيخين والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر : «المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

ونار جهنم يوم جزائهم مسكن ومنزل لهم يستقرون فيه.

والخلاصة : أن الله يدخل المؤمن الجنة ، والكافر النار في عالم الآخرة.

ثم هدّد الله تعالى مشركي مكة وأوعدهم بقوله :

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ، أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ﴾ أي وكثير من أهل المدن والأمم السالفة ذات القوة والنفوذ كانوا أشدّ بأسا وقوة من أهل مكة الذين أخرجوك منها ، فأهلكناهم ، ولم يجدوا لهم ناصرا ولا معينا يدفع عنهم العذاب ، فبالأولى من هو أضعف منهم ، وهم قريش.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيّد وخاتم الأنبياء. فإذا أهلك الله عزوجل عتاة الأمم الذين كذبوا الرّسل ، فسيفعل الأمر نفسه بأمثالهم ، وإن امتنع إيقاع عذاب الاستئصال في الدنيا بسبب الرسول ﷺ نبي الرحمة ، فإن العذاب لهم كائن لا محالة في الآخرة.

ثم أبان الله تعالى سبب التفرقة في جزاء الفريقين ، فقال على طريق الإنكار :

﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾ أي أفمن كان على بصيرة ويقين من أمر دينه وبما جبل عليه من الفطرة السليمة بتوحيد الله ، كمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا ، وهو عبادة الأوثان ، والإشراك بالله ، واقتراف المعاصي ، واتبعوا أهواءهم في عبادتها ، وانهمكوا في أنواع الضلالات ، بلا شبهة توجب الشّك ، فضلا عن حجة صحيحة. والمعنى لا يستوي الفريقان.

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ، كَمَنْ هُوَ أَعْمى﴾ [الرعد ١٣ / ١٩] ، وقوله سبحانه : ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ [الحشر ٥٩ / ٢٠].

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ هدّد الحق تعالى بحال الأقدمين ، ودعا كفار قريش والناس قاطبة إلى النظر بقلوبهم في مصير الكافرين المكذبين ، كيف أهلكهم واستأصلهم ، وأعلن صراحة أن للكافرين في كل عصر وجيل أمثال هذه الفعلة ، يعني التدمير ، أو أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة ، إن لم يؤمنوا.

٢ ـ ذلك الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين ، وأما الكافرون الذين اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضرّ ، وتركوا الله تعالى ، فلا ناصر لهم ولا معين يمنع عنهم العذاب.

٣ ـ إن جزاء الفريقين مختلف ، فالله تعالى يدخل المؤمنين الذين عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأما الكافرون فإنهم يتمتعون في الدنيا كأنهم أنعام ، ليس لهم همّ إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما في المستقبل ، ونار جهنم في الآخرة منزلهم ومقامهم ومسكنهم الذي لا يفارقونه.

قال الرازي : كثيرا ما يقتصر الله على ذكر الأنهار في وصف الجنة ، لأن الأنهار يتبعها الأشجار ، والأشجار تتبعها الثمار ، والماء سبب حياة العالم ، والنار سبب الإعدام ، وللمؤمن الماء ينظر إليه وينتفع به ، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرّر بها [١].

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ٥١

والمؤمن وإن شارك الكافر في التّمتع بالدنيا ، فلم يذكر ذلك في حقه ، لأن له الجنة العظيمة ، فمتاع الدنيا لا يلتفت إليه في حقّه ، والكافر ليس له إلا الدنيا.

٤ . خصّ الله تعالى أهل مكة بتهديد ووعيد آخر ، فلما لم ينتفعوا بالمثل العام بقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكر لهم مثلا آخر ، وهو أن كثيرا من الأقوام الغابرة كانوا أشدّ قوة منهم ، فأهلكهم الله تعالى ، ولا ناصر لهم.

٥ . لا يستوي عقلا في الدنيا وواقعا وعدلا في الآخرة أهل الإيمان الذين هم على بصيرة وثبات ويقين وهم محمد ﷺ وأمته ، وعبّاد الأصنام كأبي جهل وسائر الكفار الذين حسّن لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، واتبعوا ما اشتهوا ، فالفريق الأول ناجون والثاني هالكون.

## صفة نعيم الجنة وعذاب النار

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (١٥)﴾

**الإعراب :**

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿كَمَنْ هُوَ خالِدٌ﴾ أو ﴿فِيها أَنْهارٌ﴾ وكأن قائلا قال : وما مثلها؟ فقيل : فيها أنهار ، ويجوز أن يكون ﴿فِيها أَنْهارٌ﴾ في موضع الحال ، أي مستقرة فيها أنهار ، كما يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره : هي فيها أنهار.

﴿مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَذَّةٍ﴾ : تأنيث «لذّ» وهو اللذيذ ، أو وصف بمصدر ، مثل

رجل عدل وقرئ بالحركات الثلاث ، فالجر على صفة الخمر ، والرفع على صفة الأنهار ، والنصب على العلة أي التمييز ، أي لأجل لذّة الشاربين.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ ، وخبره محذوف أي لهم مغفرة ، أو عطف على لفظ المحذوف في قوله : ﴿وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ أي لهم أصناف.

﴿كَمَنْ هُوَ خالِدٌ﴾ خبر مبتدأ مقدر ، أي أمن هو في هذا النعيم؟

**البلاغة :**

﴿فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ .. وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ .. وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ﴾ إطناب بتكرار لفظ ﴿أَنْهارٌ﴾ ، تشويقا لنعيم الجنة.

**المفردات اللغوية :**

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صفة الجنة العجيبة الشأن. وهو على حذف حرف الاستفهام ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار وهو قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ ..؟﴾ والتقدير : أمثل الجنة وأصحابها كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ أو كمثل من هو خالد؟ فهو كلام في صورة الإثبات ، ومعنى النفي والإنكار. وفائدة التعرية عن حروف الاستفهام زيادة تصوير مكابرة من يسوّي بين الفريقين. أو فيما قصصنا عليك صفة الجنة العجيبة.

﴿آسِنٍ﴾ متغيّر الطعم والرائحة لطول مكثه ، وفعله : أسن الماء بالفتح يأسن ويأسن كضرب ونصر ، أو أسن بالكسر مثل علم ، وقرئ بالمدّ والقصر كضارب وحذر ، أي ماء الجنة غير متغيّر الطعم والريح ، بخلاف ماء الدنيا ، يتغيّر بعارض. ﴿وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بخلاف لبن الدنيا ، لخروجه من الضرع. ﴿وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي تلذذ خالص ليس معه ذهاب عقل ولا سكر ولا صداع ، بخلاف خمر الدنيا ، فإنها كريهة عند الشرب ، و ﴿لَذَّةٍ﴾ : تأنيث لذّ ، أي لذيذ. ﴿وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ منقّى خال من الشمع والقذى وفضلات النحل وغيرها ، بخلاف عسل الدنيا فإنه بخروجه من بطون النحل يخالطه الشمع وغيره ، والتوصيف بهذه الأوصاف يقتضي غزارتها واستمرارها.

﴿وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ أي لهم فيها أصناف من الثمار. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم مغفرة ، أي فالله راض عنهم ، مع إحسانه إليهم بما ذكر ، بخلاف الإنسان قد يكون مع إحسانه ساخطا. ﴿وَسُقُوا ماءً حَمِيماً﴾ ماء حارا شديد الغليان ، مكان أشربة أهل الجنة. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ أي مصارينهم من فرط الحرارة ، جمع معيّ.

**المناسبة :**

بعد بيان الفرق بين المؤمنين والكافرين في الاهتداء والضلال ، بيّن الله تعالى الفرق بينهما في الجزاء والمرجع والمآل ، فذكر ما للمؤمنين من أنواع النعيم في الجنة ، وما للكافرين من الخلود في النار وشرب الماء شديد الحرارة الذي يقطّع الأمعاء. والكلام متصل أيضا بما قال عَزَّجَلَّ قبل : ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ فهناك بيان الجزاء ، وهنا وصف تلك الجنات المعدة للمتقين.

**التفسير والبيان :**

ذكر الله تعالى في هذه الآية نوعين من الجزاء لكل من الفريقين : جزاء مادي وجزاء معنوي ، أما نوعا جزاء المؤمنين فهما المشروب والمطعوم ، والمغفرة والرضوان ، وأما نوعا جزاء الكافرين فهما المشروب الحار ، والخلود في النار. ولما قدّم في الذكر في الآية السابقة المتبصر صاحب البيّنة على من اتّبع هواه ، قدّم في هذه الآية حال الأول في المآل على حال الآخر.

ومعنى الآية : إن نعت الجنة أو وصفها العجيب الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين الذين اتّقوا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه هو ما تسمعون. ثم ابتدأ بمشروب أهل الجنة:

ـ فيها أنهار جارية من ماء غير متغير الطعم والريح واللون لطول المكث ، بل إنه ماء عذب فرات متدفق نقي غير مصحوب برواسب أو طحالب ، من شربه لا يظمأ أبدا. وقد ابتدأ بالماء ، لأنه أعم نفعا للناس من بقية المشروبات. روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال : «أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك».

. وفيها أنهار من حليب لم يحمض كما تتغير ألبان الدنيا ، وهو في غاية البياض والحلاوة والدسومة ، ورد في حديث مرفوع : «لم يخرج من ضروع الماشية»وثنّى باللبن ، لأنه ضروري للناس كلهم ، وهو غذاء كامل ومطعوم شهي.

. وفيها أنهار من خمر لذيذة الطعم ، طيبة الشرب ، ليست كريهة الطعم والرائحة أو مرّة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة : ﴿لا فِيها غَوْلٌ ، وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾ [الصّافات ٣٧ / ٤٧] ، ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة ٥٦ / ١٩] ، أي ليس فيها ضرر ولا مادة مسكرة تزيل العقل ، ولا يصيب شاربها صداع ، ولا يذهب عقله ، وإنما هي لذيذة للشاربين : ﴿بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصّافات ٣٧ / ٤٦]. ورد في حديث مرفوع : «لم يعصرها الرجال بأقدامهم». وذكرت في المرتبة الثالثة ، لأنها ليست ضرورية ، وإنما فيها متعة ذوقية ، فهي لذيذة الطعم ، طيبة الشرب ، لا يتكرهها الشاربون ، وتناولها للذة بعد حصول الري والمطعوم.

. وفيها أنهار من عسل في غاية الصفاء ، وحسن اللون والطعم والريح ، لم يخالطه شيء من الشمع والقذى والعكر والكدر ، ثبت في حديث مرفوع : «لم يخرج من بطون النحل». وذكر في المرتبة الرابعة ، لأنه ليس ضروريا وإنما جمع بين مختلف الطعوم والإحساسات الذوقية المرغوبة ، ولا شكّ أن الحلو أطيب الطعوم ، والعسل أرقاها ، وفيه فوائد كثيرة للجسد : ﴿فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل ١٦ / ٦٩] ، ففيه الشفاء في الدنيا بعد المشروب والمطعوم ، وفيه الخير في الآخرة.

وإنما ذكر الله تعالى هذه الأجناس الأربعة من الأنهار ، لأنها جمعت بين الضرورة (الماء) والحاجة (اللبن) والمتعة (الخمر غير المسكرة) والعلاج النافع (العسل).

أخرج الإمام أحمد والترمذي والبيهقي عن معاوية بن حيدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «في الجنّة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقّق الأنهار منها بعد».

ثم ذكر الله تعالى المأكول الممتع وهو الثمار والفواكه اليانعة ، فللمتقين في الجنّة مختلف أنواع الثمار وأصناف الفاكهة ذات الألوان البديعة ، والروائح الذكية ، والطعوم الشهية ، كقوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان ٤٤ / ٥٥] ، وقوله سبحانه : ﴿فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٥٢]. ولما كان الأكل في الجنة للذة لا للحاجة ذكر الثمار ولم يذكر اللحم والخبز.

وبعد بيان الجزاء المادي من المشروب والمأكول ذكر تعالى الجزاء المعنوي وهو ظفر أهل الجنة مع ذلك كله بمغفرة الله ورضوانه وتجاوزه عن سيئاتهم وذنوبهم كرما وحلما وفضلا ورحمة ، والمغفرة تكون قبل دخول الجنة ، فقوله : ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ معطوف على قوله : ﴿لَهُمْ﴾ كأنه قال تعالى : لهم الثمرات فيها ، ولهم المغفرة قبل دخولها.

ثم قارن الله تعالى ما وعد به المتقين من النعيم بما أوعد به الكافرين من الجحيم ، فأبان : أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة وبيّنا ما هم فيه من نعيم وخلود ، كمن هو خالد في النار؟ لا شكّ أنه لا يستوي من هو في الدرجات كمن هو في الدركات ، وليس أهل الجنة التي فيها الثمار والأنهار كأهل النار التي فيها الحميم في العذاب الأليم ، كما قال تعالى : ﴿وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ١٢].

فالخلود صفة مشتركة بين أهل الجنة وأهل النار ، ولكن شتّان ما بين النوعين ، الأولون خالدون في النعيم المقيم ، والآخرون خالدون في العذاب الأليم.

وأما شراب أهل النار : فهو أن يسقوا من ماء حار شديد الغليان لا يستطاع ، ولكنهم يضطرون إلى شربه ، فيقطّع الأمعاء والأحشاء ، ويذيب ما في البطون لفرط حرارته ، فهل شرابهم كشراب أهل الجنة المار الذكر والموصوف بما سبق؟

**فقه الحياة أو الأحكام :**

قارن الله تعالى بين نوعين من جزاء المؤمنين المتقين ، والكافرين الظالمين ، وهي مقارنة تستوجب التأمل ، وتبيّن مدى الفرق الشاسع بين المرغب فيه والمرهب منه.

فمشروب المتقين من أنهار أربعة : الماء واللبن والخمر اللذيذة غير المسكرة والعسل ، ومأكولهم مختلف أصناف الثمار ، وأما شراب أهل النار فهو الماء الشديد الحرارة أو الغليان الذي يقطّع الأمعاء ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، وسقطت فروة رؤوسهم ، فإذا شربوه قطّع أمعاءهم وأخرجها من أدبارهم. وليس هو ماء حميم فحسب ، لأن مجرد الحرارة لا يقطع ، بل هو ماء حميم مخصوص يقطع.

ولأهل الجنة مع ذلك كله المغفرة من ربّهم لذنوبهم ، ورضوان الله عليهم ، ولأهل النار السخط والغضب الإلهي ، والهزء والسخرية ، والتوبيخ والتقريع.

والكل في خلود دائم ، أهل الجنة خالدون ماكثون فيها على الدوام يرفلون بالنعيم الدائم ، وأهل النار خالدون مقيمون فيها أبدا ، يتلظون بحر السعير الملتهب المستمر.

قال ابن كيسان : مثل هذه الجنة فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزّقّوم. ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم ، أي أمثل هؤلاء كهؤلاء؟! وقال الفراء : أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار؟! جعلنا الله من أهل الجنان ، وأعاذنا من حرّ النيران.

# أوصاف المنافقين والمؤمنين

## - ١ -

### حال المنافقين والمهتدين عند استماع آيات العقيدة

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (١٩)﴾

**الإعراب :**

﴿آنِفاً﴾ ظرف بمعنى وقتا مؤتنفا ، أو حال من ضمير : ﴿قالَ﴾.

﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ﴾ : مبتدأ مؤخر ، و ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾ : خبره ، والمعنى : فأنّى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة. وتاء ﴿جاءَتْهُمْ﴾ للساعة. وذهب أبو الحسن الأخفش إلى أن ذكراهم يرتفع بالظرف وهو ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ : بدل اشتمال من ﴿السَّاعَةَ﴾ ، أي ليس الأمر إلا أن تأتيهم الساعة فجأة.

**البلاغة :**

﴿أَهْواءَهُمْ تَقْواهُمْ ذِكْراهُمْ﴾ سجع رصين غير متكلف ، له جرس وإيقاع قوي على السامع.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من الكفار فئة المنافقين. ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ في خطبة الجمعة وغيرها ، وهم المنافقون ، كانوا يحضرون مجلس الرسول ويسمعون كلامه ، فإذا خرجوا ﴿قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي لعلماء الصحابة كابن مسعود وابن عباس ، استهزاء وسخرية. ﴿ما ذا قالَ آنِفاً﴾ أي ما الذي قال في هذه الساعة؟ استهزاء واستعلاما ، فقوله : آنفا ، أي الساعة التي قبل الوقت الذي أنت فيه ، وقرئ بالمدّ والقصر ، مأخوذ من أنف الشيء : وهو ما تقدم منه ، فهو اسم فاعل لائتنف. أو هو مأخوذ من استأنف الشيء : إذا ابتدأه ، أي ما ذا قال في أول وقت يقرب منا. ﴿طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها بالكفر. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾ في النّفاق.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ وهم المؤمنون. ﴿زادَهُمْ هُدىً﴾ زادهم الله بالتوفيق والإلهام. ﴿وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ بيّن لهم ما يتّقون به ربّهم ، وألهمهم ما يتقون به النّار. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي ما ينتظرون وهم أهل مكة غير مجيء القيامة؟ ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي ليس الأمر إلا أن تأتيهم فجأة. ﴿أَشْراطُها﴾ علاماتها ، منها بعثة النّبي ﷺ ، وانشقاق القمر ، وظهور الدخان. ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾ فكيف لهم. ﴿إِذا جاءَتْهُمْ﴾ الساعة. ﴿ذِكْراهُمْ﴾ تذكرهم ، أي لا ينفعهم حينئذ تذكرهم.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين ، فدم واثبت يا محمد على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية ، وتكميل النفس بإصلاح أحوالها ، وبما ينفع في القيامة ، واطلب المغفرة لأجل ذنبك ، وهذا الأمر مع عصمته ﷺ عن الذنوب للتعليم واستنان أمته به ، وقد فعل ذلك ، فقال فيما رواه الطبراني عن أبي هريرة : «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة» أو أن أقل الذنب : ترك الأولى.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ أي واستغفر أيضا لأهل الإيمان بالدعاء لهم وتحريضهم على موجبات المغفرة. وفي إعادة الجار وهو اللام ، وحذف المضاف وهو «ذنوب» إشعار بفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم. ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ تصرفكم وتقلبكم لأشغالكم في الدنيا. ﴿وَمَثْواكُمْ﴾ إما سكونكم ومأواكم إلى مضاجعكم في الليل ، وإما مأواكم في الجنة أو النار ، أي هو عالم بجميع أحوالكم في الدنيا والآخرة ، لا يخفى عليه شيء منها ، فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم :

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١٦):**

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ﴾ : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النّبي ﷺ ، فيستمع المؤمنون منهم ما يقول

ويعونه ، ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : ما ذا قال آنفا؟ فنزلت : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية.

وروى مقاتل : أن النّبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ما ذا قال محمد آنفا؟ قال ابن عباس : وقد سئلت فيمن سئل.

**المناسبة :**

بعد بيان حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة ، ذكر الله تعالى حال المنافقين ، وأنهم من الكفار ، وأنهم جهلة لا يفهمون كلام النّبي ﷺ عند الاستماع إليه ، وإنما يستمعون ولا ينتفعون ، لتهاونهم واستهزائهم ، على عكس حال المؤمن المهتدي ، فإنه يستمع ويفهم ، ويعمل بما يعلم. ثم هدد تعالى أولئك المنافقين وأمرهم بأن يتّعظوا ويعتبروا ويتذكروا قبل مجيء الساعة. ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالثبات على ما هو عليه من صحة الاعتقاد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات.

**التفسير والبيان :**

﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ، قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : ما ذا قالَ آنِفاً؟**﴾ أي ومن هؤلاء الكفار الخالدين في النار : منافقون يستمعون كلام النّبي ﷺ وتلاوته في خطبه ومجالسه ، فلا يفهمون منه شيئا لعدم وعيهم وإدراكهم وإيمانهم ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لعلماء الصحابة الواعين لما سمعوا ، وسألوهم على طريقة الاستهزاء والاستخفاف والسخرية : ما ذا قال النّبي في الساعة القريبة من هذه؟ والمعنى : أنّا لم نلتفت إلى قوله ، ولم نكترث بما يتكلم به ، ولم نفهم ما يقول ، ولم ندر ما نفع ذلك.

فوصفهم الله تعالى وصفا يدلّ على حقيقتهم ، فقال :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾ أي أولئك المنافقون هم الذين ختم الله على قلوبهم بسبب نفاقهم ، فلم يؤمنوا ولم يهتدوا إلى الحق ، ولا اتجهت قلوبهم إلى شيء من الخير ، واتبعوا شهواتهم وأهواء نفوسهم في الكفر والعناد ، أي إنهم تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم ، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة ، واتبعوا ضدّه ، فليس لديهم فهم صحيح ولا قصد حسن

ثم قابلهم الله تعالى بالمؤمنين المهتدين ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً ، وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ أي والذين قصدوا الهداية إلى طريق الخير ، وفقهم الله تعالى ، وشرح صدورهم ، فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به ، وثبّتهم على الهدى ، وزادهم هدى بالتوفيق ، وألهمهم رشدهم ، وأعانهم على التقوى ، بالتوفيق للعمل الذي يرضاه.

ثم هددهم الله تعالى بمجيء القيامة ، فقال :

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ﴾ أي فهل ينتظر المنافقون والكافرون إلا مجيء القيامة التي تأتيهم فجأة وهم غافلون عنها ، وقد حدثت أماراتها وعلاماتها ، ومنها بعثة النّبي ﷺ ، ورد في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالوسطى والسبابة».

ومن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة (القيامة) حيث لا ينفعهم ذلك ، كقوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ، وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى؟﴾ [الفجر ٨٩ / ٣٣] أي لا ينفعهم تذكرهم وإيمانهم حينئذ.

والمراد بالآية أن أدلة الإيمان بالله تعالى وصدق رسوله ﷺ وبالبعث كثيرة

ساطعة بالبرهان في القرآن والفطرة والنفس والعقل وعالم الشهادة والحس ، فإذا لم يؤمنوا في وقت قريب قبل مجيء الموت والقيامة ، فلا ينفعهم إيمان حينئذ بعد انتهاء العمر وزوال الدنيا التي هي دار العمل والتكليف.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالثبات على ما هو عليه والاستغفار ، فقال :

﴿فَاعْلَمْ﴾[1]﴿أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ﴾ أي إذا علمت أيها النّبي حال الفريقين : المؤمن والكافر ، من السعادة والشقاوة ومجيء علامات القيامة وأشراطها فاثبت واستمر على ما أنت عليه من التوحيد ومراقبة النفس ، واعلم أنه لا إله غير الله ولا ربّ سواه ، وأن البعث حقّ آت لا ريب فيه ، واستغفر مما قد يصدر منك مما هو خلاف الأولى ، واستغفر أيضا لذنوب أتباعك وأمتك ، بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم. والله يعلم أعمالكم وتصرفكم في أشغالكم نهارا ، ومستقركم ليلا ، وقيل : أو مأواكم في الدار الآخرة ، قال ابن كثير : والأول أولى وأظهر ، وفي هذا ترغيب بالعمل وترهيب من المخالفة.

وذلك كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ﴾ [الأنعام ٦ / ٦٠] ، وقوله سبحانه : ﴿وَما مِنْ دابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها ، كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [هود ١١ / ٦].

وكان من دعاء النّبي ﷺ عملا بالأمر الإلهي بالاستغفار والدعاء : ما ورد في صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجدّي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي».

---

(١) الفاء في هذه الآية وما تقدمها لعطف جملة على جملة بينهما اتصال.

وفي الحديث الصحيح أيضا أنه كان يقول في آخر الصلاة : اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

وثبت في الصحيح كذلك أنه قال : «يا أيها الناس ، توبوا إلى ربّكم ، فإني أستغفر الله ، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وروى أبو يعلى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال : إنما هلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون».

وفي الأثر المروي : «قال إبليس : وعزّتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الله عزّ وجلّ : وعزّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم ، فتلا هذه الآية : ﴿فَاعْلَمْ ..﴾ وذلك أنه أمر بالعمل بعد العلم.

### فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ المنافقون كعبد الله بن أبيّ بن سلول ، ورفاعة بن التابوت ، وزيد بن الصليب ، والحارث بن عمرو ، ومالك بن دخشم قوم انتهازيون نفعيون ، كانوا يحضرون الخطبة النّبوية يوم الجمعة ، فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه ، فإذا خرجوا سألوا عنه ، وهم أيضا قوم جهلة لإقفار قلوبهم من الإيمان ، وخلو عقولهم من الوعي والإدراك ، فكانوا يحضرون عند رسول الله ﷺ مع المؤمنين ، فيستمعون منه ما يقول ، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر.

٢ ـ لذا وصفهم الله تعالى بأنهم ممن طبع الله على قلوبهم بكفرهم فلم يؤمنوا ، واتبعوا أهواءهم في الكفر ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء ٤ / ١٥٥].

٣ ـ من منهج القرآن : الموازنة والمقارنة بين الأضداد ليتبيّن الفرق ، فكثيرا ما يقابل بين المؤمنين والكافرين كما في الآيات المتقدمة ، أو بين المؤمنين والفجار ، وهنا قابل بين المؤمنين المهتدين والمنافقين ، فالمنافقون طبع الله على قلوبهم بكفرهم واتبعوا أهواءهم في الكفر ، والمؤمنون زادهم الله هدى ، فعلموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ، وآتاهم تقواهم ، أي ألهمهم التقوى ، ووفقهم للعمل الذي فرض عليهم.

٤ ـ إذا كانت البراهين على وجود الله وتصديق نبيّه والإيمان بالبعث قد اتّضحت ، والكافرون والمنافقون لم يؤمنوا ، فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة التي ستأتيهم فجأة ، وظهرت علاماتها وأماراتها ، ومنها بعثة النّبي ﷺ وانشقاق القمر والدخان ، وكثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام ، وقلة الكرام وكثرة اللئام.

ولكن حين مجيء الساعة لا ينفعهم التذكر والإيمان ، إذ لا تقبل التوبة ولا يحسب الإيمان.

٥ ـ لا يفيد المؤمن إلا الثبات على توحيد الله ، والاعتقاد بأن لا إله إلا الله لها الفوقية والتقدم على كل شيء ، والاشتغال بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ، وهذا دليل التآخي والمحبة والرغبة في الخير والسعادة لأهل الإيمان جميعا ، ودليل على وجوب استغفار الإنسان لجميع المسلمين.

وقد أمر النبي ﷺ بالدوام والاستمرار على عقيدة التوحيد والإخلاص ، وبالاستغفار لذنبه ولذنوب المؤمنين والمؤمنات ، لأنه القدوة المثلى والأسوة

الحسنة للأمة ، ولتعليم أمته انتهاج منهجه واقتفاء سيرته. وذنوب الأنبياء : تركهم ما هو الأولى بمنزلتهم العالية عند الله تعالى. وتقديم الأمر بالتوحيد على الاستغفار دليل على تقديم العلم على العمل ، وعلى أن أول الواجبات العلم والنظر قبل القول والإقرار ، وفي الآية ما يدلّ على التواضع وهضم النفس ، لأن الله تعالى أمر رسوله الله ﷺ بالاستغفار لذنبه وذنوب من على دينه.

٦ . لا يخفى على الله تعالى شيء من حركات بني آدم وسكناتهم ، بل وجميع خلقه ، فهو سبحانه عالم بجميع ذلك جملة وتفصيلا ، فيعلم متقلبهم وتصرفهم في النهار ، ومستقرهم بالليل ، ومثواهم في الدنيا والآخرة. وعلى هذا يكون حمل قوله تعالى : ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ﴾ على العموم لكل ما ذكر أولى وأحرى كما اختار القرطبي رحمه الله تعالى.

والعلم بأن الله رقيب على كل شيء يستدعي الطاعة والعمل الصالح ، ويوجب الرهبة من العصيان والمخالفة ، وهو معنى التقوى التي يوفق الله إليها عباده المؤمنين.

**ـ ٢ ـ**

## حال المنافقين والمؤمنين عند نزول الآيات العملية

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (٢٠) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (٢٢) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (٢٣)﴾

**الإعراب :**

﴿فَأَوْلى لَهُمْ﴾ مبتدأ وخبر ، أي فويل لهم. فأولى : اسم للتهديد والوعيد ، كأنه قال: الوعيد لهم ، وهو ممنوع من الصرف ، لأنه على وزن أفعل معرفة.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ : جملة شرطية ، وقعت اعتراضا بين اسم «عسى» وخبرها ، وتقديره : فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض ، وتقطعوا أرحامكم إن توليتم.

**البلاغة :**

﴿فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ مجاز عقلي ، لأنه نسب العزم إلى الأمر ، وهو لأهله ، مثل «نهاره صائم».

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ، ليكون أبلغ في التوبيخ وآكد في التقريع. وفيه ما يسمى في البلاغة في غير القرآن بتجاهل العارف أي سلوك طريقة الاستخبار.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ لَوْ لا﴾ للحث أو الحض على حصول ما بعدها ، والمراد : يقول المؤمنون : هلا نزلت سورة في أمر الجهاد ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ مبينة واضحة لا شبهة ولا احتمال فيها لمعنى آخر. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ﴾ أي الأمر به. ﴿مَرَضٌ﴾ ضعف في الدين وشك ونفاق. ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي نظر المغمى عليه خوفا من الموت ، أو المحتضر الذي لا يحرك بصره ، والمراد أن المنافقين يخافون من القتال ويكرهونه. ﴿فَأَوْلى لَهُمْ﴾ أي فالويل والهلاك لهم ، مأخوذ من الولي أي القرب ، ومعناه : الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، أو يؤول إليه أمرهم. قال ابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل : وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم ، كقوله تعالى : ﴿أَوْلى لَكَ فَأَوْلى﴾ [القيامة ٧٥ / ٣٤].

﴿طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ استئناف كلام جديد ، أي الطاعة والقول المعروف خير لهم ، أي أحسن وأمثل ، قال الرازي : لا يقال : طاعة نكرة لا تصلح للابتداء ، لأنا نقول : هي موصوفة ، يدل عليه قوله : ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ فإنه موصوف ، فكأنه تعالى قال : طاعة مخلصة وقول معروف خير [١]. وقيل : ذلك حكاية قولهم لقراءة أبي «يقولون طاعة وقول معروف».

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ٦٢ وما بعدها.

﴿فإذا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ جدّ أصحاب الأمر ، بأن فرض القتال. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد والإيمان والطاعة. ﴿لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ أي لكان الصدق خيرا لهم ، وجملة ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ ..﴾ جواب ﴿فَإِذا عَزَمَ﴾ ولا يضر اقترانه بالفاء ، وجواب «لو» : لكان.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بكسر السين وفتحها ، أي لعلكم ، أو فهل يتوقع منكم إلا الإفساد إن أعرضتم عن الإيمان والقتال. وكلمة «عسى» تدل على توقع حصول ما بعدها. وبما أن التوقع من الله غير متصور ؛ لأن الله عز وعلا عالم بما كان وبما يكون ، فتفيد هنا التحقق ، أي لعلكم إن أعرضتم وتوليتم عن دين الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالإغارة والنهب والسلب وقطع الأرحام ، ومقاتلة بعض الأقارب بعضا ووأد البنات. أو إن توليتم أمور الناس وتأمّرتم عليهم.

﴿أُولئِكَ﴾ أي المفسدون. ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ طردهم الله من رحمته لإفسادهم وقطعهم الأرحام. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق. ﴿وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾ جعلها كالعمياء عن طريق الهدى ، فلا يهتدون سبيله.

**المناسبة :**

بعد بيان حال الكافر والمنافق والمهتدي عند استماع آيات العقيدة أو الآيات العلمية من التوحيد والحشر والبعث وغيرها من أصول الاعتقاد في الإسلام ، بيّن تعالى حالهم عند نزول الآيات العملية ، كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها ، فأوضح أن المؤمن كان ينتظر نزولها ، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول : هلا أمرنا بشيء من العبادة ، ليتقرب إلى ربه ويحظى برضاه ، وأن المنافق كان إذا نزل شيء من التكاليف البدنية أو المالية شقّ عليه ، ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل ، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العلم ، والمؤمن يعلم ويحب العمل.

لذا كافأ الله المؤمنين بالرضا والمحبة والجنة ، وجوزي المنافقون باللعنة والطرد من الرحمة والخير.

**التفسير والبيان :**

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ ، رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأَوْلى لَهُمْ﴾ أي يتمنى المؤمنون المخلصون شرعية الجهاد ، فيسألون ربهم عَزَّجَلَّ قائلين : هلا أنزلت سورة يأمرنا فيها ربنا بقتال الكفار ، حرصا على ثواب الجهاد ، ونيل درجات المجاهدين ، فإذا أنزلت سورة بيّنة واضحة في الأمر به ، وذكر فيها أن الجهاد فرض على المسلمين ، فرحوا بها ، وشق على المنافقين ، ورأيت الذين في قلوبهم شك ومرض ونفاق وهم المنافقون ، ينظرون إليك نظر المحتضر الذي شخص بصره عند الموت ، جبنا عن القتال ، وخوفا من لقاء الكفار ، فالويل والموت والهلاك أولى لهم أي قاربهم ما يهلكهم ، واللام في «لهم» مزيدة ، أو فالأولى والأجدر بهم أن يسمعوا ويطيعوا في الحالة الراهنة ، أو العقاب أحق وأولى بهم.

وهذا على المعنى الأول تهديد لهم ووعيد بقرب هلاكهم ، وقوله : ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ تصوير رائع لحالة الجبن والفزع والخوف في نفوسهم من لقاء الأعداء. وفي الآية افتضاح أمر المنافقين عند الأمر بالقتال ، أما قبل القتال فكانوا يترددون إلى الفئتين : فئة المؤمنين وفئة الكافرين.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَآتُوا الزَّكاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ ، إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقالُوا : رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ ، لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء ٤ / ٧٧].

وبعد هذا التهديد والوعيد ، قال الله تعالى مشجعا لهم :

﴿طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي طاعة مخلصة لله وقول معروف أحسن وأمثل وخير لهم من غيرهما.

﴿فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ ، فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ أي فإذا جدّ الحال ، وفرض القتال ، فلو صدقوا في ذلك القول وفي القتال ، وأطاعوا الله تعالى ، وأخلصوا له النية ، لكان إظهار الإيمان والطاعة خيرا لهم من المعصية والمخالفة.

ثم وبّخهم الله تعالى ، وردّ على شبهتهم في أن القتل إفساد وأن العرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا ، فقال :

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ﴾ أي فلعلكم إن توليتم عن الطاعة والجهاد ، وأعرضتم عن القتال وتنفيذ أحكامه ، أو فهل يتوقع منكم إن توليتم أمر الأمة أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية ، فتسفكوا الدماء ، وتفسدوا في الأرض بالبغي والظلم والنهب والسلب والمعاصي ، وتقطعوا أرحامكم بالقتل والعقوق ووأد البنات وسائر مفاسد الجاهلية. قال قتادة وغيره : معنى الآية : فلعلكم أو يخاف عليكم إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض ولسفك الدماء.

قال أبو حيان : والأظهر أن ذلك خطاب للمنافقين في أمر القتال ، وهو الذي سبقت الآيات فيه ، أي إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى في القتال ، هل ينتظر منكم إلا أن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام ، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من صلة الرحم ، ويدل على ذلك : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ فالآيات كلها في المنافقين. وهذا التوقع الذي في «عسى» ليس منسوبا إليه تعالى ، لأنه عالم بما كان وما يكون ، وإنما هو بالنسبة لمن عرف المنافقين كأنه يقول لهم : لنا علم ، من حيث ضياعهم ، هل يتوقع منكم إذا أعرضتم عن القتال أن يكون كذا وكذا (١).

---

(١) البحر المحيط : ٨ / ٨٢

وهذا حث لهم على التدبر وترك العصبية والجدال ، فالله يعلم أنهم إن ولوا أمور الناس ، أو أعرضوا عن هذا الدين ، لم يصدر عنهم إلا القتل والنهب وسائر أنواع المفاسد ، كعادة أهل الجاهلية.

لذا حكم الله عليهم باللعنة ، فقال :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾ أي أولئك الظالمون وسفاكو الدماء بغير حق هم الذين أبعدهم الله من رحمته وطردهم عنها ، فأصمهم في الدنيا عن استماع الحق ، وأعمى أبصارهم عن رؤية الحق والنظر في أدلة الكون الدالة على عدالة نظام الله تعالى وشرعه في عباده من تحريم الدماء والأموال بغير حق. وإنما لم يقل : «أصم آذانهم» لأن السمع لا يتفاوت بوجود الأذن وعدمها ، ولذلك يسمع مقطوع الأذن ، أما الرؤية فتتعلق بالبصر نفسه ، فذكر الأبصار ، ولم يذكر الأذن.

وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموما ، وعن قطع الأرحام خصوصا ، وأمر بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : وخلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه ، قامت الرحم ، فأخذت بحقوي [1] الرحمن عزّ وجلّ ، فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك» قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرؤوا إن شئتم : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ﴾.

---

(١) الحقو : الإزار أو الخصر ، والمراد هنا مجاز عن شدة التعلق واللجوء إلى الله والاستعانة.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

١ ـ المؤمنون المخلصون مشتاقون للوحي ، حريصون على الجهاد وثوابه ، والمنافقون هدامون لكيان الأمة ، جبناء في القتال خوفا وهلعا ، ميّالون في السر إلى الكفار ، نافرون من التكاليف الشرعية ، وخصوصا فرض الجهاد.

٢ ـ هدد الله المنافقين وأوعدهم وحذرهم بقوله : ﴿فَأَوْلى لَهُمْ﴾ أي الويل والهلاك لهم ، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، أو أحق وأجدر بهم طاعة الله تعالى وقول معروف.

ثم رغبهم في إصلاح أمرهم ، ودعاهم إلى الطاعة ، وأبان لهم أن الطاعة المخلصة والقول المعروف أمثل لهم وأحسن وخير من المخالفة والعصيان ودعاية السوء.

٣ ـ أكد تعالى دعوتهم إلى الطاعة وتحذيرهم من المخالفة ، فأبان أنه إن جد الأمر وفرض القتال كرهوه [١] ، أو فإذا عزم أصحاب الأمر ، فلو صدقوا الله في الإيمان والجهاد ، لكان خيرا لهم من المعصية والمخالفة.

٤ ـ إن سلوك المنافقين إن تولوا أمر الأمة أو إن أعرضوا عن كتاب الله تعالى ودينه واتباع رسوله ﷺ أمر معروف ، وهو العودة إلى مفاسد الجاهلية من الإفساد في الأرض بسفك الدماء الحرام ، والبغي والظلم ، والنهب والسلب ، وتقطيع الأرحام.

٥ ـ لا يستحق أولئك المنافقون إن استمروا على نفاقهم إلا الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وإلقاء الصمم في الآذان عن سماع الحق ، والعمى في الأبصار والقلوب عن إدراك الخير ، فكل من سار على نهجهم ، حقّت عليه اللعنة ، وسلبه الله الانتفاع بسمعه وبصره ، حتى لا ينقاد للحق ، وإن سمعه ، فكأنه كالبهيمة التي لا تعقل.

---

(١) فيكون جواب «إذا» محذوفا.

## ٣٠ .

## حال المنافقين بعد ردتهم وعند قبض أرواحهم

## والتذكير بحكمة الجهاد

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (٢٥) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (٢٧) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (٣١)﴾

**الإعراب :**

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ : خبر ﴿إِنَّ﴾ إما قوله تعالى : ﴿الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ وإما مقدر تقديره : معذبون.

﴿فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ .. فَكَيْفَ﴾ : في موضع رفع ، خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : فكيف حالهم ، فحذف المبتدأ للعلم به. وجملة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ..﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿الْمَلائِكَةُ﴾. وفاء ﴿فَكَيْفَ﴾ : فاء التفريع لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

**البلاغة :**

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ استفهام توبيخي.

﴿أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ استعارة تصريحية ، شبه قلوبهم بالأبواب المقفلة ، فهي لا تنفتح لوعظ واعظ.

﴿ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان.

**المفردات اللغوية :**

﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتفهمونه ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر ، حتى لا يقتحموا المعاصي ويقعوا في الموبقات ﴿أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ أي بل على قلوب لهم مغاليقها التي لا تفتح ، فلا يفهمونه. وتنكير ﴿قُلُوبٍ﴾ لأن المراد : قلوب بعض منهم ، وإضافة الأقفال لها للدلالة على أقفال مناسبة لها ، مختصة بها ، ليست من جنس الأقفال المعهودة. والأقفال جمع قفل. وهو استفهام توبيخي ، و ﴿أَمْ﴾ : منقطعة بمعنى «بل» والهمزة للتقرير.

﴿ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ﴾ رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زيّن لهم خطاياهم وسهل لهم ﴿وَأَمْلى لَهُمْ﴾ مدّ لهم في الآمال والأماني الباطلة ووعدهم بطول الأجل ، والضمير للشيطان ، أي المملي والمضل هو الشيطان ، بإرادته تعالى.

ذلك الإضلال ﴿بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ﴾ أي قال المنافقون للمشركين أو لليهود ، أو قال اليهود الذين كفروا بالنبي ﷺ بعد ما تبين لهم نعته للمنافقين ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بعض أموركم ، كالقعود عن الجهاد والمعاونة على عداوة النبي ﷺ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ﴾ أي إنهم قالوا ذلك سرا ، فأظهره الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، والإسرار : مصدر وهو السر ، وقرئ بفتح الهمزة : أسرارهم جمع سر.

﴿فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ أي فكيف حالهم ، أو فكيف يعملون ويحتالون حينئذ؟

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ﴾ تصوير لتوفيهم ، أي يتوفونهم وهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ، وفي هذا تخويف وتهديد ، إذ يتعرضون عند التوفي إلى أهوال وفظائع تشبه ما يجبنون عن القتال له ويخافون منه.

﴿ذلِكَ﴾ التوفي الموصوف بالحالة المذكورة ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ﴾ من الكفر وكتمان نعت الرسول ﷺ وعصيان الأمر ﴿وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ﴾ كرهوا العمل بما يرضيه من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾ أبطلها.

﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ﴾ أن لن يبرز الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين أحقادهم ، والأضغان : جمع ضغن أي حقد شديد ﴿لَأَرَيْناكَهُمْ﴾ أي عرّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم ، واللام لام الجواب ، وكررت في المعطوف الآتي : ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ أي بعلامتهم ، والفاء هنا فاء التفريع ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ جواب قسم محذوف ، أي وو الله لتعرفنهم ﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أسلوبه ومعناه ، أو إمالته عن وجهه الصريح إلى التعريض والتورية ، فإذا تكلموا عندك عرّضوا بما يعيب أمر المسلمين ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾ فيجازيكم على حسب قصدكم ، إذ الأعمال بالنيات.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ لنختبرنكم بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة أي نعاملكم معاملة المختبر بالجهاد ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ علم ظهور وانكشاف ، أما العلم الحقيقي فهو متوفر بالنسبة لله ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ في الجهاد وغيره من المشاق ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ نظهر حسن أعمالكم وقبحها ، وطاعتكم وعصيانكم في الجهاد وغيره ، أو أخباركم عن الإيمان وموالاة المؤمنين صدقا وكذبا.

**المناسبة :**

بعد بيان حال إعراض المنافقين عن الخير واستماع القرآن ، أمرهم تعالى بتدبر القرآن ، ونهاهم عن الإعراض عنه كيلا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ، ثم أخبر أنهم رجعوا وارتدوا إلى الكفر بعد ما تبين لهم حقيقة الإسلام بالدلائل الواضحة ، أو نعت محمد ﷺ في التوراة بالمعجزات الباهرة ، وأوضح سبب ردتهم وهو قولهم ليهود بني قريظة والنضير : سنطيعكم في بعض الأمور والأحوال.

ثم ذكر تعالى ما يلاقونه من أهوال عند قبض أرواحهم بسبب اتباع أهوائهم وإسخاط ربهم ، وأردفه ببيان قدرة الله على كشف أحوالهم وافتضاح أمرهم ، وأعلن صراحة لهم أن الدنيا دار اختبار بالأوامر والنواهي كالجهاد وغيره ، ليعلم المجاهد الصادق في إيمانه ، الصابر على مشاقّ التكاليف ، وليختبر أعمالهم الحسنة والسيئة ، وأخبارهم التي يشيعونها ، فيجازيهم بما عملوا.

**التفسير والبيان :**

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ أي أفلا يتفهم هؤلاء المنافقون وغيرهم القرآن ويتصفحونه ، فيعملون بما اشتمل عليه من المواعظ

الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة؟ بل أعلى قلوبهم أقفال؟ فهم لا يفهمون ولا يعقلون شيئا من معانيه ، ولا تتفتح قلوبهم للحق ، وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار.

والآية توبيخ لهم ، وأمر بتدبر القرآن وتفهمه ، ونهي عن الإعراض عنه.

وقد وردت محققه لمعنى الآية المتقدمة ، فإنه تعالى قال : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير وغير ذلك من الأمور الحسنة ، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ لا يسمعون حقيقة الكلام ، وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام ، فهم كما حكى القرآن بين أمرين : إما ألا يتدبرون القرآن ، لأن الله أبعدهم عن الخير ، وإما أن يتدبروا لكن لا يدخل معانيه في قلوبهم ، لكونها مقفلة.

ثم أبان الله تعالى منشأ ذلك مشيرا إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثته وارتدوا ، أو مشيرا إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن ، فقال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ ، وَأَمْلى لَهُمْ﴾ أي إن الذين فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ، من بعد ما ظهر لهم الهدى بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة ، زين لهم الشيطان خطاياهم ، وسهّل لهم الوقوع فيها ، وحسّن لهم الكفر ، وخدعهم وغرهم بالأماني والآمال ، ووعدهم بطول العمر ومدّ الأجل.

وهذا الكلام : قيل : إنه في أهل الكتاب ، قال قتادة : نزلت في قوم من اليهود ، وكانوا عرفوا أمر الرسول ﷺ من التوراة ، وتبين لهم بهذا الوجه ، فلما باشروا أمره ، حسدوه ، فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى.

وقيل : إنه في المنافقين ، قال ابن عباس وغيره : نزلت في منافقين كانوا أسلموا ، ثم ماتت قلوبهم.

والظاهر ـ كما ذكر أبو حيان ـ أن الآية تتناول كل من دخل في لفظها.

ثم بيّن الله تعالى بعض مظاهر ضلالهم ، فقال :

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ﴾ أي ذلك الارتداد والكفر بعد الإيمان بسبب أن هؤلاء المنافقين وغيرهم من اليهود الذين ارتدوا على أدبارهم قالوا للذين أبغضوا ما نزّل الله في قرآنه ، وهم المشركون أو اليهود : يهود بني قريظة والنضير من يهود المدينة : سنطيعكم في بعض الأمور ، كعداوة النبي ﷺ ، ومخالفة ما جاء به ، والقعود عن الجهاد معه ، أي إنهم مالئوهم وتآمروا معهم سرا أأو في الباطن ، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون.

لذا كشفهم الله وأبان أنه يعلم ما يسرون وما يخفون وما يعلنون ، كقوله تعالى : ﴿وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء ٤ / ٨١].

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ : لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [الحشر ٥٩ / ١١].

ثم ذكر الله تعالى سوء حالهم وما يتعرضون له من أهوال حين توفيهم ، فقال :

﴿فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ ، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ﴾؟ أي فكيف حالهم وكيف يعملون ويصنعون إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، واستخرجتها بالعنف والقهر وضرب وجوههم وظهورهم ، وذلك بكيفية يكرهونها وحال يخافونها في الدنيا ، ويجبنون عن القتال من أجلها ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ..﴾ [الأنفال ٨ / ٥٠] وقال عزوجل : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ ،

وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ . أي بالضرب . ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٩٣]. ومعنى الكلام التخويف والتهديد ، أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر.

وسبب هذه الأهوال ما قال تعالى :

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ ، وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾ أي ذلك التوفي على الصفة المذكورة بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي ، وتآمرهم مع أعداء الله على معاداة ومحاربة النبي ﷺ وأصحابه ، وكراهيتهم ما يرضي الله من الإيمان الحق والتوحيد والطاعة ، فأبطل الله أعمالهم الخيرية بهذا السبب ، ومنها ما قد عملوا من الخير قبل الردة ، كالصدقة وعون البائس الفقير وإغاثة الملهوف ، لأنهم فعلوه أثناء الشرك والكفر وأمر الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٣].

ثم وبخ الله تعالى المنافقين وهددهم على قصر نظرهم وعداوتهم للمؤمنين ، فقال :

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ﴾ أي أيعتقد هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق وحقد وعداوة للمؤمنين أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ويبرز أحقادهم وعداواتهم؟! لا تظنوا هذا ، فالله عالم الغيب والشهادة ، يعلم السر وأخفى ، فيوضح أمرهم ويجليه ويفضح شأنهم كما فعل في سورة براءة التي تسمى الفاضحة.

ثم أكد تعالى هذا المعنى بقوله :

﴿وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾ أي ولو نشاء يا محمد لأعلمناك أشخاصهم ، وعرّفناك أعيانهم معرفة

تقوم مقام الرؤية ، فعرفتهم بعلامتهم الخاصة بهم التي يتميزون بها ، ولكنه تعالى لم يفعل ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه ، وحملا للأمور على ظاهر السلامة.

ووالله لتعرفنهم يا محمد في فحوى الكلام ومقصده ومغزاه ، وهو تعريضهم بأمرك وأمر المسلمين ، ومخاطبتهم النبي ﷺ بألفاظ ظاهرها الحسن ، وباطنها القبح. قال الكلبي : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. وعن أنس أنه ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين ، ولقد كنا في بعض الغزوات ، وفيها تسعة منهم يشكوهم الناس ، فناموا ذات ليلة ، وأصبحوا ، وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب : هذا منافق.

والله لا تخفى عليه خافية ، ويعلم جميع أعمالهم ، فيجازيهم عليها من خير أو شر. وهذا وعد ووعيد ، وبشارة وإنذار.

ثم أعلن الله تعالى منهج الحياة الدنيوية بالنسبة للتكاليف الشرعية ، فقال :

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ أي ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي ونعاملكم معاملة المختبر ، ومنها الجهاد في سبيل الله ، حتى نعلم علم ظهور وانكشاف ، فالله يعلم الحقائق كلها قبل وجودها ، وإنما التكليف يظهر المجاهدين بحق في سبيل الله ، الذين امتثلوا الأمر بالجهاد ، ويظهر الذين صبروا على دينه ومشاق ما كلّف به ، ويظهر أخبار الناس ويكشفها امتحانا لهم ، ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به ، ومن عصى ولم يمتثل. ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا : إلا لنعلم ، أي لنرى. وقال علي رضي الله عنه : ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ : حتى نرى.

وقال إبراهيم بن الأشعث : كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى ، وقال : اللهم لا تبتلينا ، فإنك إذا بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ يجب على المسلمين وغير المسلمين تدبر القرآن وتفهمه للتعرف على أحكامه ومراميه وغاياته ، وليعلم ما أعد الله للذين تولوا عن الإسلام ، فإن لم يفعلوا أقفل الله عَزَّوَجَلَّ قلوبهم بأقفال الكفر والعناد ، فهم لا يعقلون.

وهذا رد على مذهب القدرية والإمامية الذين يقولون : إن الإنسان يخلق أفعال نفسه.

٢ ـ إن كل من ظهرت له الدلائل على صحة عقيدة الإسلام وشريعته وسمعها ، ولم يؤمن بها ، فهو ممن زين له الشيطان سوء عمله وخطاياه ، سواء كان من أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثته ، وارتدوا ، أو من غير أهل الكتاب.

٣ ـ لقد تآمر المنافقون واليهود على النبي ﷺ والمؤمنين ، في الباطن والسر ، وعادوهم ، وتواطؤوا مع المشركين الذين كرهوا ما نزّل الله في كتابه على توهين قوة المسلمين ، ولكن الله تعالى مطّلع على سرهم ، وكاشف أمرهم ، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك.

٤ ـ يتعرض الكفار والمنافقون لأهوال شديدة عند الوفاة ، فتنتزع الملائكة أرواحهم بعنف وشدة ، وتضرب وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد.

٥ ـ إن سبب تلك الأهوال في الدنيا هو اتباعهم ما أسخط الله بإضمار الكفر إن كانوا منافقين ، أو بكتمان ما في التوراة من نعت محمد ﷺ ، وكراهيتهم ما يرضي الله وهو الإيمان ، مما يؤدي إلى إحباط أعمالهم التي عملوها من صدقة وصلة رحم وغير ذلك.

٦ . يخطئ المنافقون الظن إن توهموا ستر الحال وألا يخرج أو يبرز الله ما يضمرونه من مكروه وحسد ، وحقد وعداوة لنبي الله تعالى والمؤمنين.

٧ . إن في قدرة الله تعالى أن يعرّف نبيه بأعيان المنافقين ، وقد عرّفه إياهم بأوصافهم لا بأسمائهم في سورة براءة ، ويمكن معرفتهم بسهوله فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، فإن فحوى الكلام ومعناه ينبئ عن حقيقة الحال ، والله يعلم أعمال عباده ، فلا يخفى عليه شيء منها. ومن أمثلة تعريفهم في سورة براءة قوله تعالى : ﴿**فَقُلْ : لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً ، وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا**﴾ [التوبة ٩ / ٨٣] وقوله سبحانه : ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً ، وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ**﴾ [التوبة ٩ / ٨٤].

وثبت في السنة تعيين جماعة من المنافقين ، روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : «خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ، ثم قال : إن فيكم منافقين ، فاتقوا الله ، قال : فمرّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سمّى مقنّع قد كان يعرفه ، فقال مالك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ ، فقال : بعدا لك سائر الدهر».

٨ . إن ميدان الحياة ميدان اختبار وتجربة لينكشف الناس بعضهم لبعض ، فيتعبدهم الله بالشرائع ، وطن علم سبحانه سلفا عواقب الأمور ، من أجل رؤية المجاهدين في سبيل الله والصابرين على مشاق التكاليف ، وتمييزهم عن غيرهم ، واختبار أخبارهم وإظهارها للملأ ، فبالجهاد يعلم الصادق في إيمانه أو قوله : آمنت ، من الكاذب الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

## حال بعض كفار أهل الكتاب وبعض المؤمنين في الدنيا والآخرة

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (٣٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (٣٥)﴾

**الإعراب :**

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ : خبر ﴿إِنَ﴾ قوله تعالى : ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ ودخلت الفاء في الخبر ، لأن اسم ﴿إِنَ﴾ : ﴿الَّذِينَ﴾ ، فشابه الشرط ، لأنه مبهم ، ولم يؤثر دخول ﴿إِنَ﴾ بخلاف ما لو دخلت «ليت ولعل وكأن» فإنه لا يجوز فيه دخول الفاء في الخبر مع ليت ولعل وكأن ، لأن ﴿إِنَ﴾ للتأكيد ، وتأكيد الشيء لا يغير معناه ، بخلاف «ليت ولعل وكأن» ، فإنها غيرت معنى الابتداء ، لإدخال معنى التمني والترجي والتشبيه.

﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ حذف منه واو لام الفعل.

**المفردات اللغوية :**

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ عن طريق الحق ، قيل : إنهم المشركون كفار قريش وهم المطعمون يوم بدر ، والراجح أنهم أهل الكتاب يهود بني قريظة وبني النضير ، لأن الله ذكر المشركين في أول السورة ، ثم ذكر المنافقين ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ خالفوه ، بأن صاروا في شق وجانب ، وهو في شق وجانب آخر ﴿مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى﴾ وهو معنى سبيل الله أي طريق الحق ، وهذا يؤيد أن الآية في أهل الكتاب ، تبين لهم في كتبهم صدق محمد ﷺ ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾ بكفرهم وصدهم عن سبيل الله ، وهو تهديد معناه : هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول ﷺ ، والواقع أنه مع الله تعالى ، فإن محمدا رسول الله ﷺ ما عليه إلا البلاغ ، فإن ضروا ضروا الرسل ، والله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ﴾ أي يبطل

أعمالهم الخيرية من صدقة وصلة رحم ونحوها ، فلا يرون لها في الآخرة ثوابا ، فيكون المعنى : يبطل حسنات أعمالهم بكفرهم ومشاقتهم ومعاداتهم الرسول ﷺ.

﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾ لا تبطلوا ثواب أعمالكم بما أبطل به هؤلاء ، كالكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها ، قال البيضاوي : وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ عن طريق الحق والهدى ﴿ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ، فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ هذا عام في كل من مات على كفره ، وإن صح نزوله في أصحاب القليب (البئر غير المطوية) يوم بدر.

﴿فَلا تَهِنُوا﴾ لا تضعفوا ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ بكسر السين وفتحها ، أي إلى الصلح خورا وتذللا مع الكفار إذا لقيتموهم ، وقرئ : ولا تدّعوا : من ادّعى بمعنى دعا ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبون القاهرون ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر ، أي ناصركم ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ لن يضيع ثواب أعمالكم ولن ينقصها ، يقال : وتره حقّه ، أي نقصه ، ومنه قوله ﷺ فيما أخرجه النسائي عن نوفل بن معاوية : «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» أي ذهب بهما ، وأصبح فردا.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (٣٢):**

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا .. لَنْ يَضُرُّوا اللهَ﴾ قال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر.

**نزول الآية (٣٣):**

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ﴾ خطاب للمؤمنين بلزوم الطاعة في أوامر الله تعالى والرسول ﷺ في سننه. أخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت : ﴿أَطِيعُوا اللهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

**نزول الآية (٣٤):**

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا .. فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ نزلت في أصحاب القليب أي قليب بدر ، حيث ألقي قتلة المشركين في بئر.

**المناسبة :**

بعد بيان حال المشركين في أول السورة ، ثم حال المنافقين ، ذكر الله تعالى حال جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قريظة والنّضير ، كفروا وصدوا عن سبيل الله ، فهددهم الله ، لأنهم تركوا الحق بعد معرفته. ثم ذكر قصة بعض الصحابة وهم بنو سعد الذين أسلموا ، وامتنوا بإسلامهم على النبي ﷺ ، فنهاهم الله عن ذلك. ثم أبان تعالى حكم من ماتوا كفارا ، وهو أنه لن يغفر الله لهم ، وأنه خاذلهم في الدنيا والآخرة ، فلا داعي لإظهار الضعف والتذلل أمامهم ، والمؤمنون في قوة وغلبة وتفوق.

**التفسير والبيان :**

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى ، لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً ، وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ﴾ أي إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا الناس عن دينه وطريق الحق بأن منعوهم عن الإسلام واتباع الرسول ﷺ ، وخالفوا الرسول ﷺ وعادوه من بعد أن ظهر لهم الحق ، وعرفوا أن محمدا رسول ﷺ من عند الله بالمعجزات الواضحة والأدلة القاطعة ، لن يضروا الله شيئا بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر ، لأن العباد لن يبلغوا ضرّ ربهم فيضرونه ، فهو منزّه عن ضرر الغير مهما كان ، وإنما يضرون أنفسهم ويخسرونها يوم المعاد ، وسيبطل الله ثواب أعمالهم ، لكفرهم.

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال ، فقال :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله أطيعوا الله تعالى وأطيعوا رسوله ﷺ ، بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما ، ولا تبطلوا حسناتكم بالردة أو بالمعاصي الكبائر ، وبالرياء والسمعة ، والمن والأذى. أما الإبطال بالردة فدليله الآية التي بعدها : ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾.

وأما الإبطال بالكبائر فقد ذكر في سبب النزول عن أبي العالية قال : كان أصحاب النبي ﷺ يرون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، حتى نزلت الآية ، فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم.

وقال قتادة رحمه الله : رحم الله عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لا تبطلوها بالرياء والسمعة ، أو بالشك والنفاق.

وروى محمد بن نصر المروزي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول ، حتى نزلت ﴿أَطِيعُوا اللهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾ فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا : الكبائر الموجبات ، والفواحش ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ، ونرجو لمن لم يصبها».

ثم أبان الله تعالى أن أعمال المكلف إذا بطلت ، فإن فضل الله باق ، يغفر له إن شاء ، ما لم يمت على الكفر ، فقال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ ماتُوا ، وَهُمْ كُفَّارٌ ، فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ أي إن الذين جحدوا توحيد الله ، ومنعوا الناس عن دين الله تعالى واتباع رسوله ﷺ ، وماتوا وهم مصرون على الكفر ، فلا مغفرة لهم ، بل إنهم معاقبون في النار. قال مقاتل : نزلت في رجل سأل النبي ﷺ عن والده ، وقال : إنه كان محسنا في كفره. وعن الكلبي : نزلت في رؤساء أهل بدر.

ونظير الآية : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء ٤ / ٤٨]. ولا تسامح أكثر من هذا ، فإن الله غفور رحيم لمن مات وهو مؤمن ، ولا مغفرة ولا رحمة بالموت على الكفر.

ثم بيّن سبحانه ألا حرمة للكافر في الدنيا والآخرة ، وأمر بقتال الكفار ، فقال :

﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ أي فلا تضعفوا عن القتال أيها المؤمنون ، ولا تدعوا الكفار إلى الصلح والمسالمة ابتداء منكم ، وإظهارا للعجز والضعف ، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف ، ولا مانع من قبول السلم إذا جنح إليه المشركون ، أما في حال كونكم أنتم الأعلون : الغالبون القاهرون المستولون على أعدائكم ، فلا تبدؤوهم بطلب الصلح ، والله معكم بالنصر والمعونة عليهم ، ولن ينقصكم شيئا من ثواب أعمالكم.

وقوله ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء.

فأما إذا كان الكفار في حال قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح وإنهاء الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن شؤم الكفر بالله تعالى ورسوله ﷺ ومحاولة صد الناس عن الإسلام وشرعه ومعاداة الرسول بعد العلم أنه نبي بالحجج والآيات مرده إلى الكفار أنفسهم ، وسيبطل الله في الآخرة ثواب ما عملوه ، والله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر أو فسق فاسق.

٢ ـ المؤمنون مأمورون على الدوام بلزوم الطاعة في أوامر الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، منهيون عن إبطال حسناتهم بالمعاصي الكبائر ، أو بالرياء والسمعة ، أو بالمن والأذى ، أو بترك طاعة الرسول ﷺ .

وفي هذا إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصي تخرج عن الإيمان.

٣ ـ يدل ظاهر نهي المؤمنين عن إبطال أعمالهم على أن من شرع بنافلة ، ثم أراد تركها ليس له ذلك ، وللعلماء آراء في الموضوع :

فذهب الشافعي إلى أنه يجوز ترك ما شرع فيه من أعمال التطوع ، لأن المتطوع أمير نفسه ، وإلزامه إياه مخرج عن وصف التطوع : ﴿ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة ٩ / ٩١] والمراد بالآية إبطال ثواب العمل المفروض ، فإن الله نهى الرجل عن إحباط ثوابه ، فأما ما كان نفلا فلا ، لأنه ليس واجبا عليه. فإن قيل : اللفظ عام ، فالجواب أن العام يجوز تخصيصه ، لأن النفل تطوع ، والتطوع يقتصي تخييرا.

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه لا يجوز ترك ما بدئ به من تطوع ، كصلاة نافلة وصوم تطوع ، لأن المتطوع أمير نفسه قبل أن يشرع ، أما إذا شرع فقد

ألزم نفسه ، وعقد عزمه على الفعل ، فوجب عليه أن يؤدي ما التزم ، وأن يوفي بما عقد : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة ٥ / ١].

٤ ـ إن الوفاة على الكفر توجب الخلود في النار ، وباب التوبة والمغفرة مفتوح طوال الحياة ، فمن مات مصرا على جحوده توحيد الله عوقب بجهنم.

٥ ـ لا تجوز الدعوة إلى السلم والمصالحة أو المهادنة تذللا وإظهارا للضعف ، ما دام المسلمون أقوياء ، وإن حدثت الغلبة من الأعداء في الظاهر في بعض الأحوال ، فإن الله ناصر المؤمنين ، ولن ينتقصهم شيئا من أعمالهم.

فإذا عجز المسلمون لضعفهم عن مقاومة الأعداء ، جازت مهادنة الكفار عند الضرورة.

وكذلك إذا رأى الإمام مصلحة في المهادنة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل النبي ﷺ في صلح الحديبية مع المشركين مدة عشر سنين.

أما إن طلب المشركون الصلح بحسن نية من غير خداع ، فلا بأس بإجابتهم ، لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [الأنفال ٨ / ٦١].

وعلى هذا تكون كل من الآيتين : ﴿فَلا تَهِنُوا وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ محكمة غير منسوخ إحداهما بالأخرى كما قال بعضهم ، فهما نزلتا في وقتين مختلفي الحال ، فالأولى في حال قوة المسلمين ، والثانية حال طلب الأعداء الصلح.

## تأكيد الحث على الجهاد بالتزهيد في الدنيا

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (٣٧) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (٣٨)﴾

**الإعراب :**

﴿إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا .. يَسْئَلْكُمُوها﴾ : فعل يتعدى إلى مفعولين ، فالأول «كمو» والثاني : «ها» و ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ مجزوم بالعطف على ﴿يَسْئَلْكُمُوها﴾ و ﴿تَبْخَلُوا﴾ مجزوم ، لأنه جواب الشرط ، و ﴿يُخْرِجْ﴾ مجزوم بالعطف على ﴿تَبْخَلُوا﴾.

﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ ها﴾ : للتنبيه ، و ﴿أَنْتُمْ﴾ : مبتدأ ، و ﴿هؤُلاءِ﴾ : موصول بمعنى الذين : خبر ، وصلته : ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي أنتم الذين تدعون ، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ، ثم استأنف وصفهم ، فقال : تدعون لتنفقوا ..

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ معطوف على : ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾.

﴿ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ يجوز العطف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم بالجزم كما هنا ، وبالرفع مثل : ﴿وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ [آل عمران : ٣ / ١١١].

**البلاغة :**

﴿الْغَنِيُّ﴾ و ﴿الْفُقَراءُ﴾ بينهما طباق.

**المفردات اللغوية :**

﴿إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ أي الاشتغال فيها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثبات لها ، واللعب : كل ما لا منفعة فيه في المستقبل ، ولا يشغل عن مهامّ الأمور ، فإن شغل عنها فهو اللهو ، ومنه آلات الملاهي ،

لأنها تشغل عن غيرها ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ يعطكم ثواب الإيمان والتقوى ﴿وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ﴾ لا يطلب جميع أموالكم ، بل يقتصر على الزكاة المفروضة التي هي جزء يسير ، كربع العشر ، والعشر.

﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ يبالغ في الطلب ، من الإحفاء والإلحاف : بلوغ الغاية في كل شيء ، يقال : ألحف بالمسألة وأحفى وألح بمعنى واحد ، ﴿وَيُخْرِجْ﴾ البخل ﴿أَضْغانَكُمْ﴾ أحقادكم أي عداوتكم لدين الإسلام ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ﴾ أي أنتم يا مخاطبون ، هؤلاء الموصوفون. ﴿لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ما فرض عليكم من الزكاة ونفقة الجهاد وغيرها ﴿يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يقال : بخل عليه وعنه ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ﴾ عن نفقتكم ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ﴾ إلى الله ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ تعرضوا عن طاعته ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ يقم مقامكم قوما آخرين أو يجعل بدلكم ﴿ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ في التولي عن طاعته وعن الإيمان ، بل مطيعين له تعالى.

**المناسبة :**

بعد أن أمر الله تعالى بالجهاد ، ونهى عن الضعف والخور في مواصلة الكفاح وطلب الموادعة والمصالحة مع الأعداء ، حث على الجهاد بالنفس والمال والإنفاق في سبيل الله ، بتحقير الدنيا في أعين المؤمنين ، والترغيب في الإيمان والتقوى ، لتعود فائدتها عليهم ، وهدد تعالى في ختام السورة بأنه إن أعرضتم عن الإيمان والجهاد والتقوى ، يجعل بدلا عنكم قوما آخرين هم أفضل منكم لإقامة دينه ، ونصرة دعوته.

**التفسير والبيان :**

﴿إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي احرصوا أيها المؤمنون على جهاد الأعداء ، واسترخصوا الحياة الدنيوية واطلبوا الآخرة ، فإنما حاصل الدنيا لعب ولهو ، أي باطل وغرور ، لا ثبات له ولا اعتداد به إلا ما كان منها لله عزّ وجلّ ، بسلوك سبيله وطلب رضاه وعبادته وطاعته. وفي هذا تحقير لأمر الدنيا وتهوين لشأنها. واللعب : كل ما لا ضرورة فيه في الحال ولا منفعة في المآل ، ولم يشغل عن غيره ، فإن شغل عن غيره فهو لهو ، ومنه آلات الملاهي ، لأنها مشغلة عن غيرها.

وقد جاء ذمّ الدنيا والحرص عليها والتمسك بزينتها وإهمال الآخرة في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ..﴾ الآية [الحديد ٥٧ / ٢٠].

ثم أعاد الله تعالى الوعد بالثواب وتأكيده والترغيب في الآخرة قائلا :

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ﴾ أي إن تؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان ، وتتقوا ربّكم حق التقوى بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ، يؤتكم ثواب أعمالكم وطاعاتكم في الآخرة ، ولا يأمركم بإخراج جميع أموالكم في الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل أمركم بإخراج القليل منها ، والمعنى : أن الله غني عنكم ، لا يطلب منكم شيئا ، وإنما فرض عليكم صدقات الأموال ، مواساة لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ، ويرجع ثوابه إليكم.

ثم بيّن الله تعالى سبب الحرص على الدنيا ، فقال :

﴿إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ﴾ أي إن يطلب ربكم أموالكم كلها ، فيجهدكم ويلح في الطلب عليكم ، تشحوا وتبخلوا ، وتمتنعوا من الامتثال ، ويظهر عندئذ أحقادكم.

قال قتادة : قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان. وهذا كما ذكر ابن كثير حق وصدق ، فإن المال محبوب إلى النفس ، ولا يصرف إلا فيما. هو أحب إلى الشخص منه.

ثم أبان تعالى ما سلف وأكده بقوله :

﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي أنتم أيها المؤمنون المخاطبون مدعوون للإنفاق في سبيل الله ، أي في الجهاد والزكاة وفي طريق الخير.

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِيُّ ، وَأَنْتُمُ الْفُقَراء﴾ أي فبعضكم يبخل باليسير من المال ولا يجيب لدعوة الإنفاق ، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال؟ ومن يبخل في الإنفاق ، فإنما يمنع نفسه الأجر والثواب ببخله ، ويعود وبال ذلك عليه ، فإنه بالبخل يتغلب العدو عليكم ، فيذهب عزكم وأموالكم ، وربما أنفسكم.

والله هو صاحب الغنى المطلق المتنزه عن الحاجة إلى أموالكم ، فهو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه دائما ، لذا قال : ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ﴾ أي أنتم أيها العباد الفقراء بالذات إلى الله ، وإلى ما عنده من الخير والرحمة ، فهو سبحانه لا يأمر بالإنفاق لحاجته ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب.

ثم أبان الله تعالى سنته في الاستبدال بقوم قوما آخرين أفضل منهم إن أعرضوا عن حمل الأمانة ، فقال محذرا ومذكرا ومهددا :

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ أي إن تعرضوا عن الإيمان والتقوى وعن طاعة الله واتباع شرعه ، يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم ، أي يكونون سامعين مطيعين لله ولأوامره ، وليسوا أمثالكم في التولي عن الإيمان والتقوى ، وفي البخل بالإنفاق في سبيل الله.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير وعبد الرزاق والبيهقي والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا ، استبدل بنا ، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ثم قال : «هذا وقومه ، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس» لكن تكلم به بعض الأئمة رحمهم الله ، كما قال ابن كثير ، وقال الترمذي : حديث غريب في إسناده مقال.

وعن الكلبي والحسن وعكرمة : شرط في الاستبدال توليهم ، لكنهم لم يتولوا ، فلم يستبدل قوما ، وهم العرب أهل اليمن أو العجم.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الدنيا دار لعب ولهو ومشاغل وشهوات ، فالسعيد من استخدمها للآخرة ، ولم ينس نصيبه منها بقدر الحاجة ، فمن آمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ، واتقى ربه بفعل الفرائض وترك النواهي ، ظفر بالثواب العظيم في الآخرة دار الخلد.

٢ ـ المال محبوب الإنسان طبعا ، لذا لم يأمر الله لطفا منه ورحمة بإنفاق جميعه في سبيله ، كالزكاة والجهاد ووجوه الخير ، بل أمر بإخراج البعض من الربح الذي هو من فضل الله وعطائه ، لا من رأس المال ، ليرجع ثوابه إلى المنفق نفسه ، فكانت النسبة تتراوح بين ربع العشر ونصف العشر والعشر فقط ، لذا قال تعالى : ﴿لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ﴾ إنما يسألكم أمواله ، أي الأرباح التي ييسرها لكم ، لأنه المالك لها ، وهو المنعم بإعطائها. وقال : ﴿إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ﴾ أي يلح عليكم ﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ﴾ أي يخرج البخل أحقادكم.

٣ ـ أكد تعالى لطفه بعباده في التكاليف المالية ، فذكر أنه طلب منهم اليسير من أموالهم ، فبخلوا ، فكيف لو طلب منهم الكل؟!.

٤ ـ من بخل بتقديم شيء من ماله في سبيل الله كالجهاد وطرق الخير ، فإنما يبخل على نفسه ، فيمنعها الأجر والثواب.

٥ ـ الله هو الغني عن عباده وعن كل ما سواه ، فليس بمحتاج إلى أموالهم ، ولكن العباد أنفسهم هم الفقراء إلى الله عزوجل ، لتحصيل الثواب والفضل

الإلهي ، فلا يقولوا : إنا أيضا أغنياء عن القتال وعن معونة الفقراء ، فالواقع أنه لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا ، فإنه لو لا القتال لقتلوا ، بغزو الكفار واجتياح بلاد المسلمين ، والمحتاج إن لم تدفع حاجته ، قصده الغنيّ وأخذ ماله ، لا سيما أن الشارع أباح للمضطر ذلك. وأما في الآخرة فالأمر ظاهر حيث يكون كل إنسان فقيرا إلى فضل الله ورحمته ، وفي حال الحساب ، وهو موقوف مسئول في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

٦ ـ أنذر الله تعالى عباده وحذرهم من إهمال حمل المسؤولية والقيام بأعباء التكاليف ، فهم إن أعرضوا عن الإيمان والجهاد والتقوى ، استبدل قوما غيرهم يكونون أطوع لله منهم ، ثم يكونون أفضل وأمثل وأحسن منهم ، وتلك هي سنة الله في خلقه ، وليسوا أمثال المستبدل بهم في البخل بالإنفاق في سبيل الله ، كما قال الطبري. والأولى العموم ، أي لا يكونوا أمثالكم في الوصف ، ولا في الجنس ، كما ذكر الرازي. وقال الزمخشري : أي يخلق قوما على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى ، غير متولين عنهما ، كقوله تعالى : ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر ٣٥ / ١٦].

وقد اختلف المفسرون في تعيين أولئك القوم الجدد ، فقيل : هم الملائكة ، أو الأنصار ، أو التابعون ، أو أهل اليمن ، أو كندة والنخع ، أو العجم ، أو فارس والروم. والأولى تفويض ذلك إلى علم الله تعالى.

والخطاب لقريش أو لأهل المدينة ، والأولى جعل الخطاب متجددا بتجدد الأجيال والأمم ، سواء من كان عند نزول الوحي أم بعد ذلك.

حكي عن أبي موسى الأشعري : أنه لما نزلت هذه الآية ، فرح بها رسول الله ﷺ ، وقال : «هي أحب إلي من الدنيا».

## بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة الفتح

مدنيّة ، وهي تسع وعشرون آية.

### تسميتها :

سميت سورة الفتح لافتتاحها ببشرى الفتح المبين : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ..﴾. أخرج أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) عن عبد الله بن مغفّل قال : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح ـ أي فتح مكة ـ في مسيره سورة الفتح على راحلته ، فرجّع فيها ، قال معاوية بن قرّة : لو لا أني أكره أن يجتمع الناس علينا ، لحكيت قراءته.

### مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه :

١ ـ إن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال ، وقد ورد في الحديث : أنها نزلت مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين ، بعد إبهامه في قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ [٩]. وجاء في سورة محمد تعليم المؤمنين كيفية القتال : ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ ..﴾ [٤] ثم ذكر هنا بيان الثمرة اليانعة لتلك الكيفية وهو النصر والفتح.

٢ ـ في كلتا السورتين (محمد والفتح) بيان أوصاف المؤمنين والمشركين والمنافقين.

٣ ـ في سورة محمد أمر النبي بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات [الآية ١٩] وافتتحت هذه السورة بذكر حصول المغفرة.

**ما اشتملت عليه السورة :**

هذه السورة كسابقتها مدنية ، نزلت ليلا بين مكة والمدينة في شأن صلح الحديبية ، بعد الانصراف من الحديبية. والسور المدنية كما هو معروف تحدثت عن المنافقين الذين ظهروا في المدينة ، وعنيت بشؤون التشريع في الجهاد والعبادات والمعاملات.

بدأت السورة الكريمة ببشارة النبي ﷺ بالفتح الأعظم وانتشار الإسلام بعد فتح مكة الذي كان صلح الحديبية بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة بداية طيبة له.

ثم أخبرت بوعد الله المنجز لا محالة للمؤمنين ووعيده للكافرين والمنافقين ، وأبانت مهام النبي ﷺ من الشهادة على أمته وعلى الخلق يوم القيامة والتبشير والإنذار ، من أجل الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ونصرته.

وأردفت ذلك بأمرين متميزين : أولهما ـ الإشادة بأهل بيعة الرضوان تحت الشجرة في الحديبية ، وبيان أن بيعتهم في الحقيقة لله ، وتسجيل رضوان الله تعالى عليهم ، ووعدهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ..﴾.

والثاني ـ ذم المنافقين من عرب أسلم وجهينة ومزينة وغفار الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ عام الحديبية ، وكانوا من أعراب المدينة.

وأبانت إعفاء أصحاب الأعذار (الأعمى والأعرج والمريض) من فريضة

الجهاد ، واكتفت منهم بطاعة أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ، فذلك مؤذن بدخول الجنة.

وذكّرت بفضل الله تعالى على المؤمنين في إبرام الصلح والكف عن القتال بينهم وبين أهل مكة كفار قريش الذين كفروا وصدوا المؤمنين عن المسجد الحرام ، وتأثرهم بحمية الجاهلية من الأنفة والكبر والعصبية ، ورفضهم كتابة البسملة في مقدمة الصلح ، وكتابة «محمد رسول الله» ، وتثبيت المؤمنين على كلمة التقوى وهي طاعة الله تعالى والرسول ﷺ وقبول شروط الصلح ، بالرغم من إجحاف بنوده في الظاهر بحقوق المسلمين.

وتحدثت بعدئذ عن البشرى بتحقق رؤيا النبي ﷺ التي رآها في المدينة المنورة أنهم يدخلون المسجد الحرام (مكة) آمنين مطمئنين ، وتم ذلك بالفعل في العام المقبل حيث دخل المؤمنون مكة معتمرين : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ ..﴾.

وختمت السورة بأمور ثلاثة : هي إرسال محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ووصف النبي والمؤمنين بالرحمة فيما بينهم والشدة على الكفار الأعداء ، ووعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم.

**فضلها :**

نزلت هذه السورة على النبي ﷺ بعد عودته من الحديبية ، روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾».

وفي رواية : «لقد أنزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الأرض» وفي رواية مسلم عن أنس «.. أحب إلي من الدنيا جميعها».

**أضواء من السيرة على سبب نزول السورة (صلح الحديبية وبيعة الرضوان):**

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام وهو في المدينة المنورة أنه دخل مكة ، وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك ، ففرحوا فرحا عظيما.

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة معتمرا (زائرا البيت الحرام) لا يريد حربا ، ومعه ألف وخمس مائة (١٥٠٠) من المهاجرين والأنصار ومسلمي الأعراب ، وساق معه الهدي [١] ، وأحرم بالعمرة من «ذي الحليفة» وخرج معه من نسائه أم سلمة رضي الله عنها.

ولم يكن مع رسول الله ﷺ وصحبه غير سلاح المسافر : السيوف في القرب ، فبعث عينا له من خزاعة ، يخبره عن قريش ، فلما أصبح قريبا من «عسفان» ـ موضع بين مكة والمدينة ـ على مرحلتين من مكة ، أتاه عينه بشر بن سفيان الكعبي قائلا : يا رسول الله ، هذه قريش علمت بمسيرك ، فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل (النوق ذات اللبن والأولاد) أي عازمين قاصدين طول الإقامة ، وقد نزلوا بذي طوى ، يحلفون بالله ، لا تدخلها عليهم أبدا ، وقد جمعوا لك الأحابيش (جماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة) وجمعوا لك جموعا ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت.

فأرسل رسول الله ﷺ حينئذ عثمان بن عفان إلى قريش يبلّغهم قصد رسول الله ﷺ ، وأنه لا يريد إلا العمرة ، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا المسلمين إلى البيعة ، واجتمعوا تحت الشجرة ـ شجرة الرضوان ، فبايعوه على القتال وألا يفروا ، وتسمى بيعة الشجرة أو بيعة الرضوان ، قال سلمة بن الأكوع رضي

---

(١) يسن للقادم إلى مكة أن يهدي إلى الحرم شيئا من الأنعام (الإبل والبقر والغنم) ويسمى ذلك هديا.

الله عنه : «بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار ، وأنه إما الفتح وإما الشهادة». فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى الصلح والموادعة ، وكان قد أتى رسول الله ﷺ أن الذي بلغه من أمر عثمان كذب.

وقد أنزل الله في هذه البيعة قوله سبحانه : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ..﴾ [الفتح ٤٨ / ١٨]. وكان هذا الصلح هو الفتح ، وبعد رجوعه إلى المدينة فتح الله عليه خيبر ، فقسمها على أهل الحديبية لم يشركهم أحد غيرهم ، وكانوا ألفا وخمس مائة ، منهم ثلاث مائة فارس. وهذا قول سعيد بن المسيب ، والمشهور أنهم كانوا أربع عشرة مائة.

ولما علمت قريش بهذا أرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال : أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، وقال : اكتب بيننا وبينكم كتابا. فدعا الكاتب علي بن أبي طالب ، وبدأ الاتفاق على بنود المعاهدة ، بعد أن رفض سهيل كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» ، وكتب «باسمك اللهم» ورفض أيضا وصف محمد بالرسالة ، فكتب : «محمد بن عبد الله».

وتم الصلح على أن يكف الفريقان عن الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس ، دون قتال ولا اعتداء ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ، رده عليهم ، ومن جاء قريشا من أصحاب محمد ﷺ لم يردوه عليه ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فسارعت خزاعة ، فدخلت في عقد محمد ﷺ وحالفته ، وتواثبت بنو بكر ، فدخلوا في عهد قريش وعقدهم.

وعلى المسلمين الرجوع عن مكة هذا العام ، وإذا كان العام القادم خرجت

قريش من مكة ، ودخلها المسلمون ثلاثة أيام ، معهم سلاح الراكب ، السيوف في القرب.

وقد اعترض بعض كبار المسلمين مثل عمر بن الخطاب على الصلح ، لعدم تكافؤ شروطه ، وإجحافه بالمسلمين ، ولكنه كان في الحقيقة نصرا كبيرا ، لأن قريشا اعترفوا بمكانة المسلمين ، وتمت الهدنة التي استراح فيها المسلمون عن الحروب والمعارك التي شغلتهم وأضعفتهم ، وتمكن المسلمون من القيام بدعوة الإسلام في ظل الأمن والسلام ، ودخل في الإسلام كثير من العرب.

فكان ذلك فتحا مبينا ، أو تمهيدا لفتح مكة ، قال الزهري : «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ..» فقد كان عدد المسلمين وقت الصلح ألفا وخمس مائة أو أربع مائة ، ثم صاروا عام فتح مكة بعد الصلح بسنتين عشرة آلاف ، منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. وقال ابن مسعود وجابر والبراء رضي الله عنهم : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وبعد أن نحر النبي صلى الله عليه وسلم هديه حيث أحصر ورجع ، وبعد انصرافه نزل عليه ليلا وهو في الطريق بين مكة والمدينة هذه السورة.

روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : لما أقبلنا من الحديبية عرّسنا [١] فنمنا ، فلم نستيقظ إلا والشمس قد طلعت ، فاستيقظنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم ، فقلنا : أيقظوه ، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : «افعلوا ما كنتم تفعلون ، وكذلك يفعل من نام أو نسي» أي قضاء الصلاة ، قال : وفقدنا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلبناها ، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة ، فأتيته بها ، فركبها ، فبينا نحن نسير ، إذ أتاه الوحي ، قال : وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه ، فلما سرّي عنه أخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾.

---

(١) التعريس : نزول القوم من آخر الليل للنوم والاستراحة ثم الارتحال.

## فضائل صلح الحديبية على النبي ﷺ

﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣)﴾

**الإعراب :**

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ﴾ لام «يغفر» متعلقة بقوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ وهي لام «كي» وهي حرف جر ، وإنما حسن دخولها على الفعل ، لأن «أن» مقدرة بعدها ، ولهذا كان الفعل بعدها منصوبا ، وأن مع الفعل في تقدير الاسم ، فلم تدخل في الحقيقة إلا على اسم.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ تقديره : إلى صراط مستقيم ، فلما حذف حرف الجر ، اتصل الفعل بقوله : ﴿صِراطاً﴾ فنصبه.

**البلاغة :**

﴿ما تَقَدَّمَ وَما تَأَخَّرَ﴾ بينهما طباق.

**المفردات اللغوية :**

﴿فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ الفتح في أصل اللغة : إزالة الأغلاق ، والفتح في باب الجهاد : هو الظفر بالبلد عنوة أو صلحا ، بحرب أو بغيره ، لأن البلد قبل ذلك منغلق ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح : والمراد : قضينا لك بفتح مكة وغيرها في المستقبل عنوة بجهادك ، فتحا بينا ظاهرا. أو هو وعد بفتح مكة ، والتعبير عنه بالماضي للدلالة على تحققه وصيرورته في حكم الواقع.

والمراد بالفتح هنا في رأي الجمهور : هو صلح الحديبية (والحديبية بئر سمي المكان بها) وسمي هذا الصلح فتحا ، لأنه كان سببا لفتح مكة من قبيل المجاز المرسل بإطلاق السبب على المسبب. قال

الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين ، وسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ، ففتحوها.

وقال جماعة : المراد فتح مكة ، وعد الله به قبل حدوثه بطريق البشارة من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين ، قال الزمخشري [1] : هو فتح مكة ، وقد نزلت السورة مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية ، عدة له بالفتح ، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره ، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علوّ شأن المخبر ما لا يخفى ، أه.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ..﴾ يجوز أن يكون الفتح فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سببا أو علة للغفران والثواب ، وكذلك فتح الحديبية وإن لم يكن فيه قتال شديد ، لكن وقع فيه ترام بين القوم بسهام وحجارة أو كونه سببا لفتح مكة ، يكون لما تضمنه من مجاهدة سببا للمغفرة.

فإن لم يجعل الفتح علة للمغفرة ، فيكون ذكر اللام ـ كما قال الزمخشري ـ لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، أي لتحصيل مجموع هذه الأمور كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة أو الحديبية ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين ، وغايات العاجل والآجل.

﴿ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك مما يصح أن يعاتب عليه ، وبما أن الأنبياء معصومون عن الذنوب الكبائر والصغائر ، فالمراد بالذنب هنا : فعل ما هو خلاف الأولى والأفضل بالنسبة لمقام الأنبياء ، فهو من قبيل : حسنات الأبرار سيئات المقرّبين. أو أن المراد ما هو ذنب في نظره العالي ، وإن لم يكن في الواقع كذلك. وفي هذا ترغيب للأمة في الجهاد.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي ويتم بالفتح المذكور إنعامه عليك ، بإعلاء الدين ، واجتماع الملك مع النبوة وفتح البلاد ﴿وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ أي يثبتك بالفتح على الطريق

القويم ، وهو دين الإسلام وتبليغه وإقامة شعائره ﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ أي وينصرك الله بالفتح نصرا فيه عز ومنعة : وهو الذي لا ذلّ بعده ، أو يعز به المنصور وهو الذي لا يناله كل أحد ، فوصف الشخص بالنصر العزيز للمبالغة.

---

(١) تفسير الكشاف : ٣ / ١٣٥

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١):**

﴿**إِنَّا فَتَحْنا**﴾ : أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها.

**نزول الآية (٢):**

﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ..**﴾ : أخرج أحمد والشيخان والترمذي والحاكم عن أنس قال : أنزلت على النبي ﷺ : ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ**﴾ مرجعه من الحديبية ، فقال النبي ﷺ : «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض» ، ثم قرأها عليهم ، فقالوا : هنيئا مريئا لك يا رسول الله ، قد بيّن الله لك ما ذا يفعل بك ، فما ذا يفعل بنا؟ فنزلت : ﴿**لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ**﴾ حتى بلغ ﴿**فَوْزاً عَظِيماً**﴾. وقال ابن عباس : إن اليهود شمتوا بالنبي ﷺ والمسلمين لما نزل قوله : ﴿**وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ**﴾ وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به ، فاشتد ذلك على النبي ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿**إِنَّا فَتَحْنا لَكَ ..**﴾ الآية.

**التفسير والبيان :**

﴿**إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً**﴾ أي إنا فتحنا لك أيها الرسول فتحا ظاهرا لا شك فيه ، وهو صلح الحديبية الذي كان سببا لفتح مكة وانتشار العلم النافع والإيمان ، أو فتح مكة ، وعده الله به قبل حصوله ، وذكره بلفظ الماضي لتحققه ، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين ، كما بينت في تفسير المفردات.

﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ**﴾ أي لكي يجتمع لك مع

المغفرة : تمام النعمة في الفتح ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، فيتحقق لك عز الدارين وسعادة الدنيا والآخرة. والمغفرة تشمل جميع ما فرط منك قبل الرسالة وبعدها من الهفوات التي تعد خلاف الأولى بالنظر إلى مقامك العالي ، وذاك بالنظر لمن سواك لا يسمى ذنبا ، فهو من قبيل ما يسمى : حسنات الأبرار سيئات المقرّبين. وفي هذا تشريف عظيم للنبي ﷺ ، وهو من خصائصه التي لا يشاركه فيها غيره.

أخرج الجماعة (أحمد والأئمة الستة إلا أبا داود) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يقول : كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ : «أفلا أكون عبدا شكورا».

وأخرج أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلّى ، قام حتى تتفطّر رجلاه ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ، أتصنع هذا ، وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ : «يا عائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا».

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً ، وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ أي ولكي يتمم إنعامه عليك بإعلاء شأن الدين وانتشار الإسلام وفتوح البلاد شرقا وغربا ورفع شأنك في الدنيا والآخرة ، وليرشدك إلى الطريق القويم بما يشرعه لك من الشرع العظيم ، ويثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ، ولينصرك الله على أعدائك نصرا غالبا منيعا ، لا يتبعه ذل ، أو هو عزيز المنال فريد المثال.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

يستنبط من الآيات ما يلي :

١ ـ بشّر الله نبيه والمؤمنين بفتح عظيم مبين واضح ، وهو في رأي الجمهور كما

تقدم صلح الحديبية الذي كان سببا لفتح مكة وانتشار العلم النافع والإيمان ، واختلاط الناس مع بعضهم بعضا ، وتكلّم المؤمن مع الكافر. قال موسى بن عقبة : قال رجل عند منصرفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ، لقد صدّونا عن البيت ، فقال النبي ﷺ : «بل هو أعظم الفتوح ، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا». وتساءل الزمخشري بقوله : كيف يكون فتحا ، وقد أحصروا ، فنحروا ، وحلقوا بالحديبية؟ ثم أجاب : كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها ، وتمت ، كانت فتحا مبينا.

وقال الشعبي في قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ قال : هو صلح الحديبية ، لقد أصاب فيها ما لم يصب في غزوة ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدي محلّه ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقد سبق كلام الزهري. والخلاصة : تحقق في هذا الصلح أمور ثلاثة : هي معرفة قوة العدو ومدى كفايته في السلم والسياسة والصلح ، وتمييز المؤمنين من المنافقين ، واختلاط المسلمين بالمشركين الذي أدى إلى الدخول في الإسلام.

وقيل : إنه فتح مكة ، وهو مناسب لآخر السورة التي قبلها ، حيث حث تعالى على الجهاد بالنفس وبالمال والإنفاق في سبيل الله ، ونهى عن طلب الصلح ، فقال : لا تسألوا الصلح من عندكم ، بل اصبروا ، فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه ، كما كان يوم الحديبية.

٢ ـ كانت ثمار الفتح الأعظم أربعة أمور هي :

الأول ـ البراءة المطلقة للنبي ﷺ بمغفرة جميع ذنوبه المتقدمة والمتأخرة التي تعد بمثابة خلاف الأولى والأفضل بالنظر لمقامه الشريف.

الثاني ـ إتمام النعمة عليه بالجمع بين النبوة والملك ، وبين سعادة الدنيا والآخرة.

الثالث ـ الإرشاد والهداية إلى الطريق المستقيم بتبليغ الرسالة والثبات على الحق.

الرابع ـ النصر المؤزر العزيز المنيع الذي لا ذل بعده.

ويمكن القول بالتعبير الحديث : تحقق بهذا الفتح مفهوم سيادة الدولة الإسلامية الداخلية والخارجية ، واستقلالها ، وظهور النبي ﷺ بصفة كونه حاكما وإماما في السياسة والحكم إلى جانب كونه نبيا ، كما تحقق له عز الدنيا والآخرة ، وثباته على دين الحق ونشره في أرجاء الدنيا.

وعقد صلح الحديبية ، كما أنه أثبت صفة الحاكم السياسي للنبي ﷺ على الأمة الإسلامية وعاصمتها المدينة ، أدى إلى اعتراف المشركين بالدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، والإقرار بسيادتها واستقلالها.

## آثار صلح الحديبية في المؤمنين والمنافقين والمشركين

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧)﴾

**الإعراب :**

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ ..﴾ لا بد من تقدير فعل قبله ، فإن من قال ابتداء : لتكرمني ، لا يصح ما لم يقل قبله : جئتك أو نحوه ، والتقدير هنا إما : إنا فتحنا ليدخل ، كما في قوله : ليغفر لك الله ، وإما : أنزل السكينة ليدخل ، أو أمر بالجهاد ، ونحو ذلك.

﴿عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عِنْدَ﴾ حال من الفوز.

**البلاغة :**

﴿يُكَفِّرَ وَيُعَذِّبَ﴾ بينهما طباق.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

**المفردات اللغوية :**

﴿أَنْزَلَ﴾ خلق وأوجد ﴿السَّكِينَةَ﴾ الثبات والطمأنينة مأخوذ؟؟ من السكون ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أوجد السكينة في القلوب في مواضع القلق والاضطراب ﴿لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾ يقينا مع يقينهم ، أو ليزدادوا إيمانا بالشرائع ، ومنها الدين ، مع إيمانهم بالله واليوم الآخر ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر أمرها ، فيسلط بعضها على بعض تارة ، ويسالم فيما بينها تارة أخرى ، كما تقتضي حكمته ، وجنود السموات والأرض : الأسباب السماوية والأرضية ﴿وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ عليما بالمصالح ، حكيما فيما يقدّر ويدبر ، والمعنى : أنه ما يزال متصفا بذلك.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ يغطيها ولا يظهرها ﴿وَكانَ ذلِكَ﴾ أي التكفير للسيئات وإدخال الجنات ﴿عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ أي أن دخول الجنات فوز عظيم عند الله ﴿السَّوْءِ﴾ بفتح السين وضمها ، وهو المساءة ، وظن السوء : اي ظن الأمر السوء ، وهو الا ينصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين ﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دائرة ما يظنونه وينتظرونه بالمؤمنين ، فلا يتخطاهم ، وهو العذاب والهزيمة والشر. والدائرة في الأصل : الخط الدائري المحيط بالمركز ، ثم استعملت في الحادثة المحيطة بالإنسان ، كإحاطة الدائرة بالمركز ، وكثر استعمالها في السوء والمكروه ﴿وَغَضِبَ اللهُ﴾ سخط ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم وطردهم من رحمته طردا نزلوا به إلى أعماق جهنم ﴿وَساءَتْ مَصِيراً﴾ مرجعا. ﴿عَزِيزاً﴾ قويا في ملكه يغلب ولا يغلب ﴿حَكِيماً﴾ في صنعه. والمراد : أنه لم يزل متصفا بالعزة والحكمة.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (٥):**

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : سبق بيانه في الآيات السابقة.

**المناسبة :**

بعد أن أخبر الله تعالى بفضله على نبيه ﷺ وبأنه ينصر رسوله ، أبان بعض أفضاله على المؤمنين من أصحابه وبعض أسباب النصر ، وهو تثبيت أقدام المؤمنين واطمئنان قلوبهم في ميادين المعارك ، وأردفه ببيان سنته في تسليط بعض جنوده على بعض ، ثم رفع معنويات الجند المؤمنين بوعدهم بالخلود في الجنان ، وإيعاد الكافرين والمنافقين المعادين للمؤمنين بالعذاب الشديد ، والغضب عليهم وطردهم من رحمته.

**التفسير والبيان :**

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾ أي إن الله عزّ وجلّ هو الذي خلق وأوجد السكون والطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وانقادوا لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ ، واستعدوا للقتال بإخلاص دون فرار ، لئلا تضطرب نفوسهم في وقت المحنة ، وليزيدهم الله يقينا جديدا على يقينهم الحاصل من قبل. وهذا يسمى حديثا رفع الروح المعنوية للجيش.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بالآية على زيادة الإيمان وتفاضله في

القلوب. ويصح تأويل زيادة الإيمان بأنه الإيمان بالشرائع بعد إيمانهم بالله ، قال ابن عباس : إن أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد ، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة ثم الزكاة ثم الجهاد ثم الحج.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين ، فقال :

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي إن الله تعالى يدبر أمر جنوده في هذا العالم كيف يشاء ، من الملائكة والإنس والجن والشياطين ، والقوى الكونية في السماء والأرض كالزلازل والبراكين والأعاصير والبحار والأنهار ونحوها ، فالله قادر على إرسال ملك واحد ، يبيد الجبال والبلاد ، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد والقتال لحكمة بالغة ومصلحة عالية ، لذا قال تعالى : ﴿وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي كان الله ولا يزال عليما بمصالح خلقه ، حكيما في صنعه وتقديره وتدبيره. وهذا منسجم مع موقف أبي بكر الذي عرف برسوخ الإيمان ، أما عمر بن الخطاب فتساءل عن عدم التكافؤ الظاهري في شروط الصلح ، وقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ ولكن إيمانه لم يتزعزع ، بل إن ذلك يدل على مزيد الإيمان والغيرة على مصالح المسلمين في تقديره ، ثم أنزل الله الطمأنينة على قلبه وقلوب أمثاله ، وشرحها لما رآه النبي ﷺ ، وصدقت الأيام رأيه.

ثم ذكر الله تعالى ما وعد به أهل الإيمان ، فقال :

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، خالِدِينَ فِيها ، وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ، وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ أي يبتلي الله بجنوده من شاء ليدخل المؤمنين ويعذّب غير المؤمنين ، أو أنزل السكينة أو إنا فتحنا ليترتب عليه دخول المؤمنين والمؤمنات جنات (بساتين) تجري الأنهار من

تحت قصورها ، وهم ماكثون فيها أبدا ، ويستر عنهم خطاياهم وذنوبهم ولا يظهرها ولا يعذّبهم بها ، بل يعفو ويصفح ويستر ويرحم وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيّئاتهم عند الله وفي حكمه فوزا عظيما كبيرا ونجاة من كل غمّ ، وظفرا بكل مطلوب ، وذلك كقوله جلّ وعلا : ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، فَقَدْ فازَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٨٥]. وذكر تكفير السيئات بعد الإدخال في الجنة ، مع أنه يكون قبله ، لأن الواو لا تقتضي الترتيب ، ولأن الأصل الإدخال ، والتكفير تابع.

عن جابر رضي الله عنه قال : قال النّبي صلّى الله عليه وسلّم : «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة».

وقد نصّ الله تعالى على المؤمنات هنا مع أن أغلب الآيات يكون فيها خطاب الرجال شاملا للنساء ، لئلا يتوهم أحد أن النساء لا يدخلن الجنات ، لأن المرأة لا جهاد عليها. وهكذا في كل موضع يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به ، مع كون المؤمنات يشتركن معهم ، ذكرهنّ الله صريحا (١).

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي وليعذّب أهل النفاق وأهل الشرك بالهمّ والغمّ بسبب ما يشاهدونه من انتشار الإسلام وانتصار المسلمين وقهر المخالفين ، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر في الدنيا ، وبعذاب جهنم في الآخرة ، لظنهم السيء بالله وحكمه وهو أن النّبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه يغلبون ويبادون ، وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام ، كما حكى تعالى عنهم في آية أخرى وهي : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾ [الفتح ٤٨ / ١٢]. وإنما قدم المنافقين على المشركين ، لأن ضررهم أشد ، وخطرهم أعظم.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ٨٢

﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَعَنَهُمْ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً﴾ أي أن ما يظنونه بالمؤمنين دائر عليهم لا خروج لهم منه ، واقع بهم من قتل وأسر ونحوهما ، وسخط الله عليهم ، وأعدّ لهم جهنم يصلونها ، وساءت مرجعا ومنزلا يصيرون إليه ، وبذلك جمع بين جزائهم وحالهم في الدنيا وفي العقبى.

ثم قال تعالى مؤكدا لقدرته على الانتقام من أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين :

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي لله في السموات والأرض جنود لا حصر لها من الملائكة والإنس والجنّ والشياطين وغيرها من كل ما فيه قوة ومقدرة على قهر أعدائه ، وكان الله وما يزال قويا لا يغلب ، ولا يردّ بأسه ، حكيما في صنعه وتدبيره لخلقه.

وفائدة إعادة هذه الآية بيان أن لله جنود الرحمة وجنود العذاب ، فذكرهم أولا لبيان الرحمة بالمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ ثم ذكرهم ثانيا لبيان إنزال العذاب بالكافرين. وعبّر أولا بقوله : ﴿وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ ليتناسب مع إنزال الرحمة ، ثم عبّر بقوله : ﴿وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ للإشارة إلى شدة العذاب ، وذكر العزّة يتناسب مع العقاب والتهديد ، وذكر العلم يتلاءم مع التدبير التام لأمر الخلق وتوزيع الرحمة ، وأن إنزال السكينة وزيادة الإيمان وترتيب الفتح على ذلك ، كله ثابت في علم الله ، منسجم مع الحكمة. وذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ، لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة ، فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ، ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله : ﴿وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ وذكر الجنود بعد تعذيب الكفار ، وإعداد جهنم للدلالة على كون الغضب على الكفار والإبعاد والطرد من الرحمة أولا ، فيدخلون جهنم ، ثم يسلّط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله تعالى.

روي أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبيّ : أيظنّ محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدوّ ، فأين فارس والروم؟ فبيّن الله عزّ وجلّ أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

كان من فضائل صلح الحديبية وآثاره أربعة أشياء في حقّ كل من النبي ﷺ والمؤمنين والكفار.

أما فضائله الأربعة في حقّ النّبي ﷺ فهي كما تقدّم : مغفرة الذنوب ، واجتماع الملك والنّبوة ، والهداية إلى الصراط المستقيم ، والعزّة والمنعة.

وأما أفضاله الإلهية الأربعة في حقّ المؤمنين أصحاب النّبي ﷺ فهي الطمأنينة والسكينة ، وزيادة الإيمان ، ودخول الجنان ، وتكفير السيّئات.

وأما آثاره الأربعة في حقّ أهل النّفاق وأهل الشرك ، فهي العذاب الأليم ، وغضب الله ، واللعنة أو الطرد من الرحمة ، ودخول جهنم.

ودلّ قوله تعالى : ﴿لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾ على أن الإيمان يزيد وينقص.

وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ في الموضعين تخويف وتهديد ، فلو أراد تعالى إهلاك المنافقين والمشركين ، لم يعجزه ذلك ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى.

## وظائف النّبي ﷺ وفائدة بعثته ومعنى بيعته في الحديبية

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠)﴾

**الإعراب :**

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ هذه المنصوبات الثلاثة منصوبة على الحال من كاف ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ وهو العامل فيها ، كما عمل في صاحب الحال.

﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حال أو استئناف كلام جديد ، وهو مؤكد قوله : ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ على طريق التخييل والتمثيل ، ولا جارحة هناك.

**البلاغة :**

بين قوله : ﴿مُبَشِّراً﴾ و ﴿نَذِيراً﴾ وبين ﴿نَكَثَ﴾ و ﴿أَوْفَى﴾ طباق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ استعارة تصريحية تبعية ، شبّه المعاهدة على الجهاد بالأنفس بدفع السلع مقابل الأموال ، وأستعير اسم المشبّه به للمشبّه ، واشتقّ من البيع يبايعون ، بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله ، فوجه الشّبه اشتمال كل على المبادلة.

﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استعارة مكنية ، شبه اطّلاع الله على مبايعتهم بملك وضع يده على أيدي رعيته ، وطوى ذكر المشبّه ، ورمز بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية ، أي أن الله شبّه بالمبايع ، وذكر اليد قرينة ، وإسنادها له تخييل ، وفي ذكر اليد مع أيدي الناس مشاكلة.

**المفردات اللغوية :**

﴿شَاهِداً﴾ على أمتك في القيامة بتبليغ الرسالة ، لقوله تعالى : ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة ٢ / ١٤٣]. ﴿وَمُبَشِّراً﴾ بالثواب والجنة لمن أطاعك. ﴿وَنَذِيراً﴾ ومنذرا مخوفا

بالعقاب والنار لمن عصاك. ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ الخطاب للنّبي ﷺ والأمة ، وقرئ بالياء ليؤمنوا أي الناس وكذا الفعلان بعده. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تنصروه وتؤيّدوه وتقوّوه بتقوية دينه ورسوله. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظموه من التوقير : وهو الاحترام والتعظيم ، والضمير فيهما لله تعالى ـ وهو الأولى ـ أو لرسوله ﷺ . ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تنزّهوا الله عما لا يليق به من الشرك والولد ، من التسبيح ، أو تصلوا له من السّبحة : وهي صلاة التطوع. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ غدوة وعشيا ، أي أول النهار وآخره ، أو دائما.

﴿يُبايِعُونَكَ﴾ بيعة الرضوان يوم الحديبية ، بايعوه على الموت في نصرته والدفاع عنه ، أو على ألا يفرّوا من قريش ، وأصل المبايعة أو البيع : مبادلة المال بالمال ، ثم أطلق هنا على المعاهدة على الثبات في محاربة الكفار في مقابل ضمان الجنة لهم. وكانت المبايعة تحت شجرة بالحديبية (وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة حوالي مرحلة ، وهي في حدود الحرم). ﴿إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ لأن الله هو المقصود بالبيعة ، مثل : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء ٤ / ٨٠] أي أن المقصود من بيعة الرسول ﷺ وطاعته طاعة الله وامتثال أوامره ، والمراد بآية ﴿يُبايِعُونَ اللهَ﴾ : أي صفقتهم إنما يمضيها ويمنح الثمن فيها الله عزوجل ، وأن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت.

﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ مؤكد معنى البيعة ، والمراد أنه تعالى مطّلع على مبايعتهم ، فيجازيهم عليها ، ونصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه. واستعمال اليد هنا بمعنى الغلبة والنصرة ونعمة الهداية ، فهو مجاز ، والله تعالى منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام. ويعتقد السلف بوجود يد لله تعالى ، لا كالأيدي ، لأنه ليس كمثله شيء ، وهذا أسلم ، وإن كان المجاز أولى عقلا وأحكم رأيا ، ونفوّض الأمر لله مع الإيمان بما ورد في القرآن والسّنّة الصحيحة.

﴿نَكَثَ﴾ نقض العهد ، وضدّه : أوفى بالعهد ووفّى به : إذا أتمّه. ﴿فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ﴾ يرجع وبال وضرر نقضه عليه. ﴿وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ﴾ وفّى في مبايعته ، وقرأ الجمهور بكسر الهاء ، وقراءة حفص بضم الهاء ، لأنها هاء «هو» وهي مضمومة ، فاستصحب ذلك ، كما في «له ، وضربه». ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ هو الجنة.

قال جابر بن عبد الله : بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت ، وعلى ألا نفرّ ، فما نكث أحد منّا البيعة إلا جدّ بن قيس ، وكان منافقا اختبأ تحت إبط ناقته ، ولم يثر مع القوم.

**المناسبة :**

بعد بيان فضائل الفتح ـ صلح الحديبية على النّبي ﷺ وعلى أصحابه

المؤمنين ، أعقبه ببيان خصائصهما ، فذكر وظائف الرسول ﷺ الثلاث (وفي الأحزاب : الخمس) ومدحه وأبان فائدة بعثته ليرتب عليه ذكر البيعة ، فذكر بيعة الرضوان بين النّبي ﷺ والمؤمنين ، وأشاد بإخلاص المبايعين ونصرة دين الله تعالى ، وأوضح جزاء ناقض العهد ، ومن أوفى بالعهد.

**التفسير والبيان :**

﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ أي إننا أرسلناك يا محمد رسولا شاهدا تشهد على الخلق وعلى أمتك تبليغ الرسالة ، ومبشّرا بالجنة المؤمنين المطيعين ، ومنذرا مخوّفا بالنار الكافرين العصاة.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُعَزِّرُوهُ ، وَتُوَقِّرُوهُ ، وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي إنا أرسلناك لتؤمنوا بالله ورسوله. والخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته. وتقووا وتؤيدوا الله بنصرة دينه ورسوله ، وتعظّموه ، وتنزّهوا الله عما لا يليق به من الشرك والولد والصاحبة والتّشبيه بالمخلوقات ، على الدوام ، أو في الغداة والعشي ، أي أول النهار وآخره ، والمراد صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر ، كما قال ابن عباس. والمراد بتعزير الله : تعزير دينه ورسوله ﷺ.

قال الزمخشري : والضمائر ـ في الأفعال الثلاثة غير الأول ـ لله عزوجل ، ومن فرّق الضمائر فقد أبعد.

وبعد بيان أنه مرسل ، قال الله عزوجل تشريفا وتعظيما وتكريما ليبيّن أن من بايعه فقد بايع الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي إن الذين يبايعونك أيها النّبي بيعة الرضوان بالحديبية تحت الشجرة على قتال قريش ، إنما يبايعون الله ، أي يطيعونه ويعاهدونه على امتثال أوامره ، لأنهم

باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، ولأن طاعة الرسول ﷺ هي طاعة الله تعالى في الحقيقة.

ثم أكّد هذا المعنى بقوله : ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه على السواء ، وأن الله هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، وهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ ، وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة ٩ / ١١١]. وأن نعمة الله عليهم بالهداية فوق إجابة البيعة ، كما قال تعالى : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ : لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ﴾ [الحجرات ٤٩ / ١٧]. والخلاصة :أن قوله : ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استئناف مؤكد للكلام السابق من أن مبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله تعالى.

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ ، فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ أي يتفرّع عن البيعة مع الله أنه من نقض العهد مع النّبي ﷺ ، فإنما وبال ذلك وضرره على الناقض نفسه ، لا يجاوزه إلى غيره.

ومن وفّى بالعهد وثبت عليه ، ونفّذ ما عاهد عليه الرّسول ﷺ في البيعة ، فسيؤتيه الله ثوابا جزيلا ، ويدخله الجنة ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح ٤٨ / ١٨].

وهذه البيعة كما تقدّم هي بيعة الرّضوان التي كانت تحت شجرة سمرة بالحديبية ، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ على الأصح ألفا وأربع مائة ، وقيل : ثلاث مائة أو خمس مائة.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن مهام النّبي ﷺ المذكورة هنا هي ثلاث :

أ ـ الشهادة على الخلق وعلى أمته بالبلاغ ، فهو يشهد على الناس بأن رسولهم وأنبياءهم بلغوهم رسالة الله بما أخبره الله به في القرآن ، ويشهد على أمته بتبليغهم الرسالة الإلهية ، وقد أعلن ذلك في حجة الوداع : «اللهم قد بلّغت ، اللهم فاشهد».

ب ـ وتبشير من أطاعه بالجنة.

ج ـ وإنذار من عصاه بالنار.

والمذكور في سورة الأحزاب خمس : ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً ، وَمُبَشِّراً ، وَنَذِيراً ، وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِراجاً مُنِيراً﴾ [٤٥ ـ ٤٦] وهذا لأن المقام في الأحزاب مقام ذكر الرسول ﷺ ، لأن أكثر السورة في ذكر الرسول ﷺ وأحواله ، ففصل في مهامه ، واقتصر في سورة الفتح على الثلاث المتقدمة ، ثم ذكر بعدئذ ما يدل على كونه داعيا وكونه سراجا في قوله : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ ..﴾.

٢ ـ إن الغاية من إرسال النبي ﷺ هو الوصول إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، ونصرة دين الله ورسوله ، وتعظيم الله وإجلاله ، وتسبيحه بالقول وتنزيهه من كل قبيح على الدوام ، أو في أول النهار وآخره ، أو فعل. الصلاة التي فيها التسبيح.

٣ ـ إن الذين بايعوا النبي ﷺ بالحديبية على قتال قريش ومناصرته فقد بايعوا الله تعالى ، فبيعتهم للنبي ﷺ إنما هي بيعة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء ٤ / ٨٠].

والله تعالى مطّلع على بيعتهم ومجازيهم خيرا ، فيده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء ، ويديه في المنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة ، ونعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة ، وقوة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم.

ومذهب السلف رضوان الله عليهم : الإيمان الظاهري بما يسمى يد الله ، مع تنزيه المولى عن مشابهة الحوادث وصفات الأجسام وإثبات الجوارح (الأعضاء) له ، ويقولون : إن معرفة حقيقة اليد هنا فرع عن معرفة حقيقة الذات ، ولن يستطيع المخلوق ذلك ، فالأولى التفويض في معرفة الحقيقة لله تعالى ، مع الإيمان الكامل بكل ما جاء في القرآن والسّنّة الثابتة. ومذهب الخلف : تأويل اليد بالقدرة أو القوة أو النصرة أو النعمة ، على طريق الاستعارة بالكناية ، كما تقدّم في البلاغة.

٤ ـ إن الناكث ناقض العهد بعد البيعة يرجع ضرر النكث والنقض عليه ، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب.

٥ ـ وإن من أوفى بعهده الذي عاهد الله تعالى عليه في البيعة ، سيمنحه الله تعالى في الآخرة ثوابا جزيلا ، ويدخله الجنة.

## أحوال المتخلفين عن الحديبية

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ

**ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (١٧)﴾**

**الإعراب :**

﴿**بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ أَنْ**﴾ مخففة من الثقيلة ، أي ظننتم أنهم لا يرجعون.

﴿**تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ تُقاتِلُونَهُمْ**﴾ : حال مقدرة ، و ﴿**يُسْلِمُونَ**﴾ : إما معطوف على ﴿**تُقاتِلُونَهُمْ**﴾ أو مستأنف ، تقديره : أو هم يسلمون. وقرئ : أو يسلموا : بتقدير أن. و «أو» بمعنى «إلا» وقيل بمعنى «حتى».

**البلاغة :**

بين الضر والنفع في قوله : ﴿**إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً**﴾ طباق.

﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾ إطناب بتكرار نفي الحرج والإثم عن أصحاب الأعذار للتأكيد.

**المفردات اللغوية :**

﴿**الْمُخَلَّفُونَ**﴾ المتخلفون ، جمع مخلّف : وهو المتروك في المكان خلف الخارجين عنه ، والمراد بهم هنا قبائل حول المدينة من الأعراب هم أسلم وجهينة ومزينة وغفار وأشجع والدّيل ، استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحديبية ليخرجوا معه إلى مكة للعمرة ، فتخلفوا ، واعتذروا بالشغل في أموالهم وأهليهم ، وإنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش إن صدّوهم. ﴿**مِنَ الْأَعْرابِ**﴾ قبائل من الأعراب سكان البوادي حول المدينة. ﴿**شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا**﴾ عن الخروج معك ، إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالنا ، وقرئ بالتشديد ﴿**شَغَّلَتْنا**﴾ للتكثير ، وهذا كذب منهم. ﴿**فَاسْتَغْفِرْ لَنا**﴾ الله من التخلف أو ترك الخروج معك ، وطلب الاستغفار خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون ، ومصانعة من غير توبة ولا ندم.

﴿**يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ هذا تكذيب من الله تعالى لهم في الاعتذار والاستغفار ، فهم يطلبون الاستغفار وغيره في الظاهر ، وهم كاذبون في اعتذارهم. ﴿**فَمَنْ يَمْلِكُ؟**﴾ استفهام بمعنى النفي ، أي لا أحد يمنعكم من مشيئته وقضائه ، والملك : إمساك الشيء بقوة وضبط. ﴿**ضَرًّا**﴾ بفتح الضاد وضمها ، والضر : الضرر اللاحق بالأهل والمال والنفس ، كقتل وهزيمة وهزال وسوء حال وضياع. ﴿**نَفْعاً**﴾ النفع : ما يفيد من حفظ النفس والمال والأهل. ﴿**بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾ أي كان ولم يزل متصفا بذلك ، فهو يعلم تخلفكم وقصدكم فيه ، و ﴿**بَلْ**﴾ للانتقال من غرض إلى آخر.

﴿**بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً**﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم. و ﴿**يَنْقَلِبَ**﴾ يرجع ، والأهلون : العشائر وذوو القرابة ، جمع أهل ، وقد يجمع على أهلات ، مثل أرضات على أن أصله أهلة. ﴿**وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ**﴾ الظن السيء ، وهو الظن المذكور. ﴿**بُوراً**﴾ جمع بائر ، أي هلكى أو هالكين عند الله بهذا الظن وفساد العقيدة وسوء النية. ﴿**فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً**﴾ وضع الكافرين موضع الضمير إيذانا بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، فهو كافر مستوجب للسعير بكفره ، والسعير : نار ملتهبة شديدة ، وتنكيرها للتهويل ، أو لأنها نار مخصوصة.

﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**﴾ يدبره كيف يشاء. ﴿**يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ**﴾ إذ لا وجوب عليه. ﴿**وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**﴾ أي ولم يزل متصفا بذلك ، والغفران والرحمة من ذاته ، جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة : «سبقت رحمتي غضبي».

﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ**﴾ المذكورون. ﴿**مَغانِمَ**﴾ هي مغانم خيبر ، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة ، من سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم هاجم خيبر بمن شهد الحديبية بسبب اعتداءات اليهود المتكررة ، ففتحها وغنم أموالا كثيرة ، ثم خصها بأهل

الحديبية. ﴿ذَرُونا﴾ اتركونا. ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ لنأخذ منها. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ﴾ ويقرأ: كلم لله، أي يريدون أن يغيروا كلام الله، وهو وعده لأهل الحديبية أن يعوضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر، فهم يريدون الشركة في المغانم دون أن ينصروا دين الله تعالى.

﴿لَنْ تَتَّبِعُونا﴾ نفي في معنى النهي. ﴿كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي مثل ذلك قال الله من قبل استعدادهم للخروج إلى خيبر، وقبل عودنا. ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنا﴾ أي تحسدوننا أن نصيب معكم شيئا من الغنائم. ﴿لا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ إلا فهما قليلا وهو فهمهم لأمور الدنيا دون الدين. ومعنى الإضراب الأول. ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنا﴾ رد منهم أن يكون حكم الله ألا يتبعوهم، وإثبات الحسد، والثاني: ﴿بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ﴾ رد من الله تعالى لذلك، وإثبات لجهلهم بأمور الدين.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا الوصف مبالغة في الذم وإشعارا بشناعة التخلف. ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب بأس شديد أي قوة في القتال، وهم بنو حنيفة أصحاب اليمامة، أو غيرهم من ارتدوا بعد رسول الله ﷺ، أو فارس والروم. ولا دليل على التعيين. ﴿تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أو الإسلام، لا غير.

﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ في قتالهم ﴿يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عن الحديبية. ﴿أَلِيماً﴾ مؤلما، لعظم جرمكم.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ..﴾ أي إثم وذنب في ترك الجهاد، ويلاحظ أنه تعالى لما أوعد على التخلف، نفى الحرج عن أصحاب الأعذار (الأعمى والأعرج والمريض) استثناء لهم من الوعيد.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ فصّل الوعد وأجمل في الوعيد مبالغة في الوعد لسبق رحمته. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً﴾ هذا تعميم بعد تفصيل الوعد، إذ الترهيب هنا أنفع من الترغيب.

**سبب نزول الآية (١٧):**

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى ..﴾: قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ..﴾ الآية، قال أهل الزّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ..﴾.

**المناسبة :**

بعد بيان حال المنافقين ، بيّن الله تعالى حال المتخلفين ، وهم قوم من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، لظنهم أنه يهزم ، وقد ذكر تعالى أحوالا ثلاثا لهم : هي الاعتذار عن التخلف عن الحديبية بانشغالهم في الأموال والأهل ، وطلب المشاركة في وقعة خيبر وغنائمها ، ودعوتهم إلى قتال قوم أولي بأس شديد ، ثم استثنى تعالى أصحاب الأعذار لترك الجهاد.

**التفسير والبيان :**

الاعتذار عن التخلف : ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ : شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا ، فَاسْتَغْفِرْ لَنا﴾ أخبر تعالى رسوله ﷺ أثناء عودته من الحديبية بما يعتذر به المخلفون الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم ، وتركوا السير مع رسول الله ﷺ حين خرج إلى مكة معتمرا عام الحديبية ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة وهم أسلم وجهينة ومزينة وغفار وأشجع والدّيل ، وإنما قال : ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيه ﷺ . والمخلّف : المتروك. والآية من إعجاز القرآن ، لإخباره عن الغيب ، وقد وقع الأمر مطابقا لخبر القرآن.

ولقد اعتذروا بشغلهم بالأموال والأهل ، وسألوا أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ ، ليغفر الله لهم ما وقع منهم من التخلف عنه بسبب الانشغال ، لا بسبب العصيان ومخالفة الأمر. وذلك في الحقيقة قول منهم ، لا على سبيل الاعتقاد ، بل على وجه التقية والمصانعة ، لذا رد الله عليهم وكذّبهم بقوله :

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي إنهم ليسوا صادقين في الاعتذار ، فهم يتصنعون ذلك بظواهر ألسنتهم ، أما في أعماق قلوبهم فهم يعتقدون أن محمدا ﷺ وصحبه سينهزمون ، ويخافون من مقاتلة قريش وثقيف

وكنانة والقبائل المجاورة لمكة ، وهم الأحابيش ، بدليل قوله تعالى : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾.

﴿قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً ، بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ أي قل أيها النبي لهم : فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير أو شر؟ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم ، وإن صانعتمونا ونافقتمونا ، سواء بإنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل ، أو بتحقيق النفع لكم من نصر وغنيمة.

بل في الحقيقة ، إن تخلفكم ليس لما زعمتم ، فإن الله خبير بجميع ما تعملونه من الأعمال ، وقد علم أن تخلفكم لم يكن للانشغال بالمال والأهل ، بل للشك والنفاق والخذلان وسوء الاعتقاد والخوف من قريش وأعوانهم وما خطر لكم من الظنون الفاسدة ، الناشئة عن عدم الثقة بالله تعالى ، ثم افتضح شأنهم ، فقال تعالى :

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص ، بل تخلف نفاق ، وقد اعتقدتم أن العدو يقتل ويستأصل المؤمنين نهائيا ، فلا يرجع أحد منهم إلى أهله إلى الأبد ، وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم ، فقبلتموه ، وظننتم أن الله سبحانه لا ينصر رسوله ﷺ ، وكنتم قوما هالكين عند الله تعالى ، وصرتم بما فعلتم لا تصلحون لشيء من الخير ، تستحقون شديد العقاب.

ثم أخبر الله تعالى عن عقاب الكفار ، فقال :

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً﴾ أي من لم يصدّق بالله تعالى ورسوله ﷺ ، ولم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله ، كما

صنع هؤلاء المخلفون ، فجزاؤهم ما أعده الله لهم من عذاب السعير والنار الشديدة الالتهاب جزاء الكفر.

ثم أبان تعالى مدى قدرته الشاملة لكل شيء ، فقال :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي لله سلطة التصرف المطلق في أهل السموات والأرض ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، لا رادّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه.

يغفر لمن يشاء أن يغفر له ذنوبه ، ويعذب بالنار من يريد أن يعذبه على كفره ومعصيته ، والله ما يزال غفورا لذنوب عباده التائبين ، رحيما يرحم جميع خلقه ، ويخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده.

وفي هذا حث عام على الإصلاح ، وترغيب لهؤلاء المتخلفين وأمثالهم من المقصرين بالتوبة والإنابة والرجوع إلى أمر الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، وفي الآية أيضا بيان واضح أنه تعالى يغفر للمبايعين بمشيئته ، ويعذب الآخرين بمشيئته ، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل ، وأتم وأكمل ، وأن عظيم الملك يكون أجره في غاية السعة ، وعذابه وعقوبته في غاية النكال والألم.

طلب المشاركة في وقعة خيبر :

ثم أوضح الله تعالى كذب المتخلفين في ادعائهم الانشغال بالمال والأهل ، بدليل طلبهم السير مع النبي ﷺ إلى خيبر ، لما توقعوا من مغانم يأخذونها ، فقال :

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها : ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي سيقول هؤلاء الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ، إذا انطلقتم أيها المسلمون إلى مغانم خيبر لتأخذوها وتحوزوها : اتركونا نتبعكم في

السير ، ونشهد معكم غزو خيبر ، لأنهم علموا أن الله وعد المسلمين فتح خيبر وتخصيص من شهد الحديبية بغنائمها.

والخلاصة : أنه لو كان اعتذارهم بالانشغال صحيحا ، لما طلبوا السير مع النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى خيبر.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ﴾ أي يريدون تبديل وعود الله لأهل الحديبية بتخصيصهم بمغانم خيبر ، فقد أمر الله رسوله ألا يسير معه إلى خيبر أحد من غير أهل الحديبية ، ووعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعا ولا قدرا.

ثم صدر قرار المنع صراحة ، فقال تعالى :

﴿قُلْ : لَنْ تَتَّبِعُونا ، كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قل لهم أيها الرسول صراحة : لن تسيروا معنا في خيبر ، وهكذا أخبرنا الله تعالى من قبل رجوعنا من الحديبية ووصولنا إلى المدينة : أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ، ليس لغيرهم فيها نصيب. والخلاصة : وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم.

وهذا نحو قوله تعالى : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ ، فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ، فَقُلْ : لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً ، وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ؟؟ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ﴾ [التوبة ٩ / ٨٣] (١).

ثم أخبر الله تعالى عن ردهم على ذلك بقوله :

﴿فَسَيَقُولُونَ : بَلْ تَحْسُدُونَنا﴾ أي فسيقول المخلفون عند سماع هذا القول :

---

(١) وهذا لمجرد إيراد التشابه في الحكم ، وإن كانت هذه الآية في براءة نزلت في غزوة تبوك ، وهي متأخرة عن عمرة الحديبية.

بل إنكم تحسدوننا في المشاركة في الغنيمة ، والحسد لا غيره هو الذي يمنعكم من الإذن لنا في الخروج معكم.

فأجابهم الله تعالى بقوله :

﴿بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي ليس الأمر كما زعموا أمر حسد منكم على أخذهم شيئا من الغنيمة ، بل لأنهم لا يفهمون إلا فهما قليلا ، والمراد : لا يفهمون شيئا من أمور الدين وهو جعل القتال لله تعالى ، وإصلاح النية له ، وصدق الإيمان به ، وإن كانوا يعلمون ويفهمون أمور الدنيا.

وهذا دليل على أن محاولتهم نقض حكم الله تعالى ، واتهام المؤمنين بالحسد صادر عن جهل وقلة تدبر ووعي ، وإنهم قوم ماديون لا يعرفون إلا الدنيا.

وقد دعوتهم إلى القتال باستثناء أصحاب الأعذار إن كانوا صادقين في طلب المشاركة مع المؤمنين.

ثم أبان الله تعالى أن ميدان القتال متسع ما يزال مفتوحا إن أرادوا إثبات إخلاصهم مع النبي ﷺ والذين آمنوا ، فقال :

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ : سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المخلفين من الأعراب إن أرادوا الانتماء إلى الصف الإسلامي بحق وصدق : ستندبون إلى قتال قوم أولي شدة وصلابة ونجدة ، تخيرونهم بين أحد أمرين : إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما ، وهذا حكم الكفار الذين لا عهد بينهم وبين المسلمين بعقد الجزية ونحوها ، ويشمل مشركي العرب والمرتدين وغير العرب.

أما المفسرون فذكروا أربعة أقوال في تعيين أولئك القوم وهي :

أ ـ هوازن وغطفان يوم حنين ، وكان قتالهم بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة.

ب ـ ثقيف.

ج ـ بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة ، وكان قتالهم بعد ذلك أيام أبي بكر الصديق ﷺ . وأكثر المفسرين على أن القوم هم بنو حنيفة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر ، لأنه تعالى قال : ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ ومشركو العرب والمرتدون هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية عند أبي حنيفة. وأما الشافعي فعنده لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب.

د ـ أهل فارس والروم وأهل الأوثان.

قال ابن جرير : إنه لم يقم دليل من نقل ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم ، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين.

ثم وعدهم الله تعالى بالثواب إن أطاعوا ، وأوعدهم بالعذاب إن عصوا ، فقال : ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ، يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ أي فإن تستجيبوا ، وتنفروا في الجهاد ، وتؤدوا ما عليكم ، يعطكم الله ثوابا حسنا ، وهو الغنيمة في الدنيا ، والجنة في الآخرة.

وإن تعرضوا كما أعرضتم من قبل زمن الحديبية ، حيث دعيتم فتخلفتم ، يعذبكم عذابا شديدا مؤلما بالقتل والأسر والقهر في الدنيا ، وبعذاب النار في الآخرة ، لعظم جرمكم.

ثم استثنى الله تعالى أصحاب الأعذار من فرضية الجهاد ومن الوعيد على التخلف ، فقال :

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار وهي العمى والعرج المستمر

والمرض المزمن ، أو الطارئ أياما حتى يبرأ إثم وذنب في التخلف عن الجهاد ، لعدم استطاعتهم. وقدم الأعمى على الأعرج ، لأن عذره دائم مستمر.

قال مقاتل : هم أهل الزمانة الذين تخلفوا عن الحديبية ، وقد عذرهم.

ثم رغّب سبحانه وتعالى في الجهاد وطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، فقال :

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ، يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً﴾ أي يطع الله تعالى ورسوله ﷺ بإخلاص ، فيجاهد مع المؤمنين لإعلاء كلمة الله تعالى والدفاع عن دينه ، يدخله الله في الآخرة جنات تجري من تحت قصورها الأنهار تتدفق عذوبة وتتلألأ بياضا ، ومن يعرض عن الطاعة ، ويعص الله تعالى ورسوله ﷺ ، فيتخلف عن القتال ، يعذبه الله عذابا شديد الألم ، في الدنيا بالمذلة ، وفي الآخرة بالنار.

وبالرغم من أن طاعة كل واحد من الله والرسول طاعة الآخر ، فإنه جمع بينهما بيانا لطاعة الله غير المرئي وغير المسموع كلامه ، فقال : طاعته عزّ وجلّ في طاعة رسوله ﷺ ، وكلامه سبحانه يسمع من رسوله ﷺ .

## فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات الإخبار عن أحوال ثلاث للمتخلفين :

الحال الأولى ـ اعتذارهم بالأموال والأهل : وهذا يدل على الأمور التالية :

١ ـ إن اعتذار جماعة من الأعراب كانوا حول المدينة كان بعذر سطحي واه هو الانشغال بالأموال والأهل ، أي ليس لهم من يقوم بهم ، بعد أن استنفرهم النبي ﷺ ليخرجوا معه حذرا من قريش ، وأحرم بعمرة وساق معه الهدي (شاة ونحوها) ليعلم الناس أنه لا يريد حربا ، فتثاقلوا عنه واعتلوا بالشغل ، فنزلت الآية في شأنهم ، وسموا بالمخلّفين أي المتروكين.

وأحسوا بضعف موقفهم ، فقالوا لرسول الله ﷺ : ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يعني فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة ، فاستغفر لنا واعف عنا في أمر الخروج.

وهذا إن قبل مع الناس فلا يقبل مع الله تعالى المطلع على حقائق الأمور ، لذا دل هذا الموقف على قصور النظر ، فضلا عن سوء الاعتقاد والجهل.

٢ . لقد فضحهم الله تعالى أيضا ، وكذبهم بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وهذا هو النفاق المحض ، فهم قوم منافقون ، ينطبق عليهم العذاب المذكور في الآية السابقة : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ ..﴾ [٦].

٣ . وردّ الله تعالى عليهم أيضا حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضّر ، ويعجل لهم النفع. والضّر : اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال. والنفع : ضد الضر.

ومضمون الرد بإيجاز : لن يستطيع أحد دفع ما أراده الله في عباده من خير أو شر.

٤ . وزيّف الله تعالى مدّعاهم ، وافتضح شأنهم ، وأبان سوء ظنهم حين قالوا : إن محمدا وأصحابه أكلة رأس (١) لا يرجعون ، وزعموا أن الرسول والمؤمنين سيقتلون ويستأصلون ، ولن يعودوا إلى أهليهم أبدا ، لأنهم قالوا : أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة ، فكيف يكون حالهم إذا دخل المسلمون بلادهم ، وأحاطوا بهم؟!

وزيّن الشيطان النفاق في قلوبهم ، وظنوا ظنا سيئا أن الله تعالى لا ينصر رسوله ﷺ ، وبذلك جمعوا بين النفاق وسوء الظن وسوء التقدير.

---

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد.

لكل هذا أخبر الله تعالى عن حكمه فيهم وهو أنهم قوم بور ، أي هلكى فاسدون لا يصلحون لشيء من الخير.

٥ . ثم أوعدهم الله تعالى بعذاب السعير ، وأبان أنهم كفروا بالنفاق.

٦ . وأخبر تعالى عن قدرته الفائقة بتصرفه في أهل السموات والأرض ، وأنه غني عن عباده ، وإنما ابتلاهم بالتكليف بالجهاد وغيره ليثيب من آمن ، ويعاقب من كفر وعصى.

الحال الثانية . طلب المسير إلى خيبر : وهذا يشير إلى ما يأتي :

١ . إنهم قوم أغبياء جهلة كذبة : فكيف اعتذروا سابقا بالانشغال بالأموال والأهل ، والآن يطلبون المشاركة في السير إلى خيبر؟!

٢ . إنهم قوم ماديون : يفرون من مواطن الخوف والخطر واحتمال القتال ، ويحرصون على أخذ غنائم الحرب حينما يحسون بضعف الأعداء وهم يهود خيبر.

٣ . إنهم قوم كفرة : يريدون أن يغيروا كلام الله وحكمه ، وقدره ووعده الذي وعد لأهل الحديبية ، لأن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر ، عوضا عن فتح مكة إذا رجعوا من الحديبية على صلح.

٤ . إنهم جماعة يستحقون النبذ والعزل المدني : لذا حكم الله تعالى بمنعهم من الخروج مع المسلمين إلى خيبر.

٥ . إنهم مرضى القلوب لانطوائها على الحقد والحسد ، ومن حقد على الآخرين أو حسدهم ظن أن الآخرين مثله ، لذا حاولوا اتهام المسلمين زورا وبهتانا بأنهم يحسدونهم على أخذ شيء من الغنائم. وربما فهموا ذلك من قول رسول الله ﷺ : «إن خرجتم لم أمنعكم ، إلا أنه لا سهم لكم» فقالوا : هذا حسد ،

فقال المسلمون : قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه ، وهو قوله تعالى : ﴿فَسَيَقُولُونَ : بَلْ تَحْسُدُونَنا﴾.

٦ . إنهم قوم لا يفهمون : فلا يعلمون من الدين شيئا أو قليلا بسبب ترك القتال ، وإن كانوا يعلمون أمور الدنيا.

الحال الثالثة . حقل التجربة بالمعارك القادمة : وهذا يدل على ما يأتي :

١ . أخبر تعالى زيادة في تكذيبهم وافتضاح أمرهم أن ميدان القتال مفتوح ، فإن كانوا مسلمين صادقين فليجربوا أنفسهم في ملاقاة أقوام ذوي بأس شديد ، ومراس ونجدة.

٢ . فتح الله تعالى باب الأمل أمامهم ، وأفادهم بأنهم إن أطاعوا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ وجاهدوا بحق يعطهم الغنيمة والنصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، وإن أعرضوا في المستقبل عن الجهاد كما أعرضوا في الماضي عام الحديبية ، يعذبهم بعذاب مؤلم موجع وهو عذاب النار.

وقد استدل بعض المفسرين بآية : ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم.

واستدلوا بآية ﴿تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على حكم من لا تؤخذ منهم الجزية ، وهم مشركو العرب والمرتدون ، فالخيار مقيد فيهم بأمرين : إما المقاتلة وإما الإسلام ، لا ثالث لهما.

واستدل الفقهاء بآية ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ..﴾ على إعفاء أصحاب الأعذار من فريضة الجهاد ، وهم الأعمى والأعرج عرجا دائما ، والمريض المزمن أو المريض مرضا مؤقتا يمنع من الخروج من المنزل إلى أن يبرأ. واقتصر النص القرآني

على الأصناف الثلاثة ، لأن العذر إما بسبب اختلال القوة أو إخلال في عضو ، فيقاس عليهما ما في معناهما ، كالفقر الذي يمنع من إحضار السلاح حال التطوع بالجهاد ودون تقديمه من الدولة ، والاشتغال بذوي الحاجة والضعف كطفل ومريض ، ونحو ذلك مما يعرف في الفقه. وقد ضبط الفقهاء الأعذار المانعة من الجهاد بأن المانع إما عجز حسي أو عجز حكمي.

فمن الأول : الصغر والجنون والأنوثة والمرض المانع من الركوب للقتال ، والعرج البيّن ، وفقد الصبر ، وعدم وجدان السلاح وآلات القتال.

ومن الثاني : الرق والدّين الحالّ بلا إذن رب الدين ، وعدم إذن أحد الأبوين المسلمين.

ودل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴾ على الحث على الجهاد والترهيب من ترك القتال ، فإن من أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ وجاهد في سبيل الله ، أدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن أعرض عن المشاركة في الجهاد ، عذّبه عذابا شديد الألم ، لعظم جرمه ، وإساءته للمجتمع الإسلامي.

فإن الجهاد سبيل لدحر العدوان ، وطرد المعتدين ، والتخلص من أذاهم ، وهو طريق العزة والكرامة ، وصون الاستقلال ، وحماية حرمات البلاد والأوطان ، والحفاظ على كيان الأمة ، ولو لاه لذابت الأمم ، وزالت الأديان والقيم ، وانصهرت الجماعات ، ولحق الذل والهوان والاستعباد بالشعوب إلى الأبد ، أو إلى أن تصحو وتستيقظ من رقادها وسباتها ، وتنفض الذل عن هاماتها.

لذا جعله الله فريضة على المؤمنين ، وإن كان مكروها على النفس ، ليعلم الصادق في إيمانه ، الصابر على تحمل مشاق التكاليف ، واختبار أعمال الناس حسنات أو سيئات ، فيجازيهم بها.

وهو ذروة سنام الإسلام ، وسبيل إلى جنان الخلد ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وهم في درجة الأنبياء والصدّيقين ، وحسن أولئك رفيقا.

## جزاء أهل بيعة الرضوان

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩)﴾

**البلاغة :**

﴿إِذْ يُبايِعُونَكَ﴾ التعبير بصيغة المضارع المفيد للحال عن الماضي لاستحضار صورة المبايعة.

**المفردات اللغوية :**

﴿رَضِيَ﴾ الرضى : ما يقابل السخط ﴿عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أهل الحديبية ، و رضي الله عنهم لمبايعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عددهم على الأصح ألفا وأربع مائة ﴿إِذْ يُبايِعُونَكَ﴾ يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يقاتلوا قريشا ، ولا يفرّون منهم ، ولا يخشون الموت ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هي سمرة (وهي شجرة الطلح أو السنط) ﴿وَأَثابَهُمْ﴾ كافأهم على عملهم.

﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ﴾ علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء وإخلاص البيعة ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح ﴿وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ جازاهم على بيعة الرضوان بفتح خيبر ، بعد انصرافهم من الحديبية.

﴿وَمَغانِمَ كَثِيرَةً﴾ أي وأثابهم أيضا مغانم خيبر يأخذونها ، وكانت خيبر ذات بساتين نخيل ومزارع ، قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهل الحديبية المقاتلة ، فأعطى الفارس سهمين ، والراجل سهما ﴿عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي كان الله وما يزال غالبا قويا ، مراعيا مقتضى الحكمة في تدبير خلقه.

**سبب النزول :**

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال :

«بينا نحن قائلون [١] ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ ، يا أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، فسرنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو تحت شجرة سمرة ، فبايعناه ، فأنزل الله : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئا لك لابن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هنا ، فقال رسول الله ﷺ : «لو مكث كذا وكذا سنة ، ما طاف حتى أطوف».

وروي أنه ﷺ لما نزل الحديبية بعث حراش بن أمية الخزاعي إلى أهل مكة ، فهمّوا به ، فمنعه الأحابيش ، فرجع ، فبعث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فحبسوه ، فأرجف بقتله ، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه ، وكانوا ألفا وثلث مائة أو أربع مائة أو خمس مائة ، وبايعهم على أن يقاتلوا قريشا ولا يفرّوا منهم ، وكان جالسا تحت سمرة أو سدرة.

وأخرج الشيخان عن يزيد بن عبيد قال : قلت لسلمة بن الأكوع : «على أي شيء بايعتم رسول الله؟ قال : على الموت».

وأخرج مسلم عن معقل بن يسار قال : «لقد رأيتني يوم الشجرة ـ التي كانت تحتها بيعة الرضوان بالحديبية ـ والنبي ﷺ يبايع الناس ، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : لم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على ألا نفرّ».

ووفّق العلماء بين الروايتين ، فجماعة كانت مع سلمة ، وجماعة مع معقل. وأرى أن الغاية من الحديثين واحدة هي الثبات في مواجهة قريش ، لذا قال جابر بن عبد الله : بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت ، وعلى ألا

---

(١) نائمون نوم القيلولة.

نفرّ ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جدّ بن قيس ، وكان منافقا اختبأ تحت إبط ناقته ، ولم يثر مع القوم. ويلاحظ أن جابر جمع بين الروايتين.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر أن النبي ﷺ قال : «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

**المناسبة :**

بعد أن بيّن الله تعالى حال المخلفين عام الحديبية ، عاد إلى بيان حال الذين بايعوا تحت الشجرة ، وذكروا فيما تقدم في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ ..﴾ فأبان جزاءهم في الدنيا والآخرة ، وهو الظفر بغنائم كثيرة من خيبر ، وأخبر الله عن رضاه عن أهل تلك البيعة في الآخرة ، لصدق إيمانهم ، وإخلاصهم في بيعتهم ، وإنزال السكينة (الطمأنينة) عليهم وتثبيت قلوبهم وأقدامهم. والخلاصة : لما ذكر تعالى حال من تخلف عن السفر مع الرسول ﷺ ذكر حال المؤمنين الخلّص الذين سافروا معه. والآية دالة على رضى الله تعالى عنهم ، ولذا سميت بيعة الرضوان.

**التفسير والبيان :**

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ أي تالله لقد رضي الله عن المؤمنين المخلصين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان ، بالحديبية ، على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا ، وروي أنه بايعهم على الموت ، وكان عددهم في الأصح ألفا وأربع مائة. وسميت بيعة الرضوان ، لقوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ ..﴾.

روى البخاري أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : انطلقت حاجا ، فمررت بقوم يصلّون ، فقلت : ما هذا المسجد؟ قالوا : هذه الشجرة

حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأتيت سعيد بن المسيب ، فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها ، فلم نقدر عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها ، وعلمتموها أنتم ، فأنتم أعلم!!

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن نافع قال : بلغ عمر أن أناسا يأتون الشجرة التي بويع تحتها ، فأمر بها ، فقطعت.

﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ أي فعلم الله ما في قلوبهم من الإيمان والصدق ، والإخلاص والوفاء ، والسمع والطاعة ، فأنزل الطمأنينة وسكون النفس عليهم ، وجازاهم فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية ، ثم أتبعه بفتح مكة وفتح سائر البلاد والأقاليم.

وفاء ﴿فَعَلِمَ﴾ للتعقيب ، والفعل متعلق بقوله : ﴿إِذْ يُبايِعُونَكَ ..﴾ وبما أن العلم بما في القلوب قبل الرضى ، فيكون المراد كما يقول القائل : فرحت أمس إذ كلّمت زيدا ، فقام إلي ، أو إذ دخلت عليه فأكرمني ، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيبا في المعنى ، والآية كذلك إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب ، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم. وفاء ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ..﴾ للتعقيب الواقعي ، فإنه تعالى رضي عنهم ، فأنزل السكينة عليهم.

﴿وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها ، وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي : وأثابهم أيضا مغانم كثيرة ، وهي غنائم خيبر ، وكان توزيع الغنائم تعويضا لهم عما تأملوه من غنائم أهل مكة ، ومخصصا بأهل بيعة الرضوان.

وكان الله وما يزال غالبا كامل القدرة ، مدبرا أمور خلقه على وفق الحكمة والسداد ، وقد حقق لأهل بيعة الرضوان العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

جازى الله تعالى أهل بيعة الرضوان بجزاءين : مادي ومعنوي ، أما المعنوي : فهو إسباغ الرضى الإلهي عليهم ، وإنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم ، بسبب ما عمله في نفوسهم من الصدق والوفاء ، والسمع والطاعة.

وأما الجزاء المادي : فهو فتح خيبر أو فتح مكة ، وغنائم خيبر وأموالها ، فقسمها عليهم ، وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة ، أو غنائم فارس والروم.

## مغانم وفتوحات ونعم كثيرة أخرى للمؤمنين

﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢٠) وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١) وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤)﴾

**الإعراب :**

﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي المعجلة ، وهو عطف على مقدر ، أي لتشكروه.

﴿وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها أُخْرى﴾ : في موضع نصب بالعطف على ﴿مَغانِمَ﴾ وتقديره : وعدكم ملك مغانم كثيرة وملك أخرى ، لأن المفعول الثاني وهو : ﴿مَغانِمَ﴾ لا يكون إلا

منصوبا ، لأن الأعيان لا يقع الوعد عليها ، إنما يقع على تملكها وحيازتها. ويصح أن تكون مبتدأ ، و ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها﴾ : صفة لها ، وجاز الابتداء بها لكونها موصوفة ، و ﴿قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها﴾ : خبر المبتدأ.

﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله ، أي سن الله ذلك سنة.

**البلاغة :**

﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ﴾ كناية عن الهزيمة ، لأن المنهزم يدير ظهره للعدو عند الهرب.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ما وعد به المؤمنون إلى يوم القيامة إثر الفتوحات ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾ أي غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أيدي قريش بالصلح ، وأيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان ، وأيدي اليهود عن المدينة إذ همّوا بعيالكم ، بعد خروج الرسول ﷺ منها إلى الحديبية ، بأن قذف في قلوبهم الرعب ﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي الغنائم المعجلة ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أمارة للمؤمنين في نصرهم يعرفون بها صدق الرسول ﷺ في وعدهم فتح خيبر والمغانم وغير ذلك ، وحراسة الله لهم في غيبتهم ومشهدهم ، وحفظ كيان المؤمنين الآتين بعدهم ما داموا على الاستقامة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ يوفقكم ويرشدكم إلى الثقة بفضل الله والتوكل عليه في كل الأمور.

﴿وَأُخْرى﴾ أي ومغانم أخرى هي مغانم فارس والروم ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها﴾ الآن ، لما تتطلب من الإعداد الأقوى ﴿قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها﴾ علم أنها ستكون لكم ، وقد أعدها لكم وغنمكوها وأظهركم عليها ﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ أي ولم يزل متصفا بذلك ، لأن قدرته ذاتية لا تختص بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحديبية ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ﴾ لهربوا وانهزموا ﴿ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ حارسا حاميا يحرسهم ﴿وَلا نَصِيراً﴾ معينا ينصرهم. ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ حكم الله وقانونه القديم فيمن مضى من الأمم غلبة أنبيائه ، ونصر المؤمنين ، وهزيمة الكافرين ، كما قال : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١] أي سنّ الله ذلك سنة ثابتة دائمة ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ تغييرا.

﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أيدي كفار مكة ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكة بالحديبية ﴿أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أظهركم عليهم وجعلكم متغلبين عليهم ، فإن ثمانين منهم طافوا بعسكركم ليصيبوا منكم ، فأخذوا وأتي بهم إلى رسول الله ﷺ ، فعفا عنهم ، وخلّى سبيلهم ، فكان ذلك سبب الصلح ﴿وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ أي ولم يزل مطلعا على جميع الأمور.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (٢٤):**

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ ..﴾ : أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا في السلاح من جبل التنعيم (١) ، يريدون غرّة (٢) رسول الله ﷺ ، فأخذوا ، فأعتقهم ، فأنزل الله : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية.

وأخرج مسلم ونحوه من حديث سلمة بن الأكوع ، وكذا أحمد والنسائي نحوه من حديث عبد الله بن مغفل المزني ، وابن إسحاق نحوه من حديث ابن عباس.

وحديث أحمد عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنهما هو : قال : «كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ ، وكان علي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب في قضيتنا ما نعرف ، قال : اكتب باسمك اللهم.

وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة ، فأمسك سهيل بن عمرو بيده ، وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله.

فبينا نحن كذلك ، إذ خرج علينا ثلاثون شابّا ، عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا إليهم

---

(١) التنعيم : موضع في الحل بين مكة وسرف.

(٢) الغرّة : الغفلة ، أي يريدون أن يصادفوا منه ﷺ ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم.

فأخذناهم ، فقال رسول الله ﷺ : هل جئتم في عهد أحد؟ وهل جعل لكم أحد أمانا؟ فقالوا : لا ، فخلّى سبيلهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ ، بِبَطْنِ مَكَّةَ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

**المناسبة :**

بعد أن وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر ، أردفه بذكر نعم كثيرة أخرى :

أولها ـ أنّ ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب ، بل وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين ، وكل ما غنموه كان منها ، والله كان عالما بها.

وثانيها ـ وعدهم بغنائم هوازن وفارس والروم وغيرها من البلاد التي ستفتح.

وثالثها ـ الوعد بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، وتلك سنّة الله القديمة.

ورابعها ـ امتنان الله على عباده المؤمنين بكفّ أيدي المشركين عنهم في الحديبية.

**التفسير والبيان :**

﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ أي وعدكم الله أيها المؤمنون مغانم كثيرة من المشركين والكفار على ممرّ الدهر إلى يوم القيامة ، ولكن عجّل لكم غنائم خيبر ، وكفّ أيدي قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح ، وأيدي اليهود أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان عن قتالكم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فلم ينلكم سوء مما أضمره أعداؤكم لكم من المحاربة والقتال.

كل ذلك لتشكروه ، ولتكون تلك النعم علامة للمؤمنين يعلمون بها صدق رسول الله ﷺ في جميع ما يعدهم به ، وأن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء ، مع قلة العدد ، وليزيدكم بتلك الآية أو العلامة هدى ، أو يثبّتكم على الهداية إلى طريق الحقّ ، والانقياد لأمر الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

. ﴿وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها ، وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ أي وعدكم الله غنائم أخرى وفتوحات أخرى غير صلح الحديبية وفتح خيبر ، لم تكونوا تقدرون عليها في حالتكم الراهنة ، قد أحاط الله بها علما أنها ستصير أو ستكون لكم ، وتفتحونها وتأخذونها ، مثل غنائم هوازن في غزوة حنين ، وفتوحات فارس والروم ، وكان الله وما يزال على كل شيء قديرا مقتدرا ، لا يعجزه شيء.

. ﴿وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ، ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ أي لو بادركم بالقتال كفار قريش بالحديبية ، لنصر الله تعالى رسوله ﷺ وعباده المؤمنين عليهم ، ولا نهزم جيش الكفر فارّا هاربا ، ثم لا يجدون حارسا وحاميا يحرسهم ويواليهم على قتالكم ، ولا ناصرا معينا ينصرهم عليكم.

﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ أي تلك سنّة الله القديمة وعادته في خلقه بنصر جيش الإيمان على جيش الكفر ، ورفع الحق ووضع الباطل ، وغلبة أوليائه على أعدائه ، بالرغم من عدم تكافؤ القوى ، مثل نصر الله يوم بدر أولياءه ، على أعدائه من المشركين ، وتلك السّنة مستمرة ثابتة ، لا تغيير لها.

. ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ أي والله سبحانه وتعالى هو الذي

كفّ أيدي المشركين عن المسلمين ، وأيدي المسلمين عن المشركين ، لما جاؤوا يصدّون رسول الله ﷺ ومن معه عن البيت الحرام عام الحديبية ، في داخل مكة وحدودها ، فإن ثمانين رجلا من أهل مكة ـ كما تقدّم في سبب النزول ـ هبطوا على النّبي ﷺ من قبل جبل التنعيم ، متسلحين ، يريدون غرّة النّبي ﷺ ، فأخذهم المسلمون ، ثم تركوهم. وهذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين بكفّ المشركين عنهم ، وكفّ المسلمين عن الكفار.

وكان الله وما يزال بصيرا بأعمال عباده المؤمنين والمشركين ، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وعلى هذا ، ليس المراد من قوله : ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فتح مكة ، فالصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة ، وأن مكة فتحت عنوة ، وإنما المراد : ما بعد الأسر لم يحدث قتل.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات البيّنات إلى ما يأتي :

١ ـ وعد الله تعالى المؤمنين الصادقين مغانم الأعداء إلى يوم القيامة ، ومغانم خيبر المعجلة جزء منها.

٢ ـ إتماما للمنّة والفضل الإلهي ، منع الله تعالى عباده المؤمنين وحماهم من أذى وحرب أهل مكة ، وكفّهم عنهم بالصلح ، كما كفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النّبي ﷺ إلى الحديبية وخيبر ، وأيدي اليهود وحلفائهم من أسد وغطفان عن قتال المسلمين في خيبر. وكان قد جاء عيينة بن حصن وعوف بن مالك النّضري ومن كان معهما لينصروا أهل خيبر ، والمسلمون محاصرون لهم ، فألقى الله في قلوبهم الرعب ، وكفّهم عن المسلمين ، وزاد الله هؤلاء هدى ، وثبّتهم على الهداية.

٣ ـ وعد الله عباده المؤمنين مغانم وفتوحات أخرى إلى يوم القيامة ، منها غنائم هوازن ، وغنائم فارس والروم ، وذلك قبل حدوثها ، ولم يكونوا يرجونها ، حتى أخبرهم الله بها. وهو إخبار بالمغيبات دالّ على إعجاز القرآن ، وأنه من عند الله تعالى ، وأن الرسول ﷺ صادق في نبوته.

٤ ـ ومن أفضاله تعالى على المؤمنين أنه كفّ عنهم شرّ أعدائهم ، فإنه سواء قاتلت غطفان وأسد والذين أرادوا نصرة أهل خيبر ، أم لم يقاتلوا ، لا ينصرون ، والغلبة واقعة للمسلمين ، وذلك أمر إلهي محكوم به مختوم ، ولن يجد الكفار مواليا ينفعهم باللطف ، ولا ناصرا يدفع بالعنف ، وليس للذين كفروا شيء من ذلك ، وطريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه ، وهي سنّة ثابتة مستمرة لا تقبل التغير.

٥ ـ وتأكيدا لنصر المؤمنين وطّد الله تعالى دعائم الصلح والسلم قبل اللقاء وبعده ، ومنع حدوث القتال بين المسلمين والكفار ، حتى ولو قاتل الكفار ، فإنهم سينهزمون ويولّون الدّبر ، وحتى بعد ظفر المسلمين بهم ، فإنه تعالى كفّ أيدي المؤمنين عنهم. وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من بعد ما أخذتموهم أسارى ، وتمكنتم منهم لم يقع القتل ، فإنه متى ظفر الإنسان بعدوه يبعد انكفافه عنه ، مع أن الله كفّ اليدين.

وكفّ أيدي المؤمنين عن الكفار : هو إطلاقهم من الأسر ، وسلامتهم من القتل.

## ذمّ المشركين وحكمة المصالحة يوم الحديبية

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦)﴾

**الإعراب :**

﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ الْهَدْيَ﴾ : منصوب بالعطف على الكاف والميم في ﴿صَدُّوكُمْ﴾. و ﴿مَعْكُوفاً﴾ حال ، و ﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : عن أن يبلغ محله ، أو بدل اشتمال.

﴿وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ رِجالٌ﴾ : مبتدأ مرفوع ، ﴿وَنِساءٌ﴾ : معطوف عليهم ، وخبر المبتدأ محذوف ، ولا يجوز إظهار خبر المبتدأ إذا وقع بعد ﴿لَوْ لا﴾ لطول الكلام بجوابها.

﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ في موضع رفع ، لأنه صفة ل ﴿رِجالٌ﴾ ، ﴿وَنِساءٌ﴾.

و ﴿أَنْ تَطَؤُهُمْ﴾ أي تقتلوهم ، وفي موضع ﴿أَنْ﴾ وجهان : الرفع على البدل بدل اشتمال من ﴿رِجالٌ﴾ ، أي ولو لا وطؤكم رجالا مؤمنين لم تعلموهم ، أو النصب على البدل بدل اشتمال من الهاء والميم في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموا وطأهم.

وجواب ﴿لَوْ لا﴾ محذوف أغنى عنه جواب ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ واللام في ﴿لِيُدْخِلَ اللهُ﴾ متعلق بمحذوف ، دلّ عليه قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي

﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ ولا تتعلق ب ﴿كَفَ﴾ هذه لأنها صلة ﴿الَّذِي﴾ ، ووقع فصل طويل في الكلام بين ﴿كَفَ﴾ واللام ، ولا يجوز الفصل بينهما.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ﴾ : متعلق ب «عذبنا».

﴿حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ﴾ بدل من ﴿الْحَمِيَّةَ﴾.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ منعوكم عن الوصول إليه. ﴿وَالْهَدْيَ﴾ أي وصدّوا الهدي : وهو ما يهدى إلى مكة ، أو ما يقدّم قربانا لله تعالى إلى الحرم ويذبح فيه ، حين زيارة البيت الحرام في الحج أو العمرة ، وهو سنّة. ﴿مَعْكُوفاً﴾ محبوسا عن الوصول للحرم. ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أن يصل مكانه الذي ينحر فيه عادة ، وهو منى أو الحرم المكي. وليس المراد مكانه الذي يحل فيه نحره ، وإنما المراد مكانه المعهود ، وهو منى ، وإلا لما نحره الرسول ﷺ حيث أحصر ، قال البيضاوي : فلا ينتهض حجة للحنفية على أن مذبح هدي المحصر ، هو الحرم.

﴿وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ﴾ موجودون بمكة مع الكفار. ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين. ﴿أَنْ تَطَؤُهُمْ﴾ مأخوذ من الوطء : الدوس ، والمراد به هنا الإهلاك ، جاء في الحديث : «اللهم اشدد ووطأتك على مضرّ» أي أن تبيدوهم مع الكفار لو أذن لكم في الفتح. ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ﴾ من جهتهم. ﴿مَعَرَّةٌ﴾ مكروه ومشقّة ، وإثم بالتقصير في البحث عنهم ، والمكروه كوجوب الدّية والكفارة بقتلهم ، والتأسف عليهم ، وتعيير الكفار بذلك. مأخوذ من عرّه : إذا عراه ودهاه ما يكرهه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منكم ، متعلق ب ﴿أَنْ تَطَؤُهُمْ﴾ غير عالمين بهم. وضمائر الغيبة للصنفين بتغليب الذكور. وجواب ﴿لَوْ لا﴾ محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، تقديره : لأذن لكم في الفتح أو لما كفّ أيديكم عنهم. والمعنى : لو لا كراهة أن تبيدوا أناسا مؤمنين بين الكفار ، جاهلين بهم ، فيصيبكم بإهلاكهم أو إبادتهم مكروه ، لما كفّ أيديكم عنهم.

﴿لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ علة لكف أيدي أهل مكة ، صونا للمؤمنين ، أي كان ذلك ليدخل الله في توفيقه لزيادة الخير ، أو الإسلام. ﴿مَنْ يَشاءُ﴾ من المؤمنين أو المشركين. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ تميّزوا عن الكفار أو تفرّقوا عنهم. ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي لعذّبنا الكافرين من أهل مكة حينئذ بالقتل والسّبي. ﴿عَذاباً أَلِيماً﴾ مؤلما شديد الألم.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي اذكر حين ذاك ، أو ظرف ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ ، أو ﴿صَدُّوكُمْ﴾. ﴿الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة من الشيء. ﴿حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ﴾ التي تمنع إذعان الحق ، وهي صدّهم النّبي وأصحابه عن المسجد الحرام ، فهي حمية في غير موضعها ، لا يؤيدها دليل ولا برهان. ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنزل عليهم الثبات والوقار ، وصالحوا أهل مكة على أن يعودوا من

قابل ، ولم يلحقهم من الحمية ما لحق الكفار ، حتى يقاتلوهم. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ أي المؤمنين. ﴿كَلِمَةَ التَّقْوى﴾ كلمة الشهادة : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» ، وقيل : هي بسم الله الرحمن الرحيم ، أي اختارها لهم ، أو ألزمهم الثبات والوفاء بالعهد ، وإضافة الكلمة إلى التقوى ، لأنها سبب التقوى وأساسها. ﴿أَحَقَّ بِها﴾ أولى بالكلمة من الكفار. ﴿وَأَهْلَها﴾ المستأهلين لها ، وهو عطف تفسيري لكلمة ﴿أَحَقَّ بِها﴾. ﴿وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي ولم يزل متّصفا بذلك ، فيعلم من هو أهل كل شيء ، وييسره له.

### سبب النزول :

### نزول الآية (٢٥):

﴿وَلَوْ لا رِجالٌ ..﴾ : أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع [١] قال : قاتلت النّبي ﷺ أول النهار كافرا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وكنّا ثلاثة رجال وسبع نسوة ، وفينا نزلت : ﴿وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ﴾. وفي رواية ابن أبي حاتم : «كنا ثلاثة رجال ، وتسع نسوة ، وفينا نزلت : ﴿وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ ..﴾ الآية».

### المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى امتنانه العظيم على المؤمنين إذ كف عنهم أيدي الكافرين من قريش ، وكف أيدي المؤمنين عن الكافرين ، وأبرم بينهم ميثاق صلح الحديبية ، أبان تعالى أسباب هذا الكفّ المتبادل ، وأوضح حكمة المصالحة بقوله : ﴿وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ﴾ حفاظا عليهم ، ومن أجل نشر دين الإسلام ودخول الناس فيه ، وتبديد آثار الأنفة والحمية الجاهلية التي لا تستند إلى برهان معقول ، وإنزال السكينة والطمأنينة والثبات على قلب الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين ، وإلزامهم الوفاء بالعهود.

---

(١) قال ابن كثير : والصواب أبو جعفر حبيب بن سبع.

وقد بيّنت سابقا كيف تمّ الصلح الذي جاء في بعض رواياته : أنه لما همّ رسول الله ﷺ بقتال كفار قريش ، بعثوا سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزّى ، ومكرز بن حفص ، ليسألوه أن يرجع في عامه ، على أن تخلي قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، فأجابهم ، وكتبوا بينهم كتابا ، على النحو المذكور آنفا.

**التفسير والبيان :**

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي إن مشركي العرب من قريش وحلفائهم هم الكفار الجاحدون توحيد الله دون غيرهم ، وهم منعوكم أيها المسلمون من الطواف بالبيت الحرام ، وأنتم أحقّ به وأنتم أهله ، وصدّوا الهدي (ما يهدى إلى الحرم من الأنعام) محبوسا في مكانه عن بلوغ محلّه بغيا وعنادا ، وكان الهدي سبعين بدنة (ناقة) ومحلّه : منحره الذي يذبح فيه عادة ، وهو حيث يحلّ نحره من الحرم ، وهو منى أو الحرم المكي ، فرخّص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذي وصلوا إليه وهو الحديبية مكان الإحصار (المنع من دخول مكة) محلّا للنحر ، وكانوا خارج الحرم.

﴿وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ ، فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ولو لا وجود المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة ، الذين يكتمون إيمانهم ويخفونه خيفة على أنفسهم من قومهم ، لأذنّا لكم بالفتح ، ولما كففنا أيديكم عنهم ، ولكنّا سلّطناكم عليهم ، فقتلتموهم واستأصلتموهم ، ولكن يقع بينهم فريسة القتل أقوام من المؤمنين والمؤمنات لم تعرفوهم ولم تعلموا أنهم مؤمنون حالة القتل ، فتطؤوهم بالقتل ، فتصيبكم من جهتهم مشقة وتأسف ، وإثم وكفّارة على القتل الخطأ ، لوقوع القتل جهلا بغير علم منكم بهم ، وحينئذ يقول المشركون : إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم.

﴿لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ أي ولكن كف أيديكم عنهم وحال بينكم وبين قتالهم ليخلص المؤمنين من أسرهم ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ أي لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا ، وانفصل بعضهم عن بعض بما يسمى اليوم بفك الارتباط ، لعذبنا الذين كفروا عذابا مؤلما وهو القتل ، بأن نسلطكم عليهم ، فتقتلوهم قتلا ذريعا. والخلاصة : لو تزيل المؤمنون من الكفار لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم.

ثم بيّن الله تعالى ظرف العذاب أو وقته ، فقال :

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى ، وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية التي لا تذعن للحق ولا تعرف منطقا ولا تعتمد دليلا مقنعا ، وهي قولهم : واللات والعزى لا يدخلونها علينا ، وإباؤهم كتابة البسملة ووصف محمد ﷺ بأنه رسول الله في مقدمة صلح الحديبية.

فأنزل الله الطمأنينة والثبات والصبر على رسوله وعلى المؤمنين ، حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية ، وثبّتهم على الرضا والتسليم ، وألزمهم كلمة الشهادة أو التوحيد وهي «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» أو ألزمهم تعظيم الحرم ، وترك القتال فيه ، ولم يستفزهم صنيع الكفرة ، لينتهكوا حرمة الحرم.

وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة وأجدر بها وأهلا لها من دون الكفار ، إذ هم أهل الخير والصلاح والعقيدة الصحيحة ، على نقيض الكفار ذوي العقيدة الفاسدة.

وكان الله وما يزال عليما بمن يستحق الخير ، ممن يستحق الشر.

روى النسائي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ، حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ﴾ ولو حميتم كما حموا ، لفسد المسجد الحرام ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه ، فأغلظ له ، فقال ـ أي أبي ـ : إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعلمني مما علّمه الله تعالى ، فقال عمر رضي الله عنه : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فاقرأ وعلّم مما علّمك الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ ذمّ الله تعالى قريشا إذ كفروا بتوحيد الله ، ومنعوا المؤمنين دخول المسجد الحرام عام الحديبية ، حين أحرم النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعمرة ، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محلّه ، ولم يكن هذا من اعتقادهم ، ولكنه حملتهم الأنفة ، ودعتهم حميّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينا ، فوبخهم الله على ذلك وتوعدهم عليه ، وآنس رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه ووعده.

٢ ـ إن حرمة المؤمن عند الله عظيمة ، فقد كان صلح الحديبية من أجل ثلاثة رجال وسبع أو تسع نسوة حتى لا يقتلوا في زحمة المعركة لو حدث قتال ، فيعاب المسلمون ، ويقول المشركون : قد قتلوا أهل دينهم ، وتلزمهم كفارة القتل الخطأ ، لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ، ولم يعلم بإيمانه الكفارة دون الدّية في قوله : ﴿فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء ٤ / ٩٢].

٣ ـ دل قوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على تفضيل الصحابة ، واتصافهم بصفات كريمة من العفة عن المعصية ، والعصمة عن التعدّي ، حتى لو أنهم أصابوا

من ذلك أحدا ، لكان من غير قصد. وهذا مشابه لوصف النملة جند سليمان عليه السلام في قولها : ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ١٨].

٤ ـ لم يأذن الله للمسلمين في قتال المشركين عام الحديبية ليسلم بعد الصلح الموفّق للإسلام من أهل مكة ، وقد أسلم الكثير منهم ، وحسن إسلامهم ، ودخلوا في رحمة الله ، أي جنته.

٥ ـ لو تميز المؤمنون عن الكفار لعذّب الكفار بالسيف ، ولكن الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكفار.

٦ ـ آية ﴿وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ ..﴾ دليل على وجوب مراعاة حرمة المؤمن والامتناع من قتله إذا اختلط بالكفار ، إلا لمصلحة ضرورية قطعية كلية ، كما في قتل التّرس ، أي المسلمين المتترس بهم من قبل العدو ، فيتخذهم دريئة تحمي نفوسهم ، وحيلة تمكنهم من التقدم.

ومعنى كونها ضرورية : أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية. أنها قاطعة مفيدة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين ، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس ، واستولوا على كل الأمة. ومعنى كونها قطعية : أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعا.

والمصلحة بهذه القيود لا خلاف في اعتبارها ، لأن الفرض أن الترس مقتول قطعا ، إما بأيدي العدو ، فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين ، وإما بأيدي المسلمين ، فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون.

ولا خلاف بين العلماء أنه لا يجوز تعمد المسلمين المتترس بهم بالقتل ، وهل تجب الدية والكفارة؟ اختلف العلماء :

فقال الحنفية : لا دية ولا كفارة.

وقال الشافعية والثوري : تجب الدية والكفارة [١].

٧ ـ لم يكن منع أهل مكة المشركين من دخول المؤمنين المسجد الحرام لسبب معقول ، وإنما بدوافع الأنفة أو الحمية الجاهلية التي لا يؤيدها دليل ولا برهان ، دفعتهم عصبيتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها.

كذلك حملتهم تلك العصبية لوثنية الجاهلية على الامتناع من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» و «محمد رسول الله» في مقدمة الصلح.

٨ ـ أما المؤمنون فقد أنزل الله عليهم الطمأنينة والوقار ، وثبّتهم على الرضى والصبر والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل في قلوب أولئك من الحمية والغضب ، وألزمهم كلمة «لا إله إلا الله» لأنهم كانوا أحق بها من كفار مكة ، لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه.

## تصديق رؤيا الرسول ﷺ عام الفتح

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً (٢٨)﴾

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٤ / ٣٩٥

**الإعراب :**

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ... الرُّؤْيا﴾ بحذف مضاف أي تأويل الرؤيا ، لأن الرؤيا مخايل ترى في النوم ، فلا تحتمل صدقا ولا كذبا ، وإنما يحتمل الصدق والكذب تأويلها. وبالحق : إما صفة مصدر محذوف أي صدقا ملتبسا بالحق ، أو قسم باسم الله أو بنقيض الباطل. و ﴿لَتَدْخُلُنَ﴾ أصله : لتدخلون ، إلا أنه لما دخلت نون التوكيد حذفت النون التي هي نون الإعراب ، لتوالي الأمثال ، والفعل معرب عند الجمهور ، ويرى ابن الأنباري أن النون المحذوفة للبناء.

و ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ مُقَصِّرِينَ﴾ كلها منصوبات على الحال من الضمير المحذوف في ﴿لَتَدْخُلُنَ﴾ وكذلك قوله : ﴿لا تَخافُونَ﴾ جملة في موضع الحال ، وتقديره : غير خائفين.

﴿وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ تقديره : كفاكم الله شهيدا ، فحذف مفعولي ﴿كَفى﴾ ، و ﴿كَفى﴾ يتعدى إلى مفعولين ، قال تعالى : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة ٢ / ١٣٧]. و ﴿شَهِيداً﴾ منصوب على التمييز ، أو الحال.

**البلاغة :**

﴿مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ بينهما طباق.

**المفردات اللغوية :**

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا﴾ صدّقه في رؤياه ولم يكذبه ، فحذف الجار وهو «في» ووصل الفعل ، كقوله تعالى : ﴿صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الفتح ٤٨ / ٢٧] ﴿بِالْحَقِ﴾ يرى الزمخشري أنه متعلق ب ﴿صَدَقَ﴾ ، أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق ، أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، ويجوز أن يتعلق ب ﴿الرُّؤْيا﴾ حالا منها ، أي صدقه الرؤيا ملتبسا بالحق ، على معنى أنها لم تكن أضغاث أحلام ، ويجوز أن يكون ﴿بِالْحَقِ﴾ قسما إما بالحق الذي هو نقيض الباطل ، أو بالحق الذي هو من أسماء الله تعالى.

﴿لَتَدْخُلُنَ﴾ جواب القسم على أن ﴿بِالْحَقِ﴾ قسم ، وعلى الرأي الأول والثاني هو جواب قسم محذوف ﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ تعليق للوعد (أو للعدة) بالمشيئة ، تعليما للعباد ﴿مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ محلقا بعضكم جميع شعورهم ، ومقصرا آخرون بعض شعورهم ﴿لا تَخافُونَ﴾ أبدا ﴿فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة في تأخير ذلك ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ﴾ جعل من دون دخول المسجد ، أو من دون فتح مكة ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ هو فتح خيبر ، ثم تحققت الرؤيا في العام القابل.

﴿بِالْهُدى﴾ ملتبسا بالهدى ﴿وَدِينِ الْحَقِ﴾ دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليعليه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقا ، وإظهار فساد ما كان باطلا ، وفيه تأكيد الوعد بالفتح ﴿وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ على أن ما وعده كائن ، أو على نبوته بإظهار المعجزات.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (٢٧):**

﴿لَقَدْ صَدَقَ﴾ : أخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أري النبي ﷺ ، وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه : أين رؤياك يا رسول الله ، فنزلت : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا﴾ الآية.

وقال قتادة : كان رسول الله ﷺ رأي في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة ، فلما صالح قريشا بالحديبية ، ارتاب المنافقون حتى قال رسول الله ﷺ : إنه يدخل مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِ﴾ فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام ، وأن رؤياه ﷺ حق.

وقصة الرؤيا : أنه ﷺ رأى في المنام ـ وهو في المدينة (١) ـ أن ملكا قال له : ﴿لَتَدْخُلُنَ﴾ إلى قوله : ﴿لا تَخافُونَ﴾ فأخبر أصحابه بالرؤيا ، ففرحوا وجزموا بأنهم داخلون في عامهم ، فلما صدّوا عن البيت ، واستقر الأمر على الصلح ، قال بعض الضعفة المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت.

وقالوا أيضا : أليس كان يعدنا النبي ﷺ أن نأتي البيت ، فنطوف به؟ فقال لهم أهل البصيرة : هل أخبركم أنكم تأتونه العام؟ فقالوا : لا ، قال : فإنكم تأتونه وتطوفون بالبيت ، فأنزل الله تصديقه.

(١) الظاهر أن مكان الرؤيا في المدينة أصح من القول بأنها في الحديبية.

وجاء في السيرة : أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : ألست نبي الله حقا؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال : إني رسول الله ، ولست أعصيه وهو ناصري ، قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال : فأتيت أبا بكر ، فقلت : يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقا؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل؟ قال : بلى. قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا؟.

قال : أيها الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه [١] ، فو الله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال : بلى ، قال : فأخبرك أنه آتيه العام؟ قلت : لا ، قال : فإنك تأتيه وتطوف به [٢].

**التفسير والبيان :**

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ، لا تَخافُونَ ، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ أي تالله لقد صدّق الله تعالى تأويل رؤياه التي رآها تصديقا مقترنا بالحق ، أنكم ستدخلون المسجد الحرام بمشيئة الله في العام القابل ، وليس في هذا العام عام الحديبية ، حالة كونكم آمنين من العدو ، ومحلقا بعضكم جميع شعره ، ومقصرا بعضكم الآخر ، وأنكم غير خائفين.

وهذا تأكيد للأمن ، فإنه تعالى أثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد. وكان ذلك في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة إلى

---

(١) أي سر على نهجه.

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٤ / ١٩٤ ـ ٢٠٠.

المدينة ، أقام بها ذا الحجة والمحرم ، وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه بعضها عنوة ، وبعضها صلحا.

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ معتمرا هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ، وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة ، فلبّى ، وسار أصحابه يلبّون. ثم دخل مكة بالسيوف مغمدة في قربها ، كما شارط أهل مكة في صلح الحديبية.

ثم رتب الله تعالى على التصديق وسوء ظن القوم قوله : ﴿فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا﴾[1] من الحكمة والمصلحة في تأخير الفتح إلى العام القابل ، فجعل من دون ذلك الفتح فتحا آخر قريب الحصول ، وهو فتح خيبر.

وقوله : ﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ لتعليم العباد وإرشادهم إلى تعليق كل أمر بمشيئة الله.

ثم أكّد تعالى صدق الرؤيا بتصديق الرسول ﷺ في كل شيء بقوله :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ أي إن الله عزوجل هو الذي أرسل رسوله محمدا بالعلم النافع والعمل الصالح ، وبما يرشد إلى طريق الهداية الصحيح ، ودين الإسلام ، ليعليه على كل الأديان ، بنسخ سائر الديانات السابقة ، وإظهار فساد العقائد الزائفة ، وكفى بالله شهيدا على هذا الوعد من إظهار دينه على جميع الأديان ، وعلى أن محمدا ﷺ رسوله ، وهو ناصره. وفي هذا رد على سهيل بن عمرو الذي أبي أن يكتب في مقدمة صلح الحديبية : «محمد رسول الله» وتسلية لرسول الله ﷺ ،

---

(١) الفاء لعطف فَعَلِمَ على صَدَقَ وبما أن العلم متقدم على الرؤيا ، فإن المراد بالتعقيب والترتيب علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب.

وتأكيد لصدق رؤياه ﷺ ، وتبشير بفتح مكة لقوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

### فقه الحياة أو الأحكام

إن رؤيا الأنبياء حق لا شك فيه ، ولكن توقيت حدوث مقتضى الرؤيا بعلم الله ، لا بعلم البشر ، ولم يكن في إخبار النبي ﷺ أنه وصحبه سيدخلون المسجد الحرام في زمن محدد معين ، ففهم الصحابة أن ذلك سيكون عام الحديبية ، ولكن لله الحكمة البالغة ، يفعل الأشياء ، حسبما يرى من المصلحة والخير والحكمة ، وصدّق الرؤيا في العام القابل. وجعل في الفترة ما بين العامين فتح خيبر.

وكان دخولهم آمنين من العدو ، غير خائفين أثناء استقرارهم في مكة لأداء العمرة.

والتحليق والتقصير جميعا للرجال ، وكلاهما جائز ، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «رحم الله المحلقين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ : رحم الله المحلقين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ : رحم الله المحلقين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ : والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة.

والله تعالى تأكيدا لتصديق رؤيا رسوله ﷺ ، أبان أنه صدّق الرسول ﷺ في كل شيء ، فأرسله رسول الهدى ، ورسول الدين الحق : دين الإسلام ، ليعليه على كل الأديان ، وكفى بالله شاهد عدل وحق لنبيه ﷺ على صحة نبوته بالمعجزات ، وعلى أنه رسول من عند الله ، وعلى إظهار دينه على جميع الأديان.

## أوصاف الرسول ﷺ والمرسل إليهم

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩)﴾

**الإعراب :**

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ﴾ : مبتدأ ، و ﴿رَسُولُ اللهِ﴾ : خبر المبتدأ ، أو عطف بيان ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ﴾ مبتدأ أيضا وخبر ، و ﴿رُحَماءُ﴾ خبر ثان ، وما بعده أخبار عن الذين مع النبي ﷺ ، ويجوز أن يكون ﴿رَسُولُ اللهِ﴾ وصف محمد ، و ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ عطف على ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ، و ﴿أَشِدَّاءُ﴾ خبر عن الجميع ، و ﴿رُحَماءُ﴾ خبر ثان عنهم ، والنبي داخل في جميع ما أخبر به عنهم.

و ﴿رُكَّعاً سُجَّداً﴾ منصوبان على الحال من الهاء والميم في ﴿تَراهُمْ﴾ لأنه من رؤية البصر ، و ﴿يَبْتَغُونَ﴾ جملة فعلية إما في موضع رفع على أنها خبر بعد خبر ، أو في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿تَراهُمْ﴾ وتقديره : تراهم ركعا سجدا مبتغين فضلا.

و ﴿سِيماهُمْ﴾ مبتدأ ، وخبره : إما ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ أو ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

و ﴿ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ﴾ مبتدأ وخبر. و ﴿مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ إما معطوف على «مثل» الأول ويكون ﴿كَزَرْعٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : هم كزرع ، أو هما مبتدأ وخبر كالجملة السابقة ، فيكون لهم على هذا الوجه مثلان وصفوا بهما ، أحدهما : في التوراة والآخر : في الإنجيل ، وعلى الوجه الأول لهم مثلان كلاهما في التوراة والإنجيل.

**البلاغة :**

﴿أَشِدَّاءُ﴾ و ﴿رُحَماءُ﴾ بينهما طباق.

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ ، فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ﴾ تشبيه تمثيلي ، وجه الشب فيه منتزع من متعدد.

ويلاحظ مراعاة الفواصل في كل آيات السورة على وتيرة واحدة من قوله تعالى : ﴿مُبِيناً مُسْتَقِيماً﴾ إلى قوله : ﴿عَظِيماً﴾.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أصحابه المؤمنون ﴿أَشِدَّاءُ﴾ غلاظ قساة جمع شديد ﴿رُحَماءُ﴾ متعاطفون متوادّون في قلوبهم رحمة ، كالوالد مع الولد ، جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يغلظون في القتال على أعدائهم ، ويتراحمون فيما بينهم ، كقوله تعالى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ [المائدة ٥ / ٥٤].

﴿تَراهُمْ﴾ تبصرهم ﴿رُكَّعاً سُجَّداً﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾ يطلبون الثوب والرضى ﴿سِيماهُمْ﴾ علامتهم ، والمراد : السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود ، أو هي نور وبياض يعرفون به بالآخرة أنهم سجدوا في الدنيا ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ كائنة منه ﴿ذلِكَ﴾ الوصف المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم العجيبة الجارية مجرى الأمثال في الغرابة ﴿شَطْأَهُ﴾ فراخه أو فروعه التي تنبت حول الأصل ﴿فَآزَرَهُ﴾ أعانه وقوّاه ، من المؤازرة : المعاونة ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فغلظ ﴿فَاسْتَوى﴾ قوي واشتد واستقام ﴿عَلى سُوقِهِ﴾ أصوله وقضبانه ، جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ لحسنه جمع زارع ، مثّل الصحابة رضي الله عنهم بذلك ، لأنهم بدؤوا في قلة وضعف ، فكثروا وقووا ، فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ متعلق بمحذوف ، دل عليه ما قبله ، أي شبهوا بذلك ، فهو علة لتشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ﴾ لما سمع الكفار بهذا غاظهم ذلك ، وقوله ﴿مِنْهُمْ﴾ لبيان الجنس أي الصحابة ، لا للتبعيض ، لأنهم كلهم بالصفة المذكورة ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ الجنة. والمغفرة والأجر هما أيضا لمن بعدهم من المؤمنين والمؤمنات.

**المناسبة :**

بعد بيان كون النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا بالهدى ودين الحق ، بيّن حال الرسول والمرسل إليهم ، فأكد الشهادة في قوله : ﴿وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ بقوله : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ ثم وصف صحابته بأوصاف عجيبة : هي الشدة على الأعداء ، والرحمة بالمؤمنين ، وكثرة العبادة ، والحرص على الثواب والرضى من الله ، والتميز

بالنور والضياء في الدنيا والآخرة ، وبيان صفاتهم في كل من التوراة والإنجيل ، والانتقال من الضعف إلى القوة والكثرة ، وكونهم موعودين من الله بالمغفرة والجنة.

**التفسير والبيان :**

. ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ أي إن محمدا رسول من عند الله حقا بلا شك ولا ريب.

. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن صحابته يمتازون بالشدة والغلظة والصلابة على من جحد بالله وعاداهم ، وبالرقة والرحمة على بعضهم بعضا ، كقوله تعالى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ [المائدة ٥ / ٥٤]. وقوله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة ٩ / ١٢٣].

وكما جاء في الحديث الصحيح عند أحمد ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» وفي حديث الشيخين والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا».

وقال الحسن البصري : بلغ من تشدّدهم على الكفار : أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، فكيف بأبدانهم؟ وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه. والمصافحة جائزة بالاتفاق. وأما المعانقة والتقبيل فقد كرههما أبو حنيفة رضي الله عنه ، وإن كان التقبيل على اليد ، ومن حق المؤمنين : أن يراعوا هذه السنة أبدا ، فيتشدّدوا على مخالفيهم ، ويرحموا أهل دينهم.

. ﴿تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾ أي تشاهدهم يكثرون الصلاة بإخلاص ، فتبصرهم غالبا راكعين ساجدين ، يلتمسون ويطلبون الثواب والرضا ، ويحتسبون عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة ، ورضا الله تعالى عنهم ، والرضا أكبر من الجنة : ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة ٩ / ٧٢].

. ﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي علامتهم المميزة لهم وجود النور والبهاء والوقار في الوجه والسمت الحسن والخشوع. قال السّدّي : الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، وقد أسنده ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف.

وقال بعضهم : إن للحسنة نورا في القلب ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه. والمراد أن أثر العبادة والصلاح والإخلاص مع الله تعالى يظهر على وجه المؤمن ، لذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «من أصلح سريرته ، أصلح الله تعالى علانيته».

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ، ليس لها باب ولا كوّة ، لخرج عمله للناس ، كائنا ما كان».

وروى أحمد أيضا وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن الهدي الصالح ، والسّمت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة».

. ﴿ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ، فَآزَرَهُ

**فَاسْتَغْلَظَ ، فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾** أي ذلك الوصف المذكور للصحابة هو وصفهم الذي وصفوا به في التوراة ووصفوا به في الإنجيل ، وهم كانوا ضعافا قليلي العدد ، فازدادوا وكثروا وتقووا ، مثل الزرع الذي أخرج فروخه وفروعه على جوانبه ، فاشتد وقوي وأعانه وشدّه ، أي إن الزرع قوّى الشطء ، لأنه تغذى منه واحتمى به ، وتحول من الدقة إلى الغلظ ، واستقام على أعواده ، يعجب هذا الزرع الزرّاع لقوّته وحسن منظره ، كما هو معروف.

وهذا مثل ضربه الله تعالى للصحابة ، كانوا في الابتداء قلّة ، ثم زادوا وكثروا وتقووا ، كالزرع تكون فراخه في الابتداء ضعيفة ، ثم تتقوى تدريجيا حتى يغلظ ساقه.

وقد كثّر الله الصحابة وقواهم ليكونوا غيظا للكافرين.

وهكذا يكون إيمان المسلم إذا دخل في الإسلام ضعيفا ، ثم يتقوى بصحبته وملازمته لأهل العلم والإيمان حتى يستوي ويكون مثلهم ، وربما أقوى منهم.

. **﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾** أي وعد الله تعالى الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ ، وعملوا صالح الأعمال أن يغفر ذنوبهم ، ويجزل أجرهم وثوابهم ، ويدخلهم الجنة ، ووعد الله حق وصدق وكائن لا محالة ، ولن يخلف الله وعده.

وهذا يشمل الصحابة وكل من اقتفى أثرهم ، وسار على منهجهم من أفواج الإيمان وجند الإسلام ، وتلاحق الأجيال. روى مسلم في صحيحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تسبّوا أصحابي ، فو الذي نفسي بيده ، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه».

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أثبتت الآية صفتي النبوة والرسالة لمحمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. ووصفت أصحابه بثماني صفات هي :

١ ـ ٢ : الشدة والصلابة والعنف على الأعداء الكفار ، والرحمة والرأفة والرفق والبر بالمؤمنين ، فهم أسود غضاب عبوسون في وجه الكفار الذين يعادونهم ، ضحوكون بشوشون في وجوه إخوتهم المؤمنين.

٣ ـ ٤ : يمتازون بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، مع وصفهم بالإخلاص فيها لله عزّوجلّ ، واحتساب جزيل الثواب وهو الجنة عند الله تعالى المشتملة على فضل الله وهو سعة الرزق عليهم ، ورضاه تعالى عنهم ، فهم يطلبون بعملهم المخلص الجنة ورضا الله تعالى.

٥ ـ علامتهم المميزة لهم النور والضياء في الدنيا والآخرة ، والسمت الحسن ، والخشوع والتواضع لله تعالى.

٦ ـ تلك الأوصاف وصفوا بها في كل من التوراة والإنجيل والقرآن.

٧ ـ كثرة الخير والبركة والنماء فيهم ، فإنهم كانوا قلة ضعافا ، ثم صاروا كثرة أشداء أقوياء ، كمثل الزرع الذي ينبت من حوله الفراخ ، ثم تقوى وتشتدّ وتكبر. ولقد فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار.

٨ ـ وعدهم الله تعالى جميعا وأمثالهم المتبعين لهم بإحسان وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة بمغفرة الذنوب والثواب الذي لا ينقطع وهو الجنة. وقد وردت آيات أخرى وأحاديث كثيرة في فضل الصحابة ، والنهي عن التعرض لهم بالإساءة ، والصحابة كلهم عدول ، وهم أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. وفيما سبق ذكرت بعض الأحاديث ، ومن قرأ الآية

السابقة : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [١٨] والآية : ﴿رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٢٣] وآيات سورة الحشر : ﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ .. وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ﴾ [٨ ـ ٩] من قرأ ذلك عرف مدى ثناء الله عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح. وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد والشيخان والترمذي عن ابن مسعود : «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم».

وقد استدل الإمام مالك رحمه‌الله بهذه الآية ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ ..﴾ على تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي‌الله‌عنهم ، قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة رضي‌الله‌عنهم ، فهو كافر لهذه الآية ، قال ابن كثير : ووافقه طائفة من العلماء رضي‌الله‌عنهم على ذلك. والظاهر أنهم فسّاق.

قال بعض العلماء عن خلافات الصحابة والاقتتال الذي حدث بينهم : «تلك دماء قد طهّر الله منها أيدينا ، فلا نلوّث بها ألسنتنا ، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته».

## بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة الحجرات

مدنيّة ، وهي ثماني عشرة آية.

**تسميتها :**

سميت سورة الحجرات لأن الله تعالى ذكر فيها تأديب أجلاف العرب الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات وهي حجرات (بيوت) نسائه المؤمنات الطاهرات رضي الله عنهن ، وكانت تسعا ، لكل واحدة منهن حجرة ، منعا من إيذاء النبي ﷺ وتوفيرا لحرمة بيوت أزواجه.

وتسمى أيضا سورة «الأخلاق والآداب» فقد أرشدت إلى آداب المجتمع الإسلامي وكيفية تنظيمه ، وأشادت بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال ، ونودي فيها بوصف الإيمان خمس مرات ، وأصول تلك الآداب خمسة وهي :

طاعة الله والرسول ﷺ ، وتعظيم شأن الرسول ﷺ ، والتثبت من الأخبار المنقولة ، وتحريم السخرية بالناس ، وتحريم التجسس والغيبة وسوء الظن.

**مناسبتها لما قبلها :**

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي سورة الفتح من نواح ثلاث ، هي :

١ ـ في السورة المتقدمة حكم قتال الكفار ، وفي هذه حكم قتال البغاة (أهل الثورة الداخلية).

٢ ـ ختمت السابقة بقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وافتتحت هذه ب ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ تذكيرا لهم بحرمتهم عند الله عند ما وصفهم بكونهم أشداء رحماء ، مما يقتضي محافظتهم على هذه الدرجة بطاعة الله تعالى والرسول ﷺ.

٣ ـ في كلتا السورتين تشريف وتكريم لرسول الله ﷺ ، خصوصا في مطلع كل منهما ، والتشريف يقتضي من المؤمنين الرضا بما رضي به الرسول ﷺ من صلح الحديبية ، وألا يتركوا شيئا من احترامه قولا وفعلا.

**ما اشتملت عليه السورة :**

موضوع هذه السورة كسابقتها أحكام شرعية لكونهما مدنيتين ، وهي أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع الإسلامي على أساس متين من التربية القوية ، والأخلاق الرصينة ، حتى إنها سميت «سورة الأخلاق» فهي في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب. وآدابها نوعان : خاص وعام.

أما الآداب الخاصة : فهي ماله علاقة بين النبي ﷺ وأمته. وقد ابتدأت السورة بها ، فأوجبت طاعة الله تعالى والرسول ﷺ وحذرت من المخالفة. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا ..﴾ ثم أمرت بخفض الصوت أثناء خطاب النبي ﷺ إجلالا له وهيبة منه وتعظيما لقدرة : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ ..﴾ ثم طالبت المؤمنين بخطاب الرسول ﷺ بصفة النبوة والرسالة ، لا باسمه وكنيته تعظيما واحتراما له ، وجعلت خفض الصوت عند رسول الله ﷺ من التقوى ، وذمّت من يناديه من وراء حجرات نسائه كعيينة بن حصن وأشباهه ، وذكرت السورة في آخرها ذمّ الامتنان على الله تعالى ورسوله ﷺ بالإيمان : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ ..﴾.

ثم تحدثت عن الآداب الاجتماعية العامة : وهي المتصلة بعلاقات الناس بعضهم مع بعض ، مما فيه تقرير فضيلة وذم رذيلة ، لإقامة دعائم المجتمع الفاضل.

فأمرت المؤمنين بالتثبّت من الأخبار وعدم الإصغاء للإشاعات التي يروجها الفسّاق ويتناقلونها : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ ..﴾ وأشادت بمقتضى الإيمان ، وكرّهت الكفر والفسوق والعصيان.

ثم أبانت طريق فض المنازعات الداخلية بين فئتين متقاتلتين من المؤمنين وهو الإصلاح ، وقتال الفئة الباغية (البغاة) حتى تعود لصف الجماعة والوحدة : ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأعلنت قيام رابطة الإخاء والود بين المؤمنين ، وحذرت من تفكك الجماعة المؤمنة وإثارة النزاع بين أفرادها ، وتوليد الأحقاد والضغائن والكراهية بسبب السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب ، سواء بين الرجال أو النساء ، أو بسبب سوء الظن بالمسلم والتجسس (تتبع العورات) والغيبة والنميمة.

ثم أعلنت مبدأ الإخاء الإنساني ، والمساواة بين الشعوب والأفراد من مختلف الأجناس والألوان والعناصر ، فلا عداوة ولا طبقية ولا عنصرية ، وإنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح ومكارم الأخلاق.

وختمت السورة بالكلام عن الأعراب ، فميّزت بين الإيمان والإسلام ، وذكرت غرر صفات المؤمنين وشروط المؤمن الكامل (الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله) وعابت المنّ على الرسول ﷺ بالإسلام ، ووضعت ضابط احترام القيم الدينية والأخلاقية ، وهو رقابة الله جل جلاله لعباده ، وعلمه بغيب السموات والأرض وأهلهما ، وبصره بجميع أعمال الخلق.

## طاعة الله تعالى والرسول ﷺ والتأدب في خطاب النبي ﷺ

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾

**الإعراب :**

﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ﴾ الكاف : في موضع نصب ، لأنها صفة مصدر محذوف ، تقديره : جهرا كجهر بعضكم. و ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾ : في موضع نصب : بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : لأن تحبط ، ويجوز أن يكون في موضع جر ، بإعمال حرف الجر مع الحذف.

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ .. أُولئِكَ﴾ : إما خبر ﴿إِنَ﴾ ، أو مبتدأ ، وخبره ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ والجملة منهما خبر ﴿إِنَ﴾. ويجوز أن يكون ﴿أُولئِكَ﴾ صفة ﴿الَّذِينَ﴾ ويكون ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ..﴾ خبر ﴿إِنَ﴾. و ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ : إما مرفوع بالظرف ، أو مبتدأ ، والظرف خبر مقدم عليه ، وهذا أوجه.

﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ أَكْثَرُهُمْ﴾ : مبتدأ ، و ﴿لا يَعْقِلُونَ﴾ : خبره ، والجملة منهما خبر ﴿إِنَ﴾.

**البلاغة :**

﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ استعارة تمثيلية ، شبّه حال الذين يبدون آراءهم أمام النبي ﷺ بحال من تقدم للسير أمام ملك أو حاكم عظيم ، وكان عليه أدبا أن يسير خلفه.

﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، لوجود أداة التشبيه.

**المفردات اللغوية :**

﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تقدّموا أمرا أو حكما أو رأيا دونهما ، أو لا تتقدموا ، مأخوذ من مقدّمة الجيش : من تقدم منهم ، والمراد : لا تقولوا بخلاف القرآن والسنة ، والمراد ب ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ : أمامهما ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ خافوه واحذروا مخالفة أمره ونهيه في التقديم أو مخالفة الحكم وغيرهما ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

﴿لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلمتموه ، فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي إذا ناجيتموه ، فلا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم ، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ، أو لا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضا إجلالا له ، وخاطبوا ب «يا أيها النبي» أو «يا رسول الله». وتكرير النداء بقوله ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لمزيد الاستبصار وضبط النفس ، وزيادة الاهتمام به والتعظيم له ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ﴾ أي لئلا [1] أو كراهة وخشية أن تحبط ، أي يبطل ثواب أعمالكم ، لأن في رفع الصوت والجهر استخفافا قد يؤدي إلى الكفر المحبط إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطة.

﴿يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ﴾ يخفضونها ويلينونها ﴿عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾ مراعاة للأدب أو مخافة مخالفة النهي ﴿امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ اختبرها ، والمراد : طهرها ونقّاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة ﴿لِلتَّقْوى﴾ أي مرّنها على التقوى ، وأعدها لها ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب عظيم لغضهم الصوت وسائر طاعاتهم ، وتنكير ﴿أَجْرٌ﴾ للتعظيم.

﴿مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ﴾ أي من خلف وخارج غرف نسائه ﷺ ، جمع حجرة : وهي قطعة من الأرض تحجّر بحائط ونحوه مثل الغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة أمام منصب النبي ﷺ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي لو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج ﴿لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ لكان الصبر خيرا لهم من الاستعجال ، لما فيه من الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبين للثناء والثواب ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين للأدب ، التاركين تعظيم الرسول ﷺ.

---

(١) قال الزجاج : التقدير : لأن تحبط ، فاللام المقدّرة لام الصيرورة.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١):**

﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا ..**﴾ : أخرج البخاري والترمذي وغيرهما عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمرّ الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ إلى قوله : ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا**﴾ أي أن الآيات نزلت في مجادلة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند النبي ﷺ في تأمير القعقاع بن معبد أو الأقرع بن حابس.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن البصري : أن أناسا ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر ، فأمرهم أن يعيدوا ذبحا ، فأنزل الله : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا ..**﴾.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ : ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة : أن أناسا كانوا يتقدمون الشهر ، فيصومون قبل النبي ﷺ ، فأنزل الله : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ**﴾.

**نزول الآية (٢):**

﴿**لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ**﴾ : أخرج ابن جرير عن قتادة قال : كانوا يجهرون له بالكلام ، ويرفعون أصواتهم ، فأنزل الله : ﴿**لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ**﴾ الآية.

وروي أن الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس كان في أذنه وقر ، وكان

جهوري الصوت ، وكان إذا كلّم إنسانا جهر بصوته ، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ ، فيتأذّى بصوته ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

**نزول الآية (٣):**

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾ : أخرج ابن جرير عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِ﴾ قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي ، فمرّ به عاصم بن عدي بن العجلان ، فقال : ما يبكيك؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فيّ ، وأنا صيّت رفيع الصوت ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فدعا به ، فقال : أما ترضى أن تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة؟ قال : رضيت ، ولا أرفع صوتي أبدا على صوت رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ﴾ الآية.

والقصة مروية أيضا في الصحيحين عن أنس بن مالك.

وقال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ﴾ تألّى أبو بكر ألا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السّرار [1] ، فأنزل الله تعالى في أبي بكر : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾.

**نزول الآية (٤):**

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ ..﴾ : أخرج الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم قال : جاء ناس من العرب إلى حجر النبي ﷺ ، فجعلوا ينادون : يا محمد ، يا محمد ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ﴾ الآية.

---

(١) السرار : المسارّة ، أي كصاحب السرار ، أو كمثل المساررة لخفض صوته ، والكاف صفة لمصدر محذوف.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة : أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ، إن مدحي زين ، وإن شتمي شين ، فقال النبي ﷺ : ذاك هو الله ، فنزلت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ﴾ الآية. وهو خبر مرسل له شواهد مرفوعة من حديث البراء وغيره عند الترمذي ، بدون نزول الآية ، وأخرج ابن جرير نحوه عن الحسن.

وأخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ، فلم يجبه ، فقال : يا محمد ، إن حمدي ، لزين ، وإن ذمي لشين ، فقال «ذلكم الله».

وقال محمد بن إسحاق وغيره : نزلت في جفاة بني تميم ، قدم وفد منهم على النبي ﷺ ، فدخلوا المسجد ، فنادوا النبي ﷺ من وراء حجرته أن اخرج إلينا يا محمد ، فإن مدحنا زين ، وإن ذمنا شين ، فآذى ذلك من صياحهم النبي ﷺ ، فخرج إليهم ، فقالوا : إنا جئناك يا محمد نفاخرك ، ونزل فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾. وكان فيهم الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، والزّبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم.

**التفسير والبيان :**

هذه باقة من الآداب الخاصة في معاملة النبي ﷺ من قبل المؤمنين على أساس من التوقير والاحترام والتعظيم.

١ ـ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يا أيها المؤمنون إيمانا صحيحا ، لا تتقدموا ولا تتعجلوا بقول أو حكم أو قضاء في أمر ما أو فعل قبل قضاء الله تعالى ورسوله ﷺ لكم فيه ، فربما تقضون بغير حق ، واتقوا الله في كل أموركم ، وراقبوه في عدم تخطي ما لم

يأذن به الله تعالى ورسوله ﷺ ، فإن الله سميع لأقوالكم ، عليم بأفعالكم ونياتكم ، لا يخفى عليه شيء منكم.

وهذا نهي واضح عن مخالفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وذكر الرسول ، لأنه مبلّغ عن الله تعالى شرعه ودينه. قال ابن عباس في الآية : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال الضحاك : لا تقضوا أمرا دون الله تعالى ورسوله ﷺ من شرائع دينكم.

والآية شاملة أيضا ترتيب مصادر الاجتهاد ، أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن : «بم تحكم؟ قال : بكتاب الله تعالى ، قال فإن لم تجد؟ قال : بسنة رسول الله ﷺ ، قال : فإن لم تجد؟ قال : أجتهد رأيي ، فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله» وهذا يعني أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه لكان تقديما بين يدي الله ورسوله. والخلاصة : هذا أدب شامل القول والفعل والاجتهاد ، ثم ذكر الله تعالى أدبا في القول فقال :

٢ ـ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله إذا تكلمتم مع الرسول ﷺ فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، لأن رفع الصوت يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام ، وخفض الصوت وعدم رفعه من التعظيم والتوقير. وهذا أدب ثان أدّب الله تعالى به المؤمنين ، وهو أدب محمود مع كل الناس أيضا.

٣ ـ ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي وإذا كلمتموه فخاطبوه بالسكينة والوقار ، خلافا لما تعتادونه من الجهر بالقول الدائر بينكم ، ولا تقولوا : يا محمد ويا أحمد ، ولكن يا نبي الله ، ويا رسول الله ، توقيرا له ،

وتقديرا لمهمته ورسالته التي يبلغكم بها في سكون وهدوء وعدم انزعاج وتبرم نفسي. وهذا أدب ثالث.

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أي نهاكم الله عن الجهر غير المعتاد وعن رفع الصوت خشية أن يذهب ثواب أعمالكم ، أو أن يؤدي الاستخفاف به إلى الكفر ، من حيث لا تشعرون بذلك ، كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مالك وأحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن بلال بن الحارث : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالا ، يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالا ، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض».

وبعد أن حذر من خطر المخالفة ، رغّب الله تعالى في خفض الصوت وحث عليه قائلا :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ، أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن الذين يخفضون أصواتهم في أثناء كلام رسول الله ﷺ وفي مجالسه ، أخلص الله قلوبهم للتقوى ، ومحّصها ، وجعلها أهلا ومحلا ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده من رديئه ، ويسقط خبيثه ، فكذلك هؤلاء المتأدبون عند رسول الله ﷺ ، طهر الله قلوبهم من كل قبيح ، ولهم مغفرة لذنوبهم ، وثواب عظيم على تأدبهم بخفض الصوت وسائر الطاعات. ونحو الآية : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح ٤٨ / ٩].

روى الإمام أحمد عن مجاهد قال : كتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ، ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله ﷺ من خلف أو قدام الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يفعل أجلاف الأعراب، فقال تعالى مرشدا لهم إلى ما هو الخير والأفضل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ أي إن الذين ينادونك من بعيد، من وراء حجرات (بيوت) نسائك، وهم جفاة بني تميم أكثرهم جهال لا يعقلون الأصول والآداب والأشياء، ولا يدركون ما يجب لك من التعظيم والاحترام. وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ إما أن يراد به الكل، لأن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل، احترازا عن الكذب واحتياطا في الكلام، أو يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي وليتهم لو صبروا حتى تخرج إليهم كالمعتاد، لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة، لما فيه من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ ورعاية جانبه الشريف، والعمل بما يستحقه من الإعظام والإجلال، والله غفور لذنوب الشريف، والعمل بما يستحقه من الإعظام والإجلال، والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب. وهذا حث على التوبة والإنابة.

### فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ ـ وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، وتقديم حكم القرآن والسنة على ما سواهما.

٢ ـ تعليم العرب وغيرهم مكارم الأخلاق وفضائل الآداب، إذ كان في العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب الناس.

٣ ـ قال القرطبي وابن العربي: قوله تعالى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء

به. وربما احتج نفاة القياس بهذه الآية ، وهو باطل منهم ، فإن ما قامت دلالته ، فليس في فعله تقديم بين يديه ، وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشريعة ، فليس فيه تقديم بين يديه (١).

٤ ـ الأمر بالتقوى وإيجابها عام في كل الأوامر والنواهي الشرعية ، ومنها التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله ﷺ المنهي عنه ، والله يراقب الناس ، فهو سميع لأقوالهم ، عليم بأفعالهم.

٥ ـ يجب خفض الصوت أثناء مخاطبة النبي ﷺ والامتناع من الجهر بالأصوات أعلى من صوته ، وإلا لم يتحقق من المؤمنين الاحترام الواجب للنبي ﷺ. وليس المراد النهي عن الجهر مطلقا بحيث يلزم الهمس ، وإنما النهي عن جهر مخصوص مقيد بصفة ، وهو الخالي عن مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب عنها.

٦ ـ ويجب أيضا على المؤمنين ألا يخاطبوا النبي ﷺ بقولهم : يا محمد ، ويا أحمد ، ولكن : يا نبي الله ، ويا رسول الله ، توقيرا له.

والهدف من هذين الواجبين تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره ، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته.

٧ ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي : حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كلّ حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به ، وقد نبّه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى : ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٣٠٢ وما بعدها ، أحكام القرآن : ٤ / ١٧٠١ وما بعدها.

[الأعراف ٧ / ٢٠٤] وكلام النبي ﷺ من الوحي وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة ، بيانها في كتب الفقه [١].

٨ ـ إن النهي المذكور عن رفع الصوت هو الصوت الذي لا يناسب ما يهاب به العظماء ويوقّر الكبراء. أما الصوت المرفوع الذي يقصد به الاستخفاف والاستهانة ، فلا شك أنه كفر. وأما الصوت الذي يرفع في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو ونحو ذلك ، فليس منهيا عنه ، لأنه لمصلحة ، ففي الحديث أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين : «اصرخ بالناس» وكان العباس أجهر الناس صوتا ، يروى أن غارة أتتهم يوما ، فصاح العباس : يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدة صوته.

٩ ـ إن مخالفة النهي في الآية برفع الصوت أكثر من الحالة المتوسطة المعتادة يؤدي إلى إحباط الأعمال وإبطال الثواب. وليس قوله : ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم. ويكون قوله ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى أن ارتكاب المآثم يجر الأعمال إلى الحبوط من حيث لا يشعر المرء به.

١٠ ـ إن الذي يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ إذا تكلموا إجلالا له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالا له ، أولئك الذين اختص الله قلوبهم للتقوى ، وطهرهم من كل قبيح ، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى ، ولهم مغفرة لذنوبهم ، وثواب عظيم وهو الجنة.

١١ ـ إن أعراب بني تميم الذين وفدوا على النبي ﷺ ، فدخلوا مسجد المدينة ، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجرته أن اخرج إلينا ، فإن مدحنا زين ،

---

(١) أحكام القرآن : ٤ / ١٧٠٣.

وذمّنا شين ، هم قوم جهلة ذوو طباع جافة قاسية. وكانوا سبعين رجلا ، وكان المنادي منهم الأقرع بن حابس ، في رواية الترمذي عن البراء بن عازب ، وكان النبي ﷺ نام للقائلة ، جاؤوا شفعاء في أسارى بني عنبر ، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم ، وفادى على النصف ، ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء.

وقال مقاتل : كانوا تسعة عشر : منهم قيس بن عاصم ، والزّبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وسويد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقعقاع بن معبد ، ووكيع بن وكيع ، وعيينة بن حصن ، وهو الأحمق المطاع.

١٢ ـ لو انتظروا خروجه ﷺ ، لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم ، وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.

١٣ ـ قوله : ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حث على التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

## الآداب العامة

## ـ ١ ـ

## وجوب التثبت من الأخبار

**﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾**

**الإعراب :**

﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ أَنْ تُصِيبُوا﴾ : في تقديره وجهان : إما كراهية أن تصيبوا ، أو لئلا تصيبوا. و ﴿بِجَهالَةٍ﴾ : حال من فاعل تبينوا ، أي جاهلين.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ أن وما بعدها سادّ مسدّ مفعولي ﴿اعْلَمُوا﴾.

﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ﴾ إما مفعول لأجله ، أو مصدر مؤكد لما قبله.

**البلاغة :**

﴿أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ التفات عن الخطاب للغيبة بعد قوله : ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ﴾.

بين ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وبين ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ﴾ ما يسمى بالمقابلة.

**المفردات اللغوية :**

﴿فاسِقٌ﴾ خارج عن حدود الدين أو الشرع ، مأخوذ من قولهم : فسق الرطب : إذا خرج من قشره ، والفسوق : الخروج من الشيء والانسلاخ منه ﴿بِنَبَإٍ﴾ خبر ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي اطلبوا بيان الحقيقة ومعرفة الصدق من الكذب ، وقرئ : فتثبتوا من الثبات ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً﴾ أي خشية ذلك أو كراهة إصابتكم ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ تصيروا ﴿عَلى ما فَعَلْتُمْ﴾ من الخطأ بالقوم ﴿نادِمِينَ﴾ مغتمين غما لازما ، متمنين أنه لم يقع.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ أي فلا تقولوا الباطل ، فإن الله يخبره بالحال ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ الذي تخبرون به على خلاف الواقع ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ لوقعتم في العنت وهو الجهد والهلاك والإثم ﴿وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ ..﴾ استدراك ببيان عذرهم ، وهو أنهم من فرط حبهم للإيمان وكراهتهم الكفر ، حملهم على ذلك لما سمعوا قول الفاسق ﴿وَزَيَّنَهُ﴾ حسّنه ﴿الْكُفْرَ﴾ تغطية نعم الله تعالى بجحودها ﴿الْفُسُوقَ﴾ الخروج عن الحد ﴿الْعِصْيانَ﴾ المخالفة ﴿أُولئِكَ﴾ البعض المتبينون ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ الثابتون على دينهم ، وهذه جملة معترضة ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، مأخوذ من الرشاد : وهو إصابة الحق واتباع طريق الاستقامة.

﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ تعليل لقوله : ﴿حَبَّبَ وَكَرَّهَ﴾ فإن التحبيب والرشد فضل من الله وإنعام ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ في إنعامه عليهم بالتوفيق.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (٦):**

﴿إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ﴾ : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة. أخرج ابن جرير وأحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن أبي الدنيا وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس : أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق مصدّقا [١] ، وكان بينهما إحنة [٢] ، فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ، فرجع فقال : إن القوم همّوا بقتلي ، ومنعوا صدقاتهم ، فهمّ النبي ﷺ بغزوهم ، فبيناهم في ذلك إذ قدم وفدهم ، وقالوا : يا رسول الله ، سمعنا برسولك ، فخرجنا نكرمه ، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة ، فاتهمهم النبي ﷺ وقال : «لتنتهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلا هو عندي كنفسي ، يقاتل مقاتلتكم ، ويسبي ذراريكم» ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه ، فقالوا : نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ﷺ .

وقيل : بعث إليهم خالد بن الوليد ، فوجدهم منادين بالصلاة ، متهجدين ، فسلموا إليه الصدقات ، فرجع.

ولا خلاف في أن الشخص الذي جاء بالنبإ هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط. والآية وإن وردت لسبب خاص فهي عامة لبيان التثبت ، وترك الاعتماد على قول الفاسق ، قال الحسن البصري : فو الله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة ، إنها لمرسلة إلى يوم القيامة ، ما نسخها شيء.

وأكد الرازي ذلك بأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سيء بعيد ، لأنه توهّم وظنّ فأخطأ ، والمخطئ لا يسمى فاسقا ، كيف والفاسق في أكثر المواضع : المراد به

---

(١) المصدّق : الذي يأخذ صدقات (زكوات) الغنم.

(٢) الإحنة : الحقد ، جمع إحن.

من خرج عن ربقة الإيمان ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ [المنافقون ٦٣ / ٦] وقوله تعالى : ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف ١٨ / ٥٠] وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ ، كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها﴾ [السجدة ٣٢ / ٢٠] (١).

لكن أكثر المفسرين على أن الوليد كان ثقة عند رسول الله ﷺ ، فصار فاسقا بكذبه ، والظاهر أنه سمي فاسقا تنفيرا وزجرا عن الاستعجال في الأمر من غير تثبت ، فهو متأول ومجتهد ، وليس فاسقا على الحقيقة.

**المناسبة :**

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بأمرين : وهما طاعة الله تعالى والرسول ﷺ ، وخفض الصوت عند الرسول ﷺ ، لبيان وجوب احترامه ، أردفه بأمر ثالث وهو وجوب التثبت من الأخبار ، والتحذير من الاعتماد على مجرد الأقوال ، منعا من إلقاء الفتنة بين أفراد المؤمنين وجماعتهم. وهذا أدب اجتماعي عام ضروري للحفاظ على وحدة الأمة ، واستئصال أسباب المنازعات فيما بينها.

**التفسير والبيان :**

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ ، فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ ، إن أتاكم فاجر لا يبالي بالكذب بخبر فيه إضرار بأحد ، فتبينوا الحقيقة ، وتثبتوا من الأمر ، ولا تتعجلوا بالحكم حتى تتبصروا في الأمر والخبر لتتضح الحقيقة وتظهر ، خشية أن تصيبوا قوما بالأذى ، وتلحقوا بهم ضررا لا يستحقونه ، وأنتم جاهلون حالهم ، فتصيروا على ما حكمتم عليهم بالخطإ نادمين على ذلك ، مغتمين له ، متمنين عدم وقوعه.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ١١٩

وفي تنكير ﴿فَاسِقٌ﴾ و ﴿بِنَبَإٍ﴾ دلالة على العموم في الفساق والأنباء ، كأنه قال : أيّ فاسق جاءكم بأي نبأ ، فتوقفوا وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق ، لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه [١].

والآية دالة على أن خبر الواحد العدل حجة ، وشهادة الفاسق لا تقبل.

ثم ذكّرهم بوجود رسول الله ﷺ بينهم ليعظموه ويسألوه ، فقال :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي اعلموا أن معكم رسول الله ، فعظموه ووقروه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، ولا تقولوا قولا باطلا ، ولا تتسرعوا بالحكم على الناس من غير تبين حقيقة الخبر ، ولو أطاعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار ، وتشيرون عليه من الآراء غير الصائبة ، لأدى ذلك إلى الوقوع في العنت ، وهو التعب والإثم والهلاك ، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل اتضاح الأمور ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر والتأمل فيه.

وإنما قال : ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ بلفظ الاستقبال دون : أطاعكم ، للدلالة على استمراره في التثبت والتحقق مما ينقل إليه من الأخبار ، بدليل قوله : ﴿فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي في كثير مما عنّ لهم من الآراء والأهواء ، فلو أرادوا منه الاستمرار في طاعته لهم ، لوقعوا في الإثم والهلاك.

وفي قوله ﴿فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ مراعاة لجانب المؤمنين حيث لم ينسب جميع آرائهم إلى الخطأ ، وفيه أيضا تعليم حسن وتأديب جميل في باب التخاطب ، وإشارة إلى تصويب رأي بعضهم ، ولهذا استدرك مشيرا إلى رأي بعضهم في ضرورة التريث إلى أن يتبين أمر بني المصطلق ، فقال :

---

(١) الكشاف : ٣ / ١٤٩

﴿وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ ، أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي ولكن الله حبّب أي قرّب الإيمان إلى بعضكم ، وإلا لم يحسن الاستدراك ب ﴿لكِنَ﴾ فلم يقع في ورطة التسرع في الأخبار ، وعدم التثبت فيها ، وكانوا أبرياء من اتهام الآخرين ، لأن الله جعل الإيمان أحب الأشياء إليكم ، وحسّنه بتوفيقه وتثبيته في أعماق قلوبكم ، وجعل كلا من الكفر (جحود الخالق وتكذيب الرسل) والفسوق (الخروج عن حدود الدين) والعصيان (المخالفة وعدم الطاعة) مكروها عندكم.

وهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين استقاموا على طريق الحق ، ومقتضى الشرع ، وأدب الدين ، فلم ينزلقوا في اتهام غيرهم دون تثبت.

﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي إن الله حبّب إليكم الإيمان ، وكرّه إليكم الأمور الثلاثة المتقدمة تفضلا منه عليكم ، وإنعاما من لدنه ، والله عليم بكل الأمور الحادثة والمستقبلة ، حكيم في تدبير شؤون خلقه ، وفي أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

### فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام التالية :

١ ـ وجوب التثبت من الأخبار المنقولة والروايات المروية ، أخذا بالحيطة والحذر ، ومنعا من إيذاء الآخرين بخطإ فادح ، فيصبح المتسرع في الحكم والتصديق نادما على العجلة وترك التأمل والتأني. لذا كان نبي الله ﷺ يقول : «التأني من الله ، والعجلة من الشيطان»(١).

٢ ـ في هذه الآية : ﴿إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ﴾ دليل على قبول خبر الواحد إذا

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن انس بن مالك ، وهو ضعيف.

كان عدلا ، لأنه إنما أمر المسلم في الآية بالتثبت عند نقل خبر الفاسق ، ومن ثبت فسقه ، بطل قوله في الأخبار إجماعا ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يبطلها ، فالفسق علة التبين ، فإن لم يوجد لم يكن علة. واستثنى الإجماع والدعاوي والإنكار والإقرار لغيره بحق على نفسه وإثبات حق مقصود على الغير أي أمور المعاملات ، كأن يقال : أرسل فلان إليك كذا أو هذا مالي ، ولو كان المخبر كافرا. أما في الإنشاء على غيره فقال الشافعي وغيره : لا يكون الكافر وليا في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك : يكون وليا ، لأنه يلي مالها ، فيلي تزويجها ، وإذا ولي المال فالنكاح أولى ، وهو وإن كان فاسقا في دينه إلا أن غيرته موفّرة ، وبها يحمي الحريم. ويرى الحنفية قبول شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض. والخلاصة : أن مراد الآية في الشهادات وإلزام الحقوق وإثبات أحكام الدين في غير الاعتقاد.

٣ . استدل بعضهم بالآية على أن الفاسق أهل للشهادة ، وإلا لم يكن للأمر بالتبين فائدة ، كما قال الألوسي. ومذهب الحنفية : أن الفاسق لا تقبل شهادته ، وإن كان أهلا لها ، ولو قضى بها القاضي كان عاصيا ، وينفذ قضاؤه [١].

٤ . استدل الحنفية بالآية على قبول خبر الواحد المجهول الحال ، لأن الآية دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت والتبين ، فيقتصر فيه على محل وروده ، ويبقى ما وراءه على الأصل ، وهو القبول.

٥ . في الآية أيضا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم (أي اليقين) بدليل وجوب التثبت فيه ، إذ لو كان يوجب العلم بحال ، لما احتيج فيه إلى التثبت [٢].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٣٩٨

(٢) المرجع السابق : ص ٣٩٩

٦ . قال ابن العربي : ومن العجب أن يجوّز الشافعي ونظراؤه إمامة الفاسق. ومن لا يؤتمن على حبّة مال ،كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين؟! ومن صلّى خلف الفاسق تجب عليه الإعادة سرا في نفسه ، ولكن لا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة خلف من لا يرضى من الأئمة (١).

٧ . إذا كان الفاسق واليا ينفذ من أحكامه ما وافق الحق ، ويردّ ما خالفه ، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال.

٨ . لا خلاف في قبول قول الفاسق إذا كان رسولا عن غيره في قول يبلغه أو شيء يوصله أو إذن يعلمه ، وهذا جائز للضرورة الداعية إليه. لكن لا يقبل قوله فيما إذا تعلق بقول الفاسق حق للغير.

٩ . استدل بعضهم بالآية على أن من الصحابة من ليس بعدل ، لأن الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن عقبة ، فإنها نزلت فيه ، ولا يمكن إخراج سبب النزول من اللفظ العام ، وهو صحابي بالاتفاق. وقال أكثر العلماء : الصحابة كلهم عدول.

١٠ . الفاسق نوعان : فاسق غير متأول ، وهذا لا خلاف في أنه لا يقبل خبره. وفاسق متأول كالجبرية والقدرية ، ويقال له : المبتدع بدعة واضحة ، وفي هذا خلاف ، فمن الأصوليين كالشافعي : من ردّ شهادته وروايته معا ، ومنهم من قبلهما وهم جمهور الفقهاء والمحدثين ، لأن رد شهادته لتهمة الكذب ، والفسق اعتقاد لا يمنع الصدق ، وأما الرواية فمن احترز عن الكذب على غير الرسول ﷺ ، فهو على الرسول ﷺ أشد تحرزا.

١١ . إن قضى الفاسق بما يغلب على الظن ، كالقضاء بالشاهدين العدلين ، لم

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٤ / ١٧٠٣ وما بعدها.

يكن ذلك عملا بجهالة ، وإنما العمل بجهالة : قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقوله.

١٢ ـ إن وجود الرسول ﷺ في أصحابه ركن تثبت وأناة وتأن ، فيمنع التسرع في إصدار الأحكام ، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه ، لكان خطأ ، ووقع في العنت (الإثم والمشقة والهلاك) من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم. ويكون المراد من قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ ألا تكذبوا ، فإن الله تعالى يعلم رسوله ﷺ أنباءكم ، فتفتضحون.

١٣ ـ ذكر الله الإيمان وقابله بأمور ثلاثة كرهها إليهم وهي الكفر والفسوق والعصيان ، والإيمان اسم لثلاثة أشياء : التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح (الأعضاء). والكفر : هو الإنكار وهو يقابل الإذعان بالجنان ، والفسوق يقابل الإقرار باللسان ، والعصيان يقابل العمل البدني ، فهو ترك العمل بالطاعات والأحكام الشرعية ويشمل جميع المعاصي وهذا يعني أن المؤمن المتثبت لا يكذب.

١٤ ـ استدلت الأشاعرة بقوله ﴿حَبَّبَ وَكَرَّهَ﴾ على مسألة خلق الأفعال ، أي أن الله تعالى خلق أفعال العباد وذواتهم وصفاتهم وألسنتهم وألوانهم ، لا شريك له ، لقوله تعالى : ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ٩٦]. وهذا رد على القدرية (١) والإمامية والمعتزلة الذين يقولون : إن الإنسان يخلق

---

(١) الجبرية والقدرية : فرقتان شاذتان في العقيدة خرجا عما عليه جمهور العلماء ، تقول الأولى : إن الله تعالى مجبر للعبد على فعله ، وليس لإرادة الإنسان واختياره دخل حقيقي فيها وتقول الثانية : إن العبد خالق لأفعاله ، دون أن يكون لله عليه سلطان فيها (الشافي شرح أصول الكافي للشيخ عبد الله المظفر : ٢ / ٢٣٦ ، والكافي تأليف العلامة محمد بن يعقوب الكليني الرازي).

أفعال نفسه. ويؤولون آية ﴿حَبَّبَ ... وَكَرَّهَ﴾ على اللطف والتوفيق.

١٥ ـ إن الذين وفقهم الله ، فحبّب إليهم الإيمان ، وكرّه إليهم الكفر ، أي قبّحه عندهم هم الراشدون ، والله فعل ذلك بهم فضلا منه ونعمة من لدنه ، والفضل : ما في خزائن الله من الخير ، وهو مستغن عنه ، والنعمة : ما يصل من الفضل إلى العبد ، وهو ما يحتاج إليه.

وفي تسميتهم بالراشدين إشارة إلى أنهم أقاموا على اتباع أمر الرسول ﷺ ، والتزموا إرشاده ، وعرفوا مقامه ومكانه بينهم ، فاستحقوا الرشد ، وكانوا راشدين. وفيه تعريض بالفريق الآخر حيث ابتعدوا عما يوصلهم إلى الرشد.

١٦ ـ إن الله تعالى عليم بكل شيء ، يعلم من يتحرى الخير ومن لا يتحراه ، ومن يريد الرسول ﷺ على ما لا تقتضي به الحكمة ومن لا يريده ، وهو فوق هذا يعلم الأشياء ، ويعلم الرسول ﷺ بها ، ويأمره بما تقضي به الحكمة ، فيجب الوقوف عند أمره ، واجتناب الاقتراح عليه.

١٧ ـ كان النبي ﷺ في دعائه يدعو دائما بمضمون الآية [٧] أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال : لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ : «استووا حتى أثني على ربي عزّوجلّ ، فصاروا خلفه صفوفا ، فقال ﷺ :

اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرّب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

اللهم أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف. اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا.

اللهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين. اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدّون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق».

ـ ٢ ـ

## وسائل فض المنازعات الداخلية حكم البغاة

﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾

**الإعراب :**

﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا طائِفَتانِ﴾ : مرفوع بفعل مقدر ، تقديره : وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، ولا يجوز أن يحذف الفعل مع كلمات الشرط العاملة إلا مع «إن» لأنها الأصل في حروف الشرط ، ويثبت للأصل ما لا يثبت للفرع.

والقياس : اقتتلتا ، كما قرأ ابن أبي عيلة ، أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير ، على تأويل الرهطين أو النفرين ، وإنما قال : اقتتلوا في قراءة حفص حملا على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس ، فكل طائفة جماعة ، والطائفة أقل من الفرقة.

**البلاغة :**

﴿اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بينهما طباق.

﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تشبيه بليغ ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه ، وأصله المؤمنون كالإخوة في التراحم.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير مضافا إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتحضيض.

**المفردات اللغوية :**

﴿طائِفَتانِ﴾ تثنية طائفة : الجماعة من الناس ﴿اقْتَتَلُوا﴾ جمع الفعل ، لأن الطائفتين في معنى القوم أو الناس ، أو لأن أقل الجمع اثنان. ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾ بالنصح والدعوة إلى حكم الله ، وامنعوهما عن القتال بالنصيحة أو بالتهديد والتعذيب ﴿بَغَتْ﴾ تعدت وتجاوزت الحد وجارت ، من البغي : الظلم ﴿تَفِيءَ﴾ ترجع ﴿إِلى أَمْرِ اللهِ﴾ الحق ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ﴾ أزيلوا آثار النزاع بضمان المتلفات بالإنصاف ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ اعدلوا في كل الأمور من الإقساط : إزالة القسط وهو الجور ، والقاسط : الجائر ، كما في آية : ﴿وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن ٧٢ / ١٥] يقال : أقسط : عدل ، وقسط : أخذ حق غيره ، والمقسط : العادل ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين ، أي يحمد فعلهم بحسن الجزاء.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين والعقيدة والإيمان الموجب للحياة الأبدية ، فالأخوة في الدين أقوى وأدوم من أخوة النسب والصداقة ، وهو تعليل للأمر بالإصلاح ، لذا كرر الإشارة إلى الإخاء مرتبا عليه الأمر بالإصلاح ، فقال : ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا تنازعا ، وخص الاثنين بالذكر ، لأنهما أقل من يقع بينهم الشقاق ، وقرئ : إخوتكم وإخوانكم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ في مخالفة حكمه والإهمال فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على تقواكم.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (٩):**

﴿وَإِنْ طائِفَتانِ ..﴾ : أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وغيرهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه : «أنه قيل لرسول الله ﷺ : يا نبي الله ، لو أتيت عبد الله بن أبيّ ، فانطلق إليه على حمار ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سبخة ، فبال الحمار فقال : إليك عني ، فو الله لقد آذاني نتن حمارك ، فقال عبد الله بن رواحة : والله ، إن بول حماره أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فوقع بينهم حرب بالجريد والأيدي والنّعال ، فأنزل الله فيهم : ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ..﴾».

وقيل : كان النبي ﷺ متوجها لزيارة سعد بن عبادة في مرضه ، فمر على عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال ما قال ، فرد عليه عبد الله بن رواحة ، فتعصب لكل أصحابه ، فتقاتلوا ، فنزلت ، فقرأها ﷺ ، فاصطلحوا ، وكان ابن رواحة خزرجيا ، وابن أبيّ أوسيا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السّدّي قال : كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد ، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها ، وجعلها في علّية له ، لا يدخل عليها أحد من أهلها ، فبعثت المرأة إلى أهلها ، فجاء قومها ، وأنزلوها لينطلقوا بها ، واستعان الرجل بقومه ، فجاءوا ليحولوا بين المرأة وأهلها ، فتدافعوا وكان بينهم معركة ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ ، فأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله تعالى.

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيدعون إلى الحكم ، فيأبوا أن يجيبوا ، فأنزل الله : ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ ..﴾.

وأخرج ابن جرير أيضا عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار ، كانت بينهما مدارأة في حق بينهما ، فقال أحدهما للآخر : لآخذنه عنوة ، لكثرة عشيرته ، وإن الآخر دعا ليحاكمه إلى النبي ﷺ ، فأبى ، فلم يزل الأمر ، حتى تدافعوا ، وحتى تناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف.

والخلاصة : يمكن أن تتعدد أسباب النزول ، والوقائع المذكورة متشابهة.

**المناسبة :**

بعد أن حذر الله تعالى المؤمنين من نبأ الفاسق ، أبان هنا ما يترتب على خبره من الفتنة والنزاع ، وربما الاقتتال ، فطلب تعالى الإصلاح بالوسائل السلمية بين المتنازعين كالنصيحة والوعظ والإرشاد والتحكيم ، فإن بغت إحدى الفئتين على الأخرى ، فتقاتل الباغية الظالمة. ثم علل الأمر بالصلح بوجود رباط الأخوة بين الفريقين ، ثم أمر الوسطاء والأطراف المتنازعة بتقوى الله وطاعة أوامره.

**التفسير والبيان :**

﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾ أي إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فيجب على ولاة الأمور الإصلاح بالنصح والدعوة إلى حكم الله والإرشاد وإزالة الشبه وأسباب الخلاف.

والتعبير بإن للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقع القتال بين المسلمين ، وأنه إن وقع ، فإنما هو نادر قليل. والخطاب في الآية لولاة الأمور ، والأمر فيها للوجوب.

وقد استدل البخاري وغيره بهذا على أن المعصية وإن عظمت لا تخرج من

الإيمان ، خلافا للمعتزلة والخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر وهو في النار.

وثبت في صحيح البخاري عن أبي بكرة ﵁ قال : إن رسول الله ﷺ خطب يوما ، ومعه على المنبر الحسن بن علي ﵄ ، فجعل ينظر إليه مرة ، وإلى الناس أخرى ، ويقول: «إن ابني هذا سيّد ، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». فكان كما قال ﷺ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى ، فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ﴾ أي فإن اعتدت وتجاوزت الحد إحدى الفئتين على الأخرى ، ولم تذعن لحكم الله وللنصيحة ، فعلى المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى حكم الله وما أمر به من عدم البغي. والقتال يكون بالسلاح وبغيره ، يفعل الوسيط ما يحقق المصلحة ، وهي الفيئة ، فإن تحقق المطلوب بما دون السلاح كان مسرفا في الزيادة ، وإن تعين السلاح وسيلة فعل حتى الفيئة.

﴿فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي رجعت الفئة الباغية عن بغيها ، بعد القتال ، ورضيت بأمر الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم ، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى ، حتى لا يتجدد القتال بينهما مرة أخرى.

واعدلوا أيها الوسطاء في الحكم بينهما ، إن الله يحب العادلين ويجازيهم أحسن الجزاء. وهذا أمر بالعدل في كل الأمور.

أخرج ابن أبي حاتم والنسائي عن عبد الله بن عمرو ﵄ قال : إن

رسول الله ﷺ قال : «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ ، بين يدي الرحمن عَزَّجَلَّ بما أقسطوا في الدنيا» [(١)].

وأخرج مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور ، على يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولّوا».

ثم أمر الله تعالى بالإصلاح في غير حال القتال ولو في أدنى اختلاف ، فقال :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي تتميما للإرشاد ذكر تعالى أن المؤمنين إخوة في الدين ، ويجمعهم أصل واحد وهو الإيمان ، فيجب الإصلاح بين كل أخوين متنازعين ، وزيادة في أمر العناية بالإصلاح بين الأخوين أمر الله بالتقوى ، والمعنى : فأصلحوا بينهما ، وليكن رائدكم في هذا الإصلاح وفي كل أموركم تقوى الله وخشيته والخوف منه ، بأن تلتزموا الحق والعدل ، ولا تحيفوا ولا تميلوا لأحد الأخوين ، فإنهم إخوانكم ، والإسلام سوّى بين الجميع ، فلا تفاضل بينهم ولا فوارق ، ولعلكم ترحمون بسبب التقوى وهي التزام الأوامر واجتناب النواهي.

ويلاحظ أنه قال : اتقوا الله عند تخاصم رجلين ، ولم يقل ذلك عند إصلاح الطائفتين ، لأنه في حالة تخاصم الرجلين يخشى اتساع الخصومة ، وأما في حال تخاصم الطائفتين فإن أثر الفتنة أو المفسدة عام شامل الكل.

وكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر تفيد أنه لا أخوة إلا بين المؤمنين ، ولا أخوة بين المؤمن والكافر ، لأن الإسلام هو الرباط الجامع بين أتباعه ، وتفيد أيضا أن أمر الإصلاح ووجوبه إنما هو عند وجود الأخوة في الإسلام ، لا بين الكفار. فإن كان

---

(١) إسناده جيد قوي ، ورجاله على شرط الصحيح.

الكافر ذميا أو مستأمنا وجبت إعانته وحمايته ورفع الظلم عنه ، كما تجب إعانة المسلم ونصرته مطلقا إن كان خصمه حربيا.

وجاءت أحاديث كثيرة تؤيد أخوة الدين ، جاء في الصحيح : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه» وفي الصحيح أيضا : «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» وفي الصحيح كذلك : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر» «المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشدّ بعضه بعضا ، وشبّك بين أصابعه ﷺ».

وأخرج أحمد عن سهل بن سعد الساعدي رضي‌الله‌عنه عن رسول الله ﷺ قال : «إن المؤمن من أهل الأديان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألم المؤمن لأهل الإيمان ، كما يألم الجسد لما في الرأس».

**فقه الحياة أو الأحكام :**

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ يجب على ولاة الأمور وحكام الدول الإسلامية الإصلاح بين فئتين متقاتلتين مسلمتين ، بالدعوة إلى كتاب الله لهما أو عليهما ، وبالنصح والإرشاد ، والجمع والتوفيق بين وجهات النظر.

٢ ـ فإن تعدّت إحدى الفئتين ولم تستجب إلى حكم الله وكتابه ، وتطاولت وأفسدت في الأرض ، فيجب قتالها باستعمال الأخف فالأخف حتى الفيئة إلى أمر الله ، أي الرجوع إلى كتابه ، فإن رجعت وجب حمل الفئتين على الإنصاف والعدل ، فإن الله يحب العادلين المحقين ، ويجازيهم أحسن الجزاء.

والفئة الباغية في اصطلاح الفقهاء : فرقة خالفت الإمام بتأويل سائغ في

الظاهر ، باطل بطلانا مطلقا بحسب الظن لا القطع. أما المرتد فتأويله باطل قطعا ، فليس باغيا ، وكذا الخوارج في الاعتقاد دون قتال المسلمين وهم صنف من المبتدعة يكفّرون من أتى بمعصية كبيرة ، ويسبّون بعض الأئمة ، ليسوا بغاة ، وكذلك مانع حق الشرع لله أو للعباد ليس باغيا ، لأنه لا تأويل له.

ولا بد أن يكون للبغاة شوكة وعدد وعدد يحتاج الإمام في دفعهم إلى كلفة ببذل مال أو إعداد رجال ، فإن كانوا أفرادا يسهل ضبطهم فليسوا بأهل بغي.

وأكثر العلماء على أن البغاة ليسوا بفسقة ولا كفرة ، لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾. وقال علي رضي الله عنه : إخواننا بغوا علينا ، ولكنهم يخطئون فيما يفعلون ، ويذهبون إليه من التأويل ، مثل الخوارج الذين خرجوا على عليّ رضي الله عنه ، ومثل معاوية وأتباعه كانوا بغاة للحديث المشهور أن عمارا تقتله الفئة الباغية ، ومثل مانعي الزكاة في عهد أبي بكر.

٣ ـ في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن المؤمن بارتكاب المعصية الكبيرة كالقتل وعقوق الوالدين وأكل الربا وأكل مال اليتيم لا يخرج عن كونه مؤمنا ، لأن الباغي جعل من إحدى الطائفتين ، وسماهما تعالى مؤمنين.

٤ ـ إن قتال الفئة الباغية لدفع الصائل. وفصل العلماء الحكم في البغاة فقالوا : إن اقتتلت فئتان على البغي منهما جميعا ، أصلح بينهما ، فإن لم يصطلحا وأقامتا على البغي ، قوتلتا.

وإن كانت إحداهما باغية على الأخرى ، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن ترضى بالصلح ، فإن تم الصلح بينها وبين المبغي عليها ، وجب عقده بالقسط والعدل. فإن أثيرت شبهة أزيلت بالحجة النيّرة والبرهان القاطع الدال على الحق. وفي الآية دلالة على أن اعتقاد مذاهب أهل البغي لا يوجب قتالهم ما لم

يقاتلوا ، لأنه تعالى قال : ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا ..﴾[(١)].

٥ ـ في الآية دليل واضح على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين ، وعلى إبطال قول من منع من قتال المؤمنين ، محتجا بحديث أخرجه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن ابن مسعود : «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر». ونص الآية صريح في الرد على هذا ،

٦ ـ قال ابن العربي : هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإياها عنى النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بقوله : «تقتل عمّارا الفئة الباغية» [(٢)] أي عمار بن ياسر.

٧ ـ لا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة.

٨ ـ الأمر بقتال البغاة فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضي‌الله‌عنهم عن هذا الأمر ، كسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمرو ، ومحمد بن مسلمة وغيرهم ، وصوّب ذلك علي بن أبي طالب رضي‌الله‌عنه عملهم ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه.

٩ ـ قوله تعالى : ﴿فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ﴾ يدل على أن من العدل في صلحهم ألا يطالبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال ، فإنه تلف على تأويل ، وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستمرار في البغي.

١٠ ـ ما يبدأ به البغاة : إذا خرجت على الإمام العدل فئة خارجة باغية

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٣١٧ ، أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٤٠١

(٢) أحكام القرآن : ٤ / ١٧٠٥

ولا حجة لها ، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافة أو بمن فيه كفاية ، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة ، وهو الحق الذي دعا الله إليه قبل القتال ، فإن أبوا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم ، ولا يذفّف [١] على جريحهم ، ولا تسبى ذراريهم [٢] ولا أموالهم. وإذا قتل العادل الباغي أو الباغي العادل وهو وليّه لم يتوارثا ، ولا يرث قاتل عمدا على حال. وأما الذين لهم تأويل بلا شوكة فيلزمهم ضمان ما أتلفوا من نفس ومال كقطاع الطرق إذا قاتلوا.

١١ . ما استهلكه البغاة : إن ما استهلك أثناء تجمع البغاة والخوارج للقتال والتفرق عند انتهاء الحرب من دم أو مال ، لا ضمان فيه بالإجماع.

١٢ . أموال البغاة وأسراهم وجرحاهم : اختلف الفقهاء في أموال البغاة التي أخذت منهم أثناء قتالهم ، فقال محمد بن الحسن : لا تكون أموالهم غنيمة ، وإنما يستعان بسلاحهم وكراعهم (خيولهم) على حربهم ، فإذا انتهت الحرب رد المال إليهم.

وروي عن أبي يوسف أن ما وجد في أيدي أهل البغي من كراع وسلاح ، فهو فيء يقسم ويخمس ، وإذا تابوا لم يؤخذوا بدم ولا مال استهلكوه.

وقال مالك والأوزاعي والشافعي : ما استهلكه الخوارج من دم أو مال ، ثم تابوا لم يؤخذوا به ، وما كان قائما بعينه ردّ إليهم.

وقال أبو حنيفة : يضمنون.

وأما أسراهم وجرحاهم فلا يقتلون.

---

(١) تذفيف الجريح : الإجهاز عليه.

(٢) الذراري : النساء والأطفال.

والقول الأصح : ما فعله الصحابة في حروبهم ، لم يتبعوا مدبرا ، ولا ذفّفوا على جريح ، ولا قتلوا أسيرا ، ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ، وهم القدوة في ذلك ، قال ابن عمر قال النبي ﷺ : «يا عبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها» وأخرج الحاكم مثل ذلك عن ابن مسعود ، وروي مثله عن ابن عباس.

أما ما كان قائما رد بعينه.

١٣ ـ أقضية البغاة وأحكامهم : لو تغلب البغاة على بلد ، فأخذوا الصدقات ، وأقاموا الحدود ، وحكموا فيهم بالأحكام ، لم تثنّ عليهم الصدقات ولا الحدود ، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافا للكتاب أو السنة أو الإجماع ، كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة.

وأما أقضيتهم في الخصومات ، فقال أبو يوسف ومحمد : لا ينبغي لقاضي الجماعة أن يجيز كتاب قاضي أهل البغي ولا شهادته ولا حكمه ، إلا أن يوافق رأيه ، فيستأنف القضاء فيه [1].

١٤ ـ لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذا كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوا وأرادوا الله عزّوجلّ ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد أمرنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بخير ، لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبّهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم. وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال : ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ ، وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ ، وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة ٢ / ١٣٤]. وسئل بعضهم عنها أيضا فقال : «تلك دماء قد طهّر الله منها يدي ، فلا أخضّب بها لساني» أي

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٤٠٣

تحرزا من الوقوع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه. وقال ابن فورك : إن سبيل ما جرى بين الصحابة من المنازعات ، كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف.

١٥ . إنما المؤمنون إخوة في الدين والحرمة ، لا في النسب ، ذكر القرطبي : أخوّة الدين أثبت من أخوة النسب ، فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب (١). جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا (٢) ، وكونوا عباد الله إخوانا».

وقد سبق إيراد أحاديث كثيرة في تآخي المسلمين ، فالمسلمون إخوة ، وكأن الإسلام أب لهم ، ينتمون إليه كما ينتمي الإخوة إلى أبيهم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه　　إذا افتخروا بقيس أو تميم

١٦ . في آية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ والتي قبلها دليل كما تقدم على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان ، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين ، مع كونهم باغين ، قال الحارث الأعور : سئل علي بن أبي طالب ﷺ . وهو القدوة . عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفّين : أمشركون هم؟قال : لا ، من الشرك فرّوا ، فقيل : أمنافقون؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ، قيل له : فما حالهم؟ قال : إخواننا بغوا علينا.

وفي هذه الآية دليل على جواز إطلاق لفظ الإخوة بين المؤمنين من جهة

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٣٢٢

(٢) التحسس : الاستماع لحديث القوم ، والتجسس : تتبع العورات والمعايب ، والتناجش : أن تزيد في ثمن سلعة ولا رغبة لك في شرائها.

الدين. وقوله : ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ دليل على أن من رجا صلاح ما بين متعاديين من المؤمنين أن عليه الإصلاح بينهما (١).

## ٣٠

## آداب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾

**الإعراب :**

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ الْفُسُوقُ﴾ : بدل من ﴿الِاسْمُ﴾ ، لإفادته أنه فسق.

﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ أصله : تتجسسوا ، فحذف منه إحدى التاءين.

﴿لِتَعارَفُوا﴾ أصله لتتعارفوا ، حذف منه إحدى التاءين.

**البلاغة :**

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً؟﴾ تشبيه تمثيلي ، مثّل المغتاب بمن يأكل لحم الإنسان الميت ، وفيه تقبيح التشبيه بأقبح الصور.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٤٠٤.

**المفردات اللغوية :**

﴿لا يَسْخَرْ﴾ لا يهزأ ولا يحتقر ولا يعيب ، والسّخرية والسخرى : الازدراء والاحتقار ، ويقال : سخر به وسخر منه. وقد تكون السخرية : بمحاكاة القول أو الفعل أو الإشارة. ﴿قَوْمٌ﴾ هم الرجال دون النساء ، فالقوم مختص بالرجال ، لأنهم قوّامون على النساء. ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يعب بعضكم بعضا ، ولا تعيبوا ، فتعابوا ، واللمز : الطعن والتنبيه إلى المعايب بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما.

﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ﴾ أي لا تتداعوا بالمكروه من الألقاب ، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفا ، ومنه : يا فاسق ، ويا كافر. ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ﴾ أي ساء الاسم والصيت ، وهو المذكور من السخرية واللمز والتنابز ، بأن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به ، والمراد تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين ، مأخوذ من قولهم : طار اسمه في الآفاق أي ذكره وشهرته. ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ من ذلك المنهي عنه. ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهم لا غيرهم ظلمة ، بوضع العصيان موضع الطاعة ، وتعريض النفس للعذاب.

﴿اجْتَنِبُوا﴾ تباعدوا وكونوا بمنأى عنه أو على جانب منه. ﴿كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ حد وسط بين العلم (اليقين) والشك أو الوهم ، وهو ما يطرأ للنفس بسبب شبهة أو أمارة قوية أو ضعيفة. وإبهام الكثير ليحتاط في كل ظن ويتأمل من أي نوع ، فبعض الظن واجب الاتباع كالاجتهاد في الأحكام العملية وحسن الظن بالله ، وبعضه حرام كالظن في الإلهيات والنبوات ، أو عند مصادمة الدليل القاطع ، وظن السوء بالمؤمنين ، وبعضه مباح كالظن في الأمور المعاشية.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي ذنب مؤثم موجب العقوبة عليه ، وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين ، وهو تعليل مستأنف للأمر بالاجتناب. ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ التجسس : البحث عن العورات والمعايب وكشف ما ستره الناس. ﴿وَلا يَغْتَبْ﴾ الغيبة : ذكرك أخاك بما يكره في غيبته ، وإن كان العيب فيه. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً؟﴾ أي لا يحسن به ، وهو تمثيل لما يناله المغتاب من عرض غيره على أفحش وجه ، مع مبالغات الاستفهام المقرّر ، وإسناد الفعل إلى أحد للتعميم ، وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة ، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، وجعل المأكول أخا وميتا ، وتعقيب ذلك بقوله : ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي تقريرا وتحقيقا لذلك ، أي فاغتيابه في حياته كأكل لحمه بعد مماته ، وقد عرض عليكم أكل لحوم البشر فكرهتموه ، فاكرهوا الغيبة التي هي مثل الأكل المذكور. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عقاب الله في الاغتياب ، بأن تتوبوا منه. ﴿إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ قابل توبة التائبين بكثرة ، رحيم بهم ، فيجعل صاحب التوبة كمن لم يذنب.

﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى﴾ من آدم وحواء عليهما السلام ، أو من أب وأم ، فالكل سواء في ذلك ، فلا وجه للتفاخر بالنسب ما دام أصلهم واحدا ﴿شُعُوباً﴾ جمع شعب : وهم الجماعة من الناس التي لها وطن خاص ، أو من أصل واحد كربيعة ومضر ، وهو يجمع القبائل وأعم منها. ﴿وَقَبائِلَ﴾ جمع قبيلة : وهي ما دون الشعب. وطبقات النسل عند العرب سبع : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، مثاله : خزيمة : شعب ، وكنانة : قبيلة ، وقريش : عمارة ، وقصي : بطن ، وعبد مناف : فخذ ، وهاشم : فصيلة ، والعباس : عشيرة.

﴿لِتَعارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضا ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل ، فلا تتفاخروا بعلو النسب ، وإنما الفخر بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ بالتقوى تكمل النفوس وتتفاضل الأشخاص ، والتقوى : التزام المأمورات واجتناب المنهيات ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بكم وبكل شيء ، خبير ببواطنكم وأسراركم كجهركم.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١١):**

﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ : قال الضحاك : نزلت في وفد بني تميم الذين تقدم ذكرهم في بيان سبب نزول الآية الأولى من هذه السورة ، استهزءوا بفقراء الصحابة ، مثل عمّار وخبّاب وابن فهيرة وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم ، لما رأوا من رثاثة حالهم ، فنزلت في الذين آمنوا منهم. وقال مجاهد : هو سخرية الغني من الفقير. وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله ، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة. وقيل : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس عيّره رجل بأم كانت له في الجاهلية ، فنكس الرجل استحياء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلما ، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت.

والخلاصة : لا مانع من تعدد وقائع النزول ، فقد يكون كل ما ذكر سببا لنزول الآية ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

**نزول الآية (١١) أيضا :**

﴿وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ﴾ : قال ابن عباس : إن صفيّة بنت حييّ بن أخطب أتت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، إن النساء يعيّرنني ، ويقلن لي : يا يهودية بنت يهوديّين! فقال رسول الله ﷺ : «هلا قلت : إن أبي هارون ، وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد» فأنزل الله هذه الآية.

وقيل : نزلت في نساء النبي ﷺ عيّرن أم سلمة بالقصر.

**نزول الآية (١١) كذلك :**

﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ﴾ : أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة ، فيدعى ببعضها ، فعسى أن يكرهه ، فنزلت : ﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ﴾ قال الترمذي : حسن.

وأخرج الحاكم وغيره من حديث أبي جبيرة أيضا قال : كانت الألقاب في الجاهلية ، فدعا النبي ﷺ رجلا منهم بلقبه ، فقيل له : يا رسول الله ، إنه يكرهه ، فأنزل الله : ﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ﴾. ولفظ أحمد عنه قال : فينا نزلت في بني سلمة : ﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ﴾ قدم النبي ﷺ المدينة ، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا ، فنزلت [١].

**نزول الآية (١٢):**

﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : زعموا

---

(١) ورواه أيضا البخاري في الأدب وأهل السنن.

أنها نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد ، فذكر رجل أكله ورقاده ، فنزلت.

**نزول الآية (١٣):**

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة قال : لما كان يوم الفتح ، رقي بلال على ظهر الكعبة ، فأذّن ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذّن على ظهر الكعبة؟ فقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيّره أو إن يرد الله شيئا يغيره ، فأنزل الله : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى﴾ الآية ، فدعاهم النبي ﷺ وزجرهم على التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء.

وقال ابن عساكر في مبهماته : وجدت بخط ابن بشكوال أن أبا بكر بن أبي داود أخرج في تفسير له أنها نزلت في أبي هند ، أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوه امرأة منهم ، فقالوا : يا رسول الله : نزوج بناتنا موالينا؟ فنزلت الآية. قال الزهري : نزلت في أبي هند خاصة.

**المناسبة :**

بعد أن بيّن الله تعالى وأرشد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ، ومع النبي ﷺ ، ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بيّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة ، من الامتناع عن السخرية ، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب ، وإساءة الظن وتتبع عورات الناس ومعايبهم ، والغيبة والنميمة ، ووجوب المساواة بين الناس ، واعتقاد أن معيار التفاضل والتمييز هو التقوى والصلاح وكمال الأخلاق.

ويلاحظ سمو الترتيب الإلهي في سرد الآداب العامة في الموضوعات المذكورة ، حيث رتّب الله تعالى وقوع النزاع والاقتتال بين الطوائف والأفراد

على أبناء الفاسقين ، ثم نهى عن الأخلاق المرذولة التي ينشأ عنها النزاع ، ثم أعلن وحدة الإنسانية في الأصل والمنشأ ، كل ذلك من أجل الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية ، وجعلها مثالا يحتذي في التعامل مع الأمم والشعوب الأخرى ، لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله في كل مكان.

**التفسير والبيان :**

هذه أخلاق الإسلام وآدابه العالية أدّب الله تعالى بها عباده المؤمنين وهي :

١ ـ النهي عن السخرية بالناس ، وهو احتقارهم وازدراؤهم والاستهزاء بهم :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ، عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله لا يهزأ رجال من آخرين ، فربما كان المسخور بهم عند الله خيرا من الساخرين بهم ، أو قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ، فهذا حرام قطعا ، ذكر فيه علة التحريم أو النهي ، كما قال بعضهم :

لا تهين الفقير علّك أن تركع يوما ، والدهر قد رفعه

فقوله : ﴿عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ تعليل للنهي.

وقال صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ فيما رواه الحاكم وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ـ «ربّ أشعث أغبر ذي طمرين [1] تنبو عنه أعين الناس ، لو أقسم على الله لأبرّه» ورواه أحمد ومسلم بلفظ : «رب أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرّه».

وبالرغم من أن النساء يدخلن عادة في الخطاب التشريعي مع الرجال ، فقد أفردهن بالنهي هنا دفعا لتوهم عدم شمول النهي لهن ، وأكد معنى النهي للنساء أيضا ، وذلك بالأسلوب نفسه ، فنص على نهي الرجال ، وعطف بنهي النساء ،

---

(١) الطّمر : الثوب الخلق البالي.

بصيغة الجمع ، لأن أغلب السخرية تكون في مجامع الناس ، فقال : ولا يسخر نساء من نساء ، فلعل المسخور منهن يكنّ خيرا من الساخرات.

ولا يقتصر النهي على جماعة الرجال والنساء ، وإنما يشمل الأفراد ، لأن علة النهي عامة ، فتفيد عموم الحكم لعموم العلة.

أخرج مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فالتميز إنما يكون بإخلاص الضمير ، ونقاء القلب ، وإخلاص الأعمال لله عزّ وجلّ ، لا بالمظاهر والثروات ، ولا بالألوان والصور ، ولا بالأعراق والأجناس.

٢ ـ النهي عن الهمز واللمز ، أي التعييب بقول أو إشارة خفية :

﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تلمزوا الناس ، ولا يطعن بعضكم على بعض ، ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو فعل أو إشارة. وقد جعل الله لمز بعض المؤمنين لمزا للنفس ، لأنهم كنفس واحدة ، فمتى عاب المؤمن أخاه ، فكأنما عاب نفسه ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء ٤ / ٢٩] أي لا يقتل بعضكم بعضا. أخرج أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكى رأسه اشتكى كله ، وإن اشتكى عينه اشتكى كله».

والهماز اللماز مذموم ملعون ، كما قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة ١٠٤ / ١]. والهمز يكون بالفعل ، واللمز يكون بالقول ، وقد عاب الله من اتصف بذلك في قوله : ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم ٦٨ / ١١] أي : يحتقر الناس ويهمزهم طاعنا بهم ، ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال (١).

(١) انظر الفروق للقرافي : الفرق بين قاعدة الغيبة وقاعدة النميمة والهمز واللمز : ٤ / ٢٠٩

والفرق بين السخرية واللمز : أن السخرية احتقار الشخص مطلقا ، على وجه مضحك بحضرته ، واللمز : التنبيه على معايبه ، سواء أكان على شيء مضحك أم غيره ، وسواء أكان بحضرته أم لا ، وعلى هذا يكون اللمز أعم من السخرية ، ويكون من عطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول.

٣ ـ التنابز بالألقاب أي التداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها : ﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ﴾ أي لا يلقّب بعضكم بعضا لقب سوء يغيظه ، كأن يقول المسلم لأخيه المسلم : يا فاسق ، يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودي أو يا نصراني ، أو يقول لأي إنسان : يا كلب ، يا حمار ، يا خنزير ، ويعزر المرء القائل ذلك بعقوبة تعزيرية. وقد نص العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره ، سواء أكان صفة له أم لأبيه أم لأمه ، أم لكل من ينتسب إليه. والتنابز يقتضي المشاركة بين الاثنين ، وعبر بذلك لأن كل واحد سرعان ما يقابل الآخر بلقب ما ، فالنبز يفضي في الحال إلى التنابز ، بعكس اللمز يكون غالبا من جانب ، ويحتاج للبحث عن عيب ما يرد به.

ويستثني من ذلك : أن يشتهر بلقب لا يسوؤه ، فيجوز إطلاقه عليه ، كالأعمش والأعرج من رواة الحديث. أما الألقاب المحمودة فلا تحرم ولا تكره كما قيل لأبي بكر : عتيق ، ولعمر : الفاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلي : أبو تراب [١] ، ولخالد : سيف الله ، ولعمرو بن العاص : داهية الإسلام.

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ﴾ أي ساء الوصف أن يسمى الرجل فاسقا أو كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته ، أو أن يذكر بالفسوق بعد الدخول في الإيمان. والفسوق : هو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يفعلون بعد ما دخلوا في الإسلام وعقلوه. والمراد : ذم اجتماع صفة الفسوق بسبب التنابز

---

(١) لما عليه من التراب عند ما أيقظه ﷺ من نومه تحت نخيل في أرض بني مدلج.

بالألقاب مع الإيمان ، وذلك تغليظ وتنفير شديد ، حيث جعل التنابز فسقا ، وهو تعليل للنهي السابق.

﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ومن لم يتب عما نهى الله عنه من الأمور الثلاثة (السخرية ، واللمز ، والتنابز بالألقاب) فهو من الظالمين ، بل هم لا غيرهم الظالمون أنفسهم ، بسبب العصيان بعد الطاعة ، وتعريض النفس للعذاب.

وسبب وصف العصاة بالظلم : أن الإصرار على المنهي كفر ، إذ جعل المنهي كالمأمور ، فوضع الشيء في غير موضعه.

٤ ـ النهي عن سوء الظن وتحريمه :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي يا أيها المصدقون بالله ورسوله ، ابتعدوا عن كثير من الظن ، فيشمل بعض الظن ، وهو أن يظن بأهل الخير سوءا ، وهذا هو الظن القبيح ، وهو متعلق بمن ظاهره الصلاح والخير والأمانة.

أما أهل السوء والفسوق المجاهرون بالفجور ، كمن يسكر علانية أو يصاحب الفاجرات ، فيجوز ظن السوء به لتجنبه والتحذير من سلوكه ، دون تكلم عليه ، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم.

ثم علل الله تعالى النهي بأن بعض الظن وهو ظن السوء بأهل الخير ، أو ظن الشر بالمؤمن ذنب مؤثم أي موقع في الإثم ، لنهي الله عنه ، كما قال تعالى : ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ [الفتح ٤٨ / ١٢] أي هلكى.

وقد وردت أحاديث كثيرة في تحريم سوء الظن بالمؤمن ، منها ما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة

ويقول : «ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده ، لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ، ماله ودمه ، وأن يظن به إلا خيرا».

قال ابن عباس في الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن إلا خيرا.

ومنها ما رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسّسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا».

وفي رواية أخرى لمسلم والترمذي : «لا تقاطعوا ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» والتدابر : الهجر والقطيعة.

٥ . تحريم التجسس :

﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم ، وتستكشفوا ما ستروه ، وتستطلعوا أسرارهم ، فالتجسس : البحث عما هو مكتوم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم. أما التجسس : فهو البحث عن الأخبار ، والاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون ، أو يتسمع على أبوابهم.

أخرج أبو داود وغيره عن أبي برزة الأسلمي قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه ، لا تتّبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين ، فضحه الله في قعر بيته».

وأخرج الطبراني عن حارثة بن النعمان ﵁ قال : قال

رسول الله ﷺ : «ثلاث لازمات لأمتي : الطّيرة [١] والحسد وسوء الظن ، فقال رجل : وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ : إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيّرت فامض».

وأخرج أبو داود أيضا عن أبي أمامة وآخرين من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال : «إن الأمير إذا ابتغى الريبة من الناس أفسدهم».

قال أبو قلابة : حدّث عمر بن الخطاب أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ، فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ، فقال أبو محجن : إن هذا لا يحل لك ، قد نهاك الله عن التجسس ، فخرج عمر وتركه.

٦ ـ تحريم الغيبة ، وهي ذكرك أخاك بما يكره :

﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ؟﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضا في غيبته بما يكره ، سواء أكان الذكر

---

(١) الطيرة : ما يتشاءم به من الفأل الرديء ، والأدق أن يقال : التطير : هو الظن السيء الكائن في القلب ، والطيرة : هو الفعل المرتب على هذا الظن من فرار أو غيره ، وكلاهما حرام ، لأنه «كان ﷺ يحب الفأل الحسن ، ويكره الطيرة» ولأنها من باب سوء الظن بالله تعالى. والفأل : هو ما يظن عنده الخير ، عكس الطيرة والتطير ، والفأل الحسن : كالكلمة الحسنة والتسمية بالاسم الحسن ، والفأل الحرام : كأخذ الفأل من المصحف وضرب الرمل والقرعة والضرب بالشعير ، وجميع هذا النوع حرام ، لأنه من باب الاستقسام بالأزلام. والأزلام : أعواد كانت في الجاهلية : مكتوب على أحدها : افعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، وعلى الآخر : غفل ، فيخرج أحدها ، فإن وجد عليه : افعل ، أقدم على حاجته ، أو لا تفعل ، أعرض عنها واعتقد أنها ذميمة ، أو خرج المكتوب عليه : غفل ، أعاد الضرب ، فهو طلب قسمة الغيب بتلك الأعواد ، ويسمى استقساما ، أي طلب القسم الجيد من الرديء (انظر الفروق للقرافي ، الفرق بين قاعدة التطير وقاعدة الطيرة وما يحرم منهما وما يحرم منهما وما لا يحرم ، والفرق بين قاعدة الطيرة وقاعدة الفأل الحلال والفأل الحرام : ٤ / ٢٣٨ ، ٢٤٠).

صراحة أم إشارة أم نحو ذلك ، لما فيه من الأذى بالمغتاب. وهو يتناول كل ما يكره ، سواء في دينه أو دنياه ، في خلقه أو خلقه ، في ماله أو ولده أو زوجته أو خادمه أو لباسه ونحو ذلك.

وقد فسر النبي ﷺ الغيبة فيما رواه أبو داود والترمذي وابن جرير عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ : «ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه» أي فإن كان الوصف موجودا فيه فهو الغيبة ، وإن كان مفترى والمغتاب خال من ذلك ، فذلك هو البهتان.

وروى أبو داود أيضا عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا ـ أي قصيرة ـ فقال ﷺ : «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» قال معاوية بن قرّة : لو مرّ بك رجل أقطع (مقطوع اليد) فقلت : هذا أقطع كان غيبة.

ثم شبّه الله تعالى الغيبة بأكل لحم الإنسان الميت للتنفير ، وهو أيحب أحدكم أن يتناول لحم أخيه بعد موته؟ فكما كرهتم هذا ، فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا ، فإنه تعالى مثّل الغيبة بأكل جثة الإنسان الميت ، وهذا من التنفير ، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية ، فضلا عن كونه محرّما شرعا ، وفي الآية أنواع من المبالغات : منها الاستفهام للتقرير ومحبة المكروه ، وإسناد الفعل إلى ﴿أَحَدُكُمْ﴾ للإشعار بأن لا أحد يحب ذلك ، وتقييد المكروه بأكل لحم الإنسان ، وتقييد الإنسان بالأخ ، وجعل الأخ أو اللحم ميتا ، فيه مزيد تنفير للطبع.

وهذا دليل على تحريم الغيبة وعلى قبحها شرعا ، لذا كانت الغيبة محرّمة بالإجماع وعلى المغتاب التوبة إلى الله والاستحلال ممن اغتابه ، ولا يستثني من

ذلك إلا ما رجحت مصلحته ، كما في الجرح والتعديل والنصيحة ، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر فيما رواه البخاري عن عائشة : «ائذنوا له ، بئس أخو العشيرة». وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها ، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له» (١).

وتحريم الغيبة مرتبط بحماية الكرامة الإنسانية ، ثبت في الأحاديث الصحيحة من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع فيما رواه الشيخان عن أبي بكرة : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا».

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «كل المسلم على المسلم حرام : ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

وروى أبو داود أيضا عن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم ، فإن من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته ، يفضحه في بيته».

﴿وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فراقبوه في ذلك واخشوا منه ، وأكرهوا الغيبة وتباعدوا عنها ، إن الله تواب على من تاب إليه ، رحيم بمن رجع إليه واعتمد عليه.

قال جمهور العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ، وأن يعزم على ألا يعود ، ويندم على ما فعل ، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله ، فإنه إذا أعلمه بذلك ، ربما تأذى أشد مما إذا لم

---

(١) سبل السلام : ٣ / ١٢٩ ط البابي الحلبي.

يعلم بما كان منه ، فطريقه إذن أن يثني عليه في المجالس التي كان يذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته ، لتكون تلك بتلك ، كما روى الإمام أحمد وأبو داود عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من حمى مؤمنا من منافق يغتابه ، بعث الله تعالى إليه ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمنا بشيء يريد سبه ، حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال».

٧ ـ المساواة بين الناس في الأصل والمنشأ ، والتفاضل بالتقوى :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ، وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ كان النداء السابق لأهل الإيمان لتأديبهم بالأخلاق الفاضلة ، ونادى هنا بصفة الناس الذي هو اسم الجنس الإنساني ، ليناسب بيان المطلوب ، ويؤكد ما نهى عنه سابقا ، وليعمم الخطاب للناس جميعا منعا من السخرية واللمز وغير ذلك على الإطلاق ، فقال : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الآية.

والمعنى : أيها البشر ، إنا خلقناكم جميعا من أصل واحد ، من نفس واحدة ، من آدم وحواء ، فأنتم متساوون ، لأن نسبكم واحد ، ويجمعكم أب واحد وأم واحدة ، فلا موضع للتفاخر بالأنساب ، فالكل سواء ، ولا يصح أن يسخر بعضكم من بعض ، ويلمز بعضكم بعضا ، وأنتم إخوة في النسب.

وقد جعلناكم شعوبا (أمة كبيرة تجمع قبائل) وقبائل دونها لتتعارفوا لا لتتناكروا وتتحالفوا ، والمقصود أن الله سبحانه خلقكم لأجل التعارف ، لا للتفاخر بالأنساب.

وإن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى ، فمن اتصف بها كان هو الأكرم والأشرف والأفضل ، فدعوا التفاخر ، إن الله عليم بكم وبأعمالكم ، خبير ببواطنكم وأحوالكم وأموركم.

والآية دليل للمالكية الذين لم يشترطوا الكفاءة في الزواج ، سوى الدين ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾.

وقد وردت أحاديث صحاح كثيرة ، منها ما رواه أبو بكر البزار في مسنده عن حذيفة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان».

وروى ابن أبي حاتم والترمذي عن ابن عمر ﷺ قال : طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده ، فما وجد لها مناخا في المسجد ، حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال ، فخرج بها إلى بطن المسيل ، فأنيخت ، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

«يا أيها الناس ، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برّ تقي كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقي هيّن على الله تعالى ، إن الله عزّ وجلّ يقول : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ، وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ثم قال ﷺ : أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم» (١).

وروى الطبري في آداب النفوس قال : «خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق ، وهو على بعير ، فقال :

يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلّغت؟ قالوا : نعم ، قال : فليبلّغ الشاهد الغائب».

---

(١) فيه راو ضعيف ، وهو عبد الله بن جعفر ، والد علي بن المديني.

وقد تقدم ذكر حديث مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وعند الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم».

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١ ـ حرّم الله تعالى بدلالة النهي في الآية الأولى ثلاثة أشياء : هي السخرية ، واللمز ، والتنابز بالألقاب ، ومن فعل ما نهى الله عنه منها فذلك فسوق ، وهو لا يجوز ، وهو من الظالمين أنفسهم بتعريضها بسبب ظلمه غيره إلى العذاب والعقاب إن لم يتب. والعلة واضحة وهي احتمال أن يكون المسخور منه والملموز والملقّب خيرا ممن عابه.

واستثني من التنابز بالألقاب المكروهة من غلب عليه اللقب في الاستعمال والشهرة ، فلم يعد يعرف إلا بها ، كالأعرج والأحدب والأعمش.

أما الألقاب الحسنة كالصدّيق لأبي بكر ، والفاروق لعمر ، وذي النورين لعثمان ، وتلقيب خزيمة بذي الشهادتين ، وأبي هريرة بذي الشمالين ، والخرباق بن عمرو بذي اليدين ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله ، فذلك جائز مقبول مألوف بين العرب والعجم. لهذا كانت التسمية بالأسماء الحسنة مطلوبة. ذكر الزمخشري : روي عن النبي ﷺ : «من حق المؤمن على المؤمن أن يسمّيه بأحب أسمائه إليه. وكانت التكنية من السنة والأدب الحسن» قال عمر رضي الله عنه : «أشيعوا الكنى فإنها منبّهة ، وقد لقّب أبو بكر بالعتيق

والصديق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله ، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها ـ من العرب والعجم ـ تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير».

٢ ـ كذلك حرّم الله سبحانه بدلالة النهي أيضا في الآية الثانية ثلاثة أشياء : هي سوء الظن بأهل الخير والصلاح والإيمان ، والتجسس ، والغيبة.

والظن أنواع [(١)] :

الأول ـ ظن واجب أو مأمور به : كحسن الظن بالله تعالى وبالمؤمنين ، كما جاء في الحديث القدسي فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة : «أنا عند ظن عبدي بي» وقال النبي ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» وقال أيضا فيما رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة : «حسن الظن من حسن العبادة» ومثل قبول شهادة العدول ، وتحري القبلة ، وتقويم المستهلكات وأروش الجنايات غير المقدرة شرعا.

الثاني ـ ظن محظور أو حرام : كسوء الظن بالله ، وبأهل الصلاح ، وبالمسلمين مستوري الحال ، ظاهري العدالة ، قال النبي ﷺ : «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظنّ به ظنّ السوء» ذكره القرطبي والألوسي ، وقال أيضا عن عائشة مرفوعا : «من أساء بأخيه الظن فقد أساء الظن بربه ، إن الله تعالى يقول : اجتنبوا كثيرا من الظن».

روى أبو داود عن صفية قالت : كان رسول الله ﷺ معتكفا. فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته وقمت ، فانقلبت فقام معي ليقلبني [(٢)] ، وكان مسكنها في دار

---

(١) انظر وقارن وراجع عمدة القاري شرح البخاري للعيني : ٢٢ / ١٣٧ ، الطباعة المنيرية ، ١٨ / ١٧٩ ط البابي الحلبي.

(٢) أي فانصرفت فقام معي ليصرفني.

أسامة بن زيد ، فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ : على رسلكما ، إنها صفية بنت حييّ ، قالا : سبحان الله ، يا رسول الله! قال : «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ، فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا أو سوءا»[1].

أما من يجاهر بالخبائث أو يتعاطى الريب ، فلا يحرم إساءة الظن به ، فليس الناس أحرص منه على نفسه ، وقد أمر الله أن يتجنب الإنسان مواضع الريبة ومواقف التهم.

الثالث ـ ظن مندوب إليه : كإحسان الظن بالأخ المسلم ، وإساءة الظن إذا كان المظنون به ظاهر الفسق ، قال ﷺ : «من الحزم سوء الظن» وقال أيضا فيما رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي عن أنس ، وهو ضعيف : «احترسوا من الناس بسوء الظن». فإذا كان الظن لاتقاء الشر ولا يتعدى إلى الغير ، فهو من هذا النوع ، محمود غير مذموم ، وعليه يحمل هذان الحديثان ، وما جاء في الحكم : «حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة».

وحرمة سوء الظن بالناس : إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير.

الرابع ـ ظن مباح : كالظن في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية العملية بالاجتهاد ، والعمل بغالب الظن في الشك في الصلاة ، كم صلّى ثلاثا أو أربعا.

وأما التجسس فهو من الكبائر وهو البحث عن الأمور المكتومة أو السرية ، ومنه الجاسوس ، وكذلك التحسس وهو الاستماع لحديث القوم وهم له كارهون حرام أيضا ، لكنه قد يستعمل في البحث عن الخير ، كما قال تعالى : ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف ١٢ / ٨٧].

والغيبة أيضا حرام ، وهي من الكبائر بالإجماع كما ذكر القرطبي ، وأن من

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٤٠٦

اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، مع استحلال المغتاب في رأي جماعة ، ودون استحلاله في رأي آخرين كما تقدم.

والفرق بين الغيبة والإفك والبهتان : أن الغيبة أن تقول في أخيك ما هو فيه ، والإفك : أن تقول فيه ما بلغك عنه ، والبهتان : أن تقول فيه ما ليس فيه. والله تعالى نفرّ من الغيبة أشد تنفير ، مشبها الاغتياب بأكل لحم الإنسان ميتا.

وقد ذكر العلماء أشياء ليس لها حكم الغيبة ، فالغيبة لا تحرم إذا كانت لغرض صحيح شرعا لا يتوصل إليه إلا به وهي ستة أمور [١] :

الأول ـ التظلم : فلمن ظلم تقديم شكوى للحاكم لإزالة ظلمه ، لحديث أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة : «دعوه فإن لصاحب الحق مقالا» وحديث أخرجه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة : «مطل الغني ظلم» أو «ليّ الواجد يحلّ عرضه وعقوبته» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه عن الشريد.

الثاني ـ الاستعانة على تغيير المنكر : بأن يذكره لمن يظن قدرته على تغييره ، لقوله تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء ٤ / ١٤٨].

الثالث ـ الاستفتاء : كأن يقول للمفتي : ظلمني فلان بكذا ، فما طريق الوصول إلى حقي؟ لقول هند للنبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه عن عائشة : «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم فخذي».

الرابع ـ التحذير من الفسّاق : فلا غيبة لفاسق فاجر كمدمن خمر وارتياد أماكن الفجور ، للحديث الذي رواه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدي عن بهز بن حكيم : «اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس» وفي رواية للبيهقي

---

(١) انظر الإحياء للغزالي : ٣ / ١٣٢

عن أنس ، وهو ضعيف : «من ألقى جلباب الحياء ، فلا غيبة له ، واتقوا الله فيما نهاكم ، وتوبوا فيما وجد منكم» (١).

الخامس ـ التحذير من سر عام : كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمفتين مع عدم الأهلية ، ونصح الخاطب والشريك ونحو ذلك.

السادس ـ التعريف بلقب مشهور إذا لم تمكن المعرفة بغيره ، كالأعور والأعمش والأعرج. وصنف القرافي ما استثناه العلماء من الغيبة المحرمة وهي ست صور كما يلي : النصيحة ، والتجريح والتعديل في الشهود ، والمعلن بالفسوق ، وأرباب البدع والتصانيف المضلة ، ينبغي أن يشهر الناس فسادها وعيبها ، والعلم السابق بالمغتاب به بين المغتاب والمغتاب عنده ، والدعوى عند ولاة الأمور (٢).

٣ ـ ذكرت الآية الثالثة ثلاثة أشياء : المساواة ، وتعارف المجتمع الإنساني ، وحصر التفاضل بالتقوى والعمل الصالح.

أما المساواة : فالناس سواسية كأسنان المشط في الأصل والمنشأ الإنساني ، فهم من أب وأم واحدة ، وفي الحقوق والواجبات التشريعية ، وهذه أصول الديمقراطية الحقة.

وقد أبان الله أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى ، ولو شاء لخلقه من غيرهما كخلقه لآدم ، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه‌السلام ، أو دون أنثى كخلقه حواء ، أو دون أب كخلقه عيسى عليه‌السلام.

وأما التعارف : فإن الله خلق الخلق أنسابا وأصهارا ، وقبائل وشعوبا من أجل التعارف والتواصل والتعاون ، لا للتناكر والتقاطع ، والمعاداة واللمز والسخرية والغيبة المؤدية إلى التنازع والعداوة ، ولا للتفاخر بالأنساب والأعراق

---

(١) أما حديث «لا غيبة لفاسق» فلم يصح.

(٢) الفروق : الفرق بين الغيبة المحرمة والغيبة التي لا تحرم : ٤ / ٢٠٥ ـ ٢٠٨

والأصول ، فكل ذلك اعتبارات وهمية مصطنعة تتعارض مع وحدة الأصل والمنشأ الإنساني.

وأما التقوى : فهي ميزان التفاضل بين الناس ، فالأكرم عند الله ، الأرفع منزلة لديه تعالى في الدنيا والآخرة هو الأتقى الأصلح لنفسه وللجماعة ، فإن حدث تفاخر فليكن بالتقوى التي هي التزام المأمورات واجتناب المنهيات.

أخرج الترمذي عن سمرة عن النبي ﷺ قال : «الحسب المال ، والكرم التقوى» وفي حديث آخر : «من أحب أن يكون أكرم الناس ، فليتق الله». وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «إن الله تعالى يقول يوم القيامة : إني جعلت نسبا ، وجعلتم نسبا ، فجعلت أكرمكم أتقاكم ، وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبي ، وأضع وأنسابكم ، أين المتقون ، أين المتقون؟!».

وروى الطبري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أوليائي المتقون يوم القيامة ، وإن كان نسب أقرب من نسب ، يأتي الناس بالأعمال ، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ، تقولون : يا محمد ، فأقول : هكذا وهكذا» وأعرض في كل عطفيه.

٤ ـ احتج مالك بآية ﴿إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى﴾ على عدم اشتراط النسب في الكفاءة في الزواج إلا الدين ، فيجوز زواج الموالي بالعربية ، وقد تزوج سالم مولى امرأة من الأنصار هندا بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف ، وتزوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ، فالكفاءة إنما تراعى في الدّين فقط. قال ﷺ في الحديث الذي رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة): «تنكح المرأة لما لها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدّين ، تربت يداك».

وقال الجمهور : يراعى الحسب والمال ، عملا بالأعراف ، ومراعاة لواقع الحياة المعيشية ، وتحقيقا لهدف الزواج وهو الدوام والاستقرار.

## أصول الإيمان الصحيح

﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٨)﴾

**الإعراب :**

﴿لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً يَلِتْكُمْ﴾ : من لات يليت ، مثل باع يبيع ، وقرئ : لا يألتكم ، من ألت يألت ، والقراءتان بمعنى واحد ، يقال : لات يليت ، وألت يألت : إذا نقصه.

﴿لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ منصوب بنزع الخافض أي بإسلامكم ، أو يضمن الفعل معنى الاعتداد.

**البلاغة :**

﴿آمَنَّا ، قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ بينهما طباق السلب.

﴿أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ؟﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ.

**المفردات اللغوية :**

﴿الْأَعْرابُ﴾ سكان البادية. ﴿آمَنَّا﴾ صدّقنا بما جئت به من الشرائع ، وامتثلنا الأوامر ، والإيمان : التصديق بالقلب مع الثقة والطمأنينة. ﴿أَسْلَمْنا﴾ انقدنا ظاهرا ، والإسلام : الاستسلام والانقياد الظاهري وإظهار الشهادتين وترك المحاربة. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ﴾ لم يدخل الإيمان في قلوبكم إلى الآن ، لكنه يتوقع منكم. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص وترك النفاق. ﴿لا يَلِتْكُمْ﴾ لا ينقصكم. ﴿مِنْ أَعْمالِكُمْ﴾ من ثواب أعمالكم. ﴿وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط من المؤمنين. ﴿رَحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الصادقو الإيمان ، بدليل ما بعده. ﴿لَمْ يَرْتابُوا﴾ لم يشكّوا في شيء من الإيمان. ﴿وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في طاعة الله ورضوانه. ﴿أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هم الذين صدقوا في إيمانهم ، لا من قالوا : آمنا ولم تؤمن قلوبهم ، ولم يوجد منهم غير الإسلام الظاهري.

﴿أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ؟﴾ أتخبرونه بقولكم : آمنا؟. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ ..﴾ لا يخفى عليه خافية ، وهو تجهيل لهم وتوبيخ. ﴿يَمُنُّونَ﴾ يمتنون ويعدون إسلامهم عليك منّة ونعمة مسداة لك. ﴿لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ أي لا تمتنوا علي بإسلامكم. ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ﴾ أي بحسب زعمكم ، علما بأن الهداية لا تستلزم الاهتداء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله ، أي فلله المنة والفضل عليكم.

﴿غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما. ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ في سركم وعلانيتكم ، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (١٤):**

﴿قالَتِ الْأَعْرابُ﴾ : نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة ، قدموا المدينة في سنة جدبة ، وأظهروا الشهادتين ، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنون عليه ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية [(١)].

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٢٢٥

وقال السّدّي : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والدّيل وأشجع ، قالوا : آمنّا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلّفوا [١].

**المناسبة :**

بعد أن حث الله تعالى على التقوى ، قالت الأعراب : لنا النسب الشريف ، فلنا الشرف ، فذمّهم الله تعالى ، وأبان ضعف إيمانهم ، وحدد أصول الإيمان الصحيح : وهي التصديق بالله ورسوله ، والإخلاص في القلب ، والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله وطاعته وإعلاء دينه ، وأخبر بأن الله يعلم ما في السرائر والعلانية ، فيعلم ما هم عليه من ضعف الإيمان وقوته ، وأفاد بأنه لا ينبغي لمؤمن أن يمتن على الرسول ﷺ بإيمانه ، بل الله يمن عليه بتوفيقه للهداية على يد رسوله ﷺ .

**التفسير والبيان :**

﴿**قالَتِ الْأَعْرابُ : آمَنَّا ، قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ أي قالت جماعة من سكان البادية وهم بنو أسد أول ما دخلوا الإسلام مدعين لأنفسهم مقام الإيمان : صدقنا بالله ورسوله وتمكن الإيمان في قلوبنا ، فرد الله تعالى عليهم مبينا لهم أنهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل ، ولم يصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة وثقة تامة بالله عزّ وجلّ ، وأمرهم بأن يقولوا : انقدنا لك يا رسول الله واستسلمنا ، وسالمناك فلا نحاربك. وأعلمهم بأنه لن يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد ، بل كان مجرد قول باللسان ، دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة ، لذا جاء النفي ب ﴿**لَمَّا**﴾ حرف الجزم الدال على انتفاء الشيء إلى زمان الإخبار. وقوله : ﴿**لَمْ تُؤْمِنُوا**﴾ لا يراد به انتفاء الإيمان في الزمن الماضي ، بل متصلا بزمان الإخبار أيضا.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٣٤٨

وقد دلت الآية الكريمة على أن الإيمان أخص من الإسلام ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ، ثم للأخص ، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب ، فهو تصديق القلب مع الطمأنينة والثقة بالله ، والإسلام أعم ، فهو مجرد نطق باللسان بالشهادتين وإظهار الانقياد والخضوع لما جاء به النبي ﷺ .

وهذا لا يمنع أن المؤمن والمسلم واحد عند بعض أهل السنة [1] ، بدليل قوله تعالى عن لوط عليه السلام ومن آمن معه : ﴿فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٣٥ - ٣٦].

ثم حرضهم الله تعالى على الإيمان الصادق بقوله :

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي وإن تطيعوا الله ورسوله إطاعة تامة ، وتخلصوا العمل وتصدقوا تصديقا صحيحا ، لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئا ، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص ، والله تعالى غفور ستار لمن تاب إليه وأناب وأخلص العمل ، رحيم به فلا يعذبه بعد التوبة. وفيه حث على التوبة من الأعمال السالفة ، وتسلية لقلوب من تأخر إيمانه ، فالله تعالى يغفر لكم في كل وقت ما قد سلف ، ويرحمكم بما أتيتم به. ونظير الآية : ﴿وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور ٥٢ / ٢١].

ثم أبان الله تعالى صفات المؤمنين وحقيقة الإيمان بقوله :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا ، وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي إنما المؤمنون إيمانا صحيحا خالصا وهم المؤمنون الكمّل هم الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ تصديقا

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ١٤١

تاما بالقلب ، وإقرارا باللسان ، ثم لم يشكّوا ولم يتزلزلوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وهي التصديق المحض ، وجاهدوا بالأموال والأنفس حق الجهاد ، من أجل طاعة الله وابتغاء مرضاته ، قاصدين بجهادهم إعلاء كلمة الله ودينه ، أولئك المتصفون بهذه الصفات المذكورة هم الصادقون بالاتصاف بصفة الإيمان ، والدخول في عداد المؤمنين ، لا كبعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام ، ولم يطمئن الإيمان في قلوبهم.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال : إن النبي ﷺ قال : «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم بأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه الله عزّوجلّ ».

ثم عرفهم الله تعالى بأنه عالم بحقيقة أمرهم قائلا :

﴿قُلْ : أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ؟ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قل لهم أيها الرسول : أتخبرون الله بما في ضمائركم من الدين ، ليعلم بذلك حيث قلتم : آمنا؟ والله عالم لا يخفى عليه شيء ، يعلم كل ما في السموات وما في الأرض من جمادات ونباتات وحيوانات وإنس وجن ، فكيف يجهل حقيقة ما تدّعونه من الإيمان؟ والله لا تخفى عليه خافية من ذلك ، يعلم بكل شيء ، فاحذروا أن تدّعوا شيئا خلاف ما في قلوبكم.

وفيه إشارة إلى أن الدين ينبغي أن يكون لله ، وأنتم أظهرتموه لنا ، لا لله ، فلا يقبل ذلك منكم.

ثم أوضح الله تعالى أن إسلامهم لم يكن لله ، فقال :

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي يعدّون إسلامهم منّة ونعمة عليك أيها

النبي ، حيث قالوا : جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان.

فرد الله تعالى عليهم قائلا :

﴿قُلْ : لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي قل أيها الرسول : لا تعدوا أيها الأعراب إسلامكم منّة علي ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ، فهو سبحانه الذي يمن عليكم ، إذ أرشدكم إلى الإيمان وأراكم طريقه ، ووفقكم لقبول الدين ، إن كنتم صادقين فيما تدعونه. وفي هذا إيماء إلى أنهم كاذبون في ادعائهم الإيمان.

وذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين : «يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلّالا ، فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل».

ثم أكد الله تعالى علمه بكل شيء ، فقال :

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ أي إن الله عليم بما ظهر وما غاب في جميع أنحاء السموات والأرض ، ومن جملة ذلك : ما يسّره كل إنسان في نفسه ، والله مطّلع على كل شيء من أعمالكم ، فهو مجازيكم بالخير خيرا ، وبالشر شرا. والآية تكرار وتأكيد الإخبار بعلم الله بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات ، ليترسخ ذلك في الأذهان ، ويستقر في أعماق القلوب ، ويتمثل دائما في النفوس.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ موضوع الآيات توبيخ من في إيمانه ضعف بعد الآيات السابقة التي فيها حث عموم الناس على تقوى الله تعالى.

فلا يكفي الإسلام الظاهري ، وإنما لا بد من الإيمان والإذعان القلبي ، ولا يكفي الإسلام اللغوي ، وهو الخضوع والانقياد خوفا من القتل ، ودخولا في زمرة أهل الإيمان والسلم.

٢ . إن أخلص الناس الإيمان لله تعالى وفّر لهم ثوابا عظيما لأعمالهم ، ولم ينقصهم شيئا من أجورهم.

٣ . لا حرج على من تأخر إيمانه ، فالله سبحانه غفار لذنوب عباده كلها بمشيئته ، رحيم بهم فلا يعذبهم بعد التوبة.

٤ . إن عناصر الإيمان الجوهرية في الآية : هي الإيمان بالله وحده لا شريك له ، والإيمان بأن محمدا رسول الله وخاتم الأنبياء والرسل ، وعدم الارتياب في شيء ، بل لا بد من عقيدة ثابتة ويقين كامل لا يتزعزع أبدا ، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس محكّ الإيمان ودليله ، والمؤمنون هم الذين صدّقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة ، وهم الذين صدقوا في إيمانهم ، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب.

ويجب أن يكون الجهاد من أجل نصرة دين الله والدعوة إلى سبيله ، أو لاسترداد الحقوق المغتصبة والبلاد المحتلة ، لذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقال تعالى في الدفاع عن البلاد : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ : تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران ٣ / ١٦٧].

٥ . لا حاجة لإعلام الله تعالى بأن الإنسان مؤمن ، فهو سبحانه يعلم بالدين الذي يكون الناس عليه ، ويعلم كل شيء في الكون ، والآية تجهيل لهم في قوله : ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ؟﴾.

٦ . إن نفع الإيمان يعود للمؤمن نفسه ، فلا يصح لأحد أن يمتن بإسلامه على

أحد ، بل المنة والفضل والنعمة لله عَزَّجَلَّ الذي وفق عباده للإيمان ، وأرشدهم إليه ودلّهم عليه.

والصادقون هم الذين يعترفون بهداية الله لهم ، والهداية هنا بمعنى الدلالة. وقوله : ﴿أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ تعريض بأن الأعراب سبب النزول كاذبون ، ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وذلك تأديب لهم.

٧ . ظاهر الآية يدل على أن أولئك الأعراب لم يكونوا مؤمنين إيمانا صحيحا ، بل كانوا مسلمين إسلاما ظاهريا ، والإيمان أخص ، والإسلام أعم ، كما تقدم ، ولم يكونوا منافقين ، فلو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما فعل الله تعالى في سورة براءة.

٨ . إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ومن ذلك ما في الضمائر والقلوب ، فهو تعالى يعلم الإيمان الحقيقي من الإيمان الكاذب ، ويعلم المقاصد والغايات ، والمخاوف والأطماع ، والبواعث التي تدفع إلى الدخول في الإسلام.

## بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة ق

مكيّة ، وهي خمس وأربعون آية.

**تسميتها :**

سميت سورة ق تسمية لها بما افتتحت به من أحرف الهجاء ، كقوله تعالى : ﴿ص﴾ ، ﴿ن﴾ ، ﴿الم﴾ ، ﴿حم﴾ ، ﴿طس﴾ قال الشعبي : ق : فاتحة السورة.

**مناسبتها لما قبلها :**

أخبر الله تعالى في آخر سورة الحجرات المتقدمة أن أولئك الأعراب الذين قالوا : آمنا ، لم يكن إيمانهم حقا ، وذلك دليل على إنكار النبوة وإنكار البعث ، فافتتح هذه السورة بوصف إنكار المشركين نبوة النبي ﷺ وإنكار البعث ، ثم رد عليهم بالدليل القاطع.

**ما اشتملت عليه السورة :**

بما أن هذه السورة مكية بالإجماع ، فموضوعها مثل موضوعات سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية وهي التوحيد ، والبعث ، والنبوة والرسالة ، ولكنها عنيت بالأصل الثاني وهو البعث وإثباته والرد على منكريه.

لذا ابتدأت بالكلام عن إنكار مشركي العرب وقريش أمر البعث والنشور ، وأمر النبوة ورسالة محمد ﷺ ، وتعجبهم من إرسال رسول منذر منهم ، ومن

إعادة الحياة بعد الممات ، فأقسم الله بالقرآن المجيد قائلا : ﴿ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، فَقالَ الْكافِرُونَ : هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ، أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ، ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ..﴾.

ومن أجل الاستدلال على قدرة الله الباهرة على البعث وغيره ، حثّت الآيات بعدئذ على التأمل في صفحة الكون ، والنظر في السماء وبنائها وزينتها ، وفي الأرض وجبالها وزروعها ونباتاتها وأمطارها : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ ..﴾ الآيات.

ثم أثارت دواعي التفكر وأقامت العبر والعظات في إهلاك الأمم السابقة المكذبة بالرسل ، كقوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود وعاد وفرعون ولوط وأصحاب الأيكة قوم شعيب وقوم تبّع ، تحذيرا لكفار مكة أن يصيبهم مثلما أصاب غيرهم : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ..﴾ الآيات.

وانتقلت الآيات للحديث عن الإنسان ومسئوليته وملازمة الملكين له لرصد أعماله وأقواله ومراقبة أحواله ، وطيّ صحيفته بسكرة الموت ، وتعرضه لأهوال الحشر وأهوال الحساب : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ .. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ الآيات ، وأعقبت كل ذلك بضرورة العبرة والتذكر بتلك الأحداث الكبرى : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى ..﴾.

وختمت السورة الكريمة بمشاهد عظيمة ، من خلق السموات والأرض وما بينهما ، وسماع صيحة الحق للخروج من القبور ، وتشقق الأرض عن الأموات سراعا ، وتخلل ذلك أمر الرسول وأتباعه بالصبر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار ، وعدم المبالاة بإنكار المشركين البعث وتهديدهم عليه ، والتذكير بالقرآن من وعيد الله وعقابه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ .. وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ .. نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ..﴾ الآيات.

**فضل السورة :**

تقرأ هذه السورة في الأحداث الكبرى والمجامع العامة ، كالجمع والعيدين ، لتذكير الناس ببدء الخلق ، ومظاهر الحياة ، وعقوبات الدنيا ، والبعث والنشور ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب.

وأدلة سنّية قراءتها في تلك المناسبات أحاديث ، منها حديث جابر بن سمرة في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر ب ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ وكانت صلاته بعد تخفيفا.

وأخرج مسلم وأبو داود والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان ، قالت : ما أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر ، إذا خطب الناس.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه سأل أبا واقد الليثي ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال : كان يقرأ فيهما ب ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ و ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

والسبب أن العيد يوم الزينة والفرح ، فينبغي ألا ينسى الإنسان خروجه إلى ساحات الحساب ، فلا يكون فرحا فخورا ، ولا فاسقا فاجرا ، فيتذكر بالقرآن كما في بداية السورة : ﴿ق وَالْقُرْآنِ﴾ ونهايتها : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ ويتأمل في قوله تعالى : ﴿ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ وقوله تعالى : ﴿كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ﴾.

**أوجه الشبه بين سورة ق وسورة ص :**

لاحظ العلماء وجهي شبه بين سورتي ﴿ص﴾ و ﴿ق﴾ وهما [1] :

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ١٤٥ بتصرف.

أولا ـ تشترك السورتان في افتتاح أولها بحرف واحد من حروف الهجاء ، والقسم بالقرآن ، وقوله : ﴿بَلْ﴾ والتعجب. كما أن أول السورتين وآخرهما متناسبان ، ففي أول ﴿ص﴾ : ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ وفي آخرها : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ ، وفي أول ﴿ق﴾ : ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ وفي آخرها : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ فافتتح بما اختتم به. أي أن السورتين تبدأ ان بحرف هجاء ، وتبتدئان وتنتهيان بالتحدث عن القرآن.

ثانيا ـ عنيت سورة ص بتقرير الأصل الأول وهو التوحيد ، في قوله تعالى : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً﴾ وقوله تعالى : ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ﴾ ، وعنيت سورة ق بتقرير الأصل الثاني وهو الحشر ، في قوله تعالى : ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ، ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

وبدئت وختمت كل سورة بما يناسبها ، فكان افتتاح سورة ص في تقرير المبدأ ، ثم قال تعالى في آخرها : ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ لحكاية بدء الخلق ، لأنه دليل الوحدانية ، وكان افتتاح سورة ﴿ق﴾ لبيان الحشر ، ثم قال سبحانه في آخرها : ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ، ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ﴾ فاتفق بدء كل سورة مع خاتمتها.

## إنكار المشركين البعث والرّد عليهم

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (٦)

وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾

**الإعراب :**

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قسم ، وجوابه : إما محذوف تقديره : «ليبعثن» أو جوابه ﴿قَدْ عَلِمْنا﴾ أي لقد علمنا ، فحذفت اللام كقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ [الشمس ٩١ / ٩] أو يكون ما قبل القسم قام مقام الجواب على رأي من يرى أن معنى ﴿ق﴾ : قضي الأمر ، وهو الذي قام مقام الجواب ، ودلّ ﴿ق﴾ عليه. والمعنى : أقسم بالقرآن أنك جئتهم منذرا بالبعث ، فلم يقبلوا ، بل عجبوا ، وهو إضراب إبطالي.

﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً﴾ عامل ﴿إِذا﴾ فعل مقدر دلّ عليه الكلام ، تقديره : أنبعث إذا متنا وكنا ترابا ، ولا يعمل فيه ﴿مِتْنا﴾ لأنه محل مضاف إليه ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف.

﴿وَالْأَرْضَ﴾ معطوف على موضع ﴿إِلَى السَّماءِ﴾.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرى﴾ منصوبان على المفعول لأجله.

﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ تقديره : وحبّ الزرع الحصيد ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿باسِقاتٍ﴾ حال.

﴿رِزْقاً لِلْعِبادِ﴾ منصوب إما مفعول لأجله ، أو منصوب على أنه مصدر.

**البلاغة :**

﴿فَقالَ الْكافِرُونَ﴾ إظهار في موضع مفعول لأجله ، أو منصوب على أنه مصدر.

﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً﴾ استفهام إنكاري لاستبعاد البعث.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِ﴾ إضراب عن الكلام السابق لبيان ما هو أشنع من التعجب ، وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله.

﴿كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، شبه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

**المفردات اللغوية :**

﴿ق﴾ حرف هجاء ، يقرأ هكذا : قاف ، بإسكان القاف. للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى خطورة ما يتلى بعده من الأحكام والأحداث. قال أبو حيان : ﴿ق﴾ : حرف هجاء ، وقد اختلف المفسرون في مدلوله على أحد عشر قولا متعارضة ، لا دليل على صحة شيء منها ، فاطّرحت نقلها في كتابي هذا.

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن ذي المجد والشرف على سائر الكتب ، ولكثرة ما فيه من الخير الدنيوي والأخروي ، قال الراغب : المجد : السعة في الكرم. ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم ويخوفهم بالنار بعد بعث رسول من أنفسهم ومن جنسهم. ﴿فَقالَ الْكافِرُونَ : هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي هذا الإنذار ، وهو حكاية لتعجبهم ، قال البيضاوي : وهذا إشارة إلى اختيار الله تعالى محمدا ﷺ للرسالة ، وإضمار ذكرهم ، ثم تسجيل الكفر عليهم بذلك.

﴿أَإِذا مِتْنا﴾ أي أنبعث أو نرجع إذا متنا. ﴿ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك البعث بعث أو رجوع بعد الموت في غاية البعد عن التصديق والإمكان والعادة. ﴿قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ تأكل من أجسادهم بعد موتهم ، وهو ردّ لاستبعادهم. ﴿وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ﴾ هو اللوح المحفوظ ، والحافظ لجميع الأشياء المقدرة وتفاصيلها كلها ، وهو تأكيد لعلمه بما يحدث.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ أي بالنبوة الثابتة بالمعجزات وبالقرآن. ﴿فَهُمْ﴾ في شأن القرآن والنّبي ﷺ ﴿فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ مضطرب ، وهو قولهم تارة : إنه شاعر وشعر ، وتارة : إنه ساحر وسحر ، وتارة : إنه كاهن وكهانة.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم. ﴿كَيْفَ بَنَيْناها﴾ رفعناها بلا عمد. ﴿وَزَيَّنَّاها﴾ بالكواكب. ﴿وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ﴾ شقوق وفتوق تعيبها.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْناها﴾ بسطناها أي بحسب نظر الإنسان الجزئي إلى الموقع الجغرافي الذي يعيش فيه ، لا بالنظرة الكلية الشاملة للأرض ، فهي كروية ، كما أثبت العلم القديم والحديث ، وبخاصة بعد غزو الفضاء وإطلاق الصواريخ ورؤية روّاد الفضاء أنها كرة معلّقة في هذا الكون. ﴿رَواسِيَ﴾ أي جبالا ثوابت لحفظ الأرض من الاضطراب. ﴿زَوْجٍ﴾ صنف من النبات. ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن مبهج.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ تبصيرا منا وتذكيرا. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ رجّاع إلى طاعة الله وتوّاب ، متفكر في بدائع صنع الله تعالى. ﴿مَاءً مُبَارَكاً﴾ كثيرا الخير والبركة والمنافع. ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات أشجار وأثمار. ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي حبّ الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبرّ والشعير وغيرهما ، و ﴿الْحَصِيدِ﴾ المحصود.

﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوالا. ﴿طَلْعٌ﴾ ما ينمو ويصير بلحا ، ثم رطبا ، ثم تمرا. ﴿نَضِيدٌ﴾ منضود ، متراكب بعضه فوق بعض. ﴿رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾ علة ل ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ ، أو مصدر فإن الإنبات رزق. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء. ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ أرضا جدباء لانماء فيها ، والميت : يستوي فيه المذكر والمؤنث. ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي من القبور ، والمعنى كما أحييت هذه البلدة بالماء ، يكون خروجكم أحياء بعد موتكم.

**التفسير والبيان :**

﴿ق﴾ عرفنا أنها حرف هجاء ، لتحدي العرب بأن يأتوا بمثل القرآن أو آية منه ما دام القرآن مكونا من حروف لغتهم التي ينطقون بها ويكتبون بها ، وهي أيضا للتنبيه إلى أهمية ما يأتي بعدها. وأكثر ما جاء القسم بحرف واحد إذا أتى بعده وصف القرآن ، كما أن أغلب القسم بالحروف ذكر بعده القرآن أو الكتاب أو التنزيل.

وذكر الرازي تصنيفا دقيقا للقسم من الله بالحروف الهجائية وغيرها ، وهو بإيجاز ما يأتي [(١)] :

أ ـ وقع القسم من الله بأمر واحد ، مثل ﴿وَالْعَصْرِ وَالنَّجْمِ﴾ ، وبحرف واحد مثل: ﴿ص﴾ ، و ﴿ن﴾.

ب ـ ووقع بأمرين ، مثل : ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ﴾ ، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ، وبحرفين مثل : ﴿طه﴾ ، ﴿طس﴾ ، ﴿يس﴾ ، ﴿حم﴾.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ١٤٦ وما بعدها.

ج ـ ووقع بثلاثة أمور ، مثل : والصافات ، فالزاجرات ، فالتاليات ، وبثلاثة أحرف ، مثل : ﴿الم﴾ ، ﴿طسم﴾ ، ﴿الر﴾.

د ـ وبأربعة أمور ، مثل : والذاريات ، فالحاملات ، فالجاريات ، فالمقسمات ، وفي : ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ ..﴾ وفي : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ..﴾ ، وبأربعة أحرف ، مثل : ﴿المص﴾ أول الأعراف ﴿المر﴾ أول الرعد.

هـ ـ وبخمسة أمور ، مثل : ﴿وَالطُّورِ ..﴾ ، وفي ﴿وَالْمُرْسَلاتِ ..﴾ ، وفي : ﴿وَالنَّازِعاتِ ..﴾ ، وفي ﴿وَالْفَجْرِ ..﴾ ، وبخمسة أحرف ، مثل : ﴿كهيعص﴾ ، ﴿حم عسق﴾. ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها﴾ ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول ، منعا من الاستثقال.

وفي القسم قد يذكر حرف القسم وهي الواو ، مثل : ﴿وَالطُّورِ﴾ ، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ، ﴿وَالشَّمْسِ﴾ وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم ، فلم يقل وق ، حم لأن القسم لما كان بالحروف نفسها كان الحرف مقسما به.

وأقسم الله بالأشياء كالتين والطور ، وأقسم بالحروف من غير تركيب. وأقسم بالحروف في أول ثمانية وعشرين سورة ، ولم يوجد القسم بالحروف إلا في أوائل السور ، وأقسم في أربع عشرة سورة عدا ﴿وَالشَّمْسِ﴾ بأشياء عددها عدد الحروف ، في أوائل السور وفي أثنائها ، مثل ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ، وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ ، ﴿وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ﴾ ، ﴿وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ﴾.

ووقع القسم بالحروف في نصفي القرآن ، بل في كل سبع ، وبالأشياء المعدودة لم يوجد إلا في النصف الأخير والسبع الأخير غير ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾.

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ القرآن مقسم به ، والمقسم عليه محذوف ، أي أقسم

بالقرآن الكريم كثير الخير والبركة ، أو الرفيع القدر والشرف ، أنك يا محمد جئتهم منذرا بالبعث. دلّ على جواب القسم المذكور مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النّبوة ، وإثبات المعاد ، وهذا كثير في القرآن ، مثل : ﴿ص. وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، فَقالَ الْكافِرُونَ : هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي عجب كفار قريش ، لأن جاءهم منذر ، هو واحد منهم أي من جنسهم ، وهو محمد ﷺ ، فلم يكتفوا بمجرد الشّك والرّد ، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، فقالوا : كون هذا الرسول المنذر بشرا مثلنا شيء يدعو إلى العجب ، وهو كقوله جلّ جلاله : ﴿أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس ١٠ / ٢] ، أي وليس هذا بعجيب ، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس.

وتعجبوا أيضا من البعث فقالوا كما حكى القرآن :

﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً؟ ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي أنبعث ونرجع أحياء إذا متنا وتفرقت أجزاؤنا في الأرض وبلينا وصرنا ترابا ، كيف يمكن الرجوع بعدئذ إلى هذه البنية والتركيب؟ إن ذلك البعث والرجوع بعيد الوقوع عن العقول ، لأنه غير ممكن في زعمهم ، وغير مألوف عادة.

فردّ الله تعالى عليهم مبيّنا قدرته على البعث وغيره ، فقال :

﴿قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ﴾ أي علمنا علما يقينيّا ما تأكل الأرض من أجسادهم حال البلى ، ولا يخفى علينا شيء من ذلك ، فإنا ندري أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أي شيء صارت؟ وعندنا كتاب حافظ شامل لعددهم وأسمائهم وتفاصيل الأشياء كلها ، وهو اللوح المحفوظ

الذي حفظه الله من التغيير ومن الشياطين. أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ : «كلّ ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذّنب ومنه خلق ومنه يركّب».

والأصح في تقديري أن هذا تقريب لأذهاننا وتمثيل لإحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء والكائنات ، وإحصائه كل الوقائع والأعمال ، كمن عنده سجل حسابات لكل شاردة وواردة. ولا يمنع ذلك وجود اللوح المحفوظ الذي نؤمن به لوروده في آيات كثيرة أخرى. والآية إشارة إلى جواز البعث وقدرته تعالى عليه.

ثم أبان الله تعالى سبب كفرهم وعنادهم وما هو أشنع من تعجبهم من البعث ، وهو تكذيبهم بآيات الله تعالى ورسوله ﷺ ، فقال :

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي إن كفار قريش في الحقيقة كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ الثابتة بالمعجزات ، إنهم كذبوا (بالقرآن وبالنبوة) بمجرد تبليغهم به من قبل الرسول ﷺ ، من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر ، فهم في أمر دينهم في أمر مختلط مضطرب ، يقولون مرة عن القرآن والنّبي : ساحر وسحر ، ومرة : شاعر وشعر ، ومرة : كاهن وكهانة ، فهم في قلق واضطراب ولبس ، لا يدرون ما ذا يفعلون ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٨ ـ ٩].

ثم أقام الله تعالى الدليل على قدرته العظيمة على البعث وغيره ، على حقيقة المبدأ والمعاد ، فقال :

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي أفلم ينظر هؤلاء الكفار بأم أعينهم ، المكذبون بالبعث بعد الموت ، المنكرون قدرتنا العظمى ، إلى هذه السماء بصفتها العجيبة ، فهي مرفوعة بغير أعمدة تعتمد عليها ، ومزيّنة بالكواكب المنيرة كالمصابيح ، وليس فيها شقوق وفتوق

وصدوع ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ، ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ ، هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً ، وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك ٦٧ / ٣ ـ ٤] أي يرجع كليلا عن أن يرى عيبا أو نقصا. وقوله : ﴿فَوْقَهُمْ﴾ مزيد توبيخ لهم ، ونداء عليهم بغاية الغباوة.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْناها ، وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ ، وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي وكذلك ، أولم ينظروا إلى الأرض التي بسطناها ووسعناها ، وألقينا فيها جبالا ثوابت لئلا تميد بأهلها وتضطرب ، وأنبتنا فيها من كل صنف ذي بهجة وحسن منظر ، من جميع الزروع والثمار والأشجار والنباتات المختلفة الأنواع ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٤٩].

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي فعلنا ذلك لتبصرة العباد وتذكيرهم ، فيتبصر بكل ما ذكر ويتأمل العبد المنيب الراجع إلى ربّه وطاعته ، ويفكر في بدائع المخلوقات.

ثم أوضح الله تعالى كيفية الإنبات ، فقال :

﴿وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً ، فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي ولينظروا إلى قدرتنا كيف أنزلنا من السحاب ماء المطر الكثير المنافع ، المنبت للبساتين الكثيرة الخضراء والأشجار المثمرة ، وحبات الزرع الذي يحصد ويقتات كالقمح والشعير ونحوهما.

﴿وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي وأنبتنا به أيضا النخيل الطوال الشاهقات ، التي لها طلع (وهو أول ما يخرج من ثمر النخل) منضّد متراكم بعضه على بعض ، والمراد كثرة الطلع وتراكمه الدال على كثرة التمر.

وفائدة إعادة هذا الدليل بعد المذكور في الآية السابقة : هو أن قوله : ﴿فَأَنْبَتْنا بِهِ﴾ استدلال بالنبات نفسه ، أي الأشجار تنمو وتزيد ، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد ، بأن يرجع إليه قوة النشوء والنماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء.

﴿رِزْقاً لِلْعِبادِ ، وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ، كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي أنبتنا كل ما ذكر للرزق ، أي إن إنبات النباتات والأشجار والنخيل ، ليكون أرزاقا وأقواتا للعباد. وأحيينا بالماء بلدة مجدبة ، لا ثمار فيها ولا زرع ، وإن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحياء الله به الأرض الميتة ، فكما أن هذا مقدور لله ، فذلك أيضا مقدور له. وهذا تشبيه قريب الإدراك ، ومن واقع الحياة الملحوظة المجاورة للإنسان ، وهو أيضا تفخيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث في مقدور القدرة الإلهية.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ القرآن كثير الخير والمنفعة عظيم المجد والقدر والرفعة ، وقد أقسم الله به للدلالة على ما فيه من الخيرات.

٢ ـ لقد تعجب الكفار من قريش من أمرين : إرسال رسول بشر يخوفهم من عذاب الله من جنسهم وهو محمد ﷺ ، وإمكان حدوث البعث والمعاد والرجوع إلى الحياة بعد الموت مرة أخرى.

٣ ـ إن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وعالم بكل شيء ، فهو سبحانه قادر على إحياء الموتى ، عالم بما تؤول إليه الأجساد من ذرأت متفتتة وعظام بالية ، ولا يشتبه عليه جزء أحد على الآخر ، وقادر على جمعها وتأليفها

وإحيائها مرة أخرى ، كما خلق الناس جميعا في مبدأ الأمر من التراب : ﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ ، وَفِيها نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى﴾ [طه ٢٠ / ٥٥].

٤ ـ إن سبب تكذيب الكفار بالبعث وبالمعاد وعنادهم : هو تكذيبهم بالحق الثابت الذي لا شكّ فيه ، وهو القرآن الكريم المنزل من عند الله ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والنبوة الثابتة بالمعجزات ، فصاروا في أمر دينهم في قلق واضطراب.

٥ ـ الأدلة على قدرة الله تعالى العظيمة لإثبات البعث وإمكانه كثيرة ، منها خلق الكون المشتمل على السموات المبنية بغير أعمدة ، المزينة بالكواكب المنيرة ، الخالية من الشقوق والصدوع ، والمتضمن الأرض البديعة الجميلة التي بسطها الله لتصلح للعيش الهنيء المريح ، وثبتها بالجبال الراسخات الشامخات ، وأنبت فيها النباتات والأشجار ذات الألوان المختلفة والأشكال العجيبة والروائح العطرة والثمار الطيبة اليانعة.

فعل الله ذلك تبصيرا وتنبيها للعباد على قدرته ، وتذكيرا لكل عبد راجع إلى الله تعالى ، مفكّر في قدرته.

٦ ـ ومن أدلة القدرة الفائقة لله تعالى إنزال المطر الكثير البركة والنفع من السحاب ، الذي أنبت به البساتين ، والحبوب المحصودة زروعها ، المقتاتة على مدار العام ، والنخيل الطوال الشاهقات ذات الطلع (وهو أول ما يخرج من ثمر النخل).

٧ ـ وكما أحيا الله هذه الأرض الميتة ، فكذلك يخرج الناس أحياء بعد موتهم. وهذا دليل الإبقاء للأشياء المخلوقة بعد ذكر دليل الإحياء ، فأبان تعالى أولا أنه يحيي الموتى ، ثم بيّن أنه يبقيهم.

والخلاصة : أن الآيات اشتملت على أدلة أربعة على جواز البعث وإمكانه ، وهي علم الله تعالى الشامل بمصير الأجساد بعد موتها ، وخلقه السموات وتزيينها بالكواكب وتسويتها دون شقوق أو صدوع ، وخلقه الأرض وما فيها من جبال وأنهار ونباتات وحيوانات ، وإنزاله المطر من السحاب وإخراج النبات ، وهذا دليل مما بين السماء والأرض.

ويلاحظ أنه تعالى ذكر في كل آية ثلاثة أمور متناسبة ، ففي آية السماء ذكر البناء والتزيين وسدّ الفروج ، وفي آية الأرض ذكر المدّ وإلقاء الرواسي والإنبات فيها ، وكل واحد هنا في مقابلة واحد مما سبق ، فالمدّ في مقابلة البناء ، لأن المدّ وضع والبناء رفع ، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة مزيّنة لها ، والإنبات في الأرض شقّها. وفي آية المطر ذكر إنبات الجنات والحبّ والنخل ، وهذه الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة : وهي ما له أصل ثابت يستمر مكثه في الأرض سنين وهو النخيل ، وما ليس له أصل ثابت مما لا يطول مكثه في الأرض وهو الحبّ ويتجدد كل سنة ، وما يجتمع فيه الأمران وهو البساتين ، وهذه الأنواع تشمل مختلف الثمار والزروع (١).

## التذكير بحال المكذبين الأولين

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ١٦٥ ، ١٥٨.

**المفردات اللغوية :**

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أنث الفعل ﴿كَذَّبَتْ﴾ لمعنى قوم ﴿وَأَصْحابُ الرَّسِ﴾ أصحاب بئر لم تطو أي لم تبن ، كانوا مقيمين عليها بمواشيهم ، يعبدون الأصنام ، وهم قوم باليمامة ، وقيل : أصحاب الأخدود ، ونبيهم المزعوم : حنظلة بن صفوان أو غيره ﴿وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ﴾ الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر ، وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحميري ملك اليمن ، أسلم ودعا قومه إلى الإسلام ، فكذّبوه ﴿كُلٌّ﴾ من المذكورين ، أي كل واحد أو قوم منهم ، أو جميعهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ إفراد الضمير لإفراد لفظه ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ وجب نزول العذاب على الجميع ، وحل عليهم وعيدي. وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد لهم ، أي فلا يضيق صدرك من كفر قريش بك.

﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة؟ لم نعي به ، فلا نعيا بالإعادة ، من العيّ عن الأمر : العجز عنه ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بل هم في شك وحيرة من البعث ، أي هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول ، بل هم في خلط وشبهة من خلق مستأنف ، لما فيه من مخالفة العادة. وتنكير كلمة ﴿بِالْخَلْقِ﴾ لتعظيم شأنه والإشعار بأنه على وجه غير متعارف ولا معتاد.

**المناسبة :**

بعد بيان تكذيب مشركي قريش والعرب للنبي ﷺ ، ذكّرهم الله تعالى وهددهم بما عاقب به أمثالهم من المكذبين قبلهم في الدنيا كقوم نوح وغيرهم ، تسلية لرسول الله ﷺ. ثم ذكر تعالى دليلا جديدا على البعث وهو خلق الأنفس في بداية أمر الخلق.

**التفسير والبيان :**

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، وَأَصْحابُ الرَّسِّ ، وَثَمُودُ ، وَعادٌ ، وَفِرْعَوْنُ ، وَإِخْوانُ لُوطٍ ، وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ ، وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ، فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي إن الله سبحانه هدد كفار قريش بأن يعاقبهم بمثل ما عاقب به الأمم السابقة قبلهم ، الذين كذبوا رسلهم ، فعذبهم الله إما بالطوفان كقوم نوح عليه السلام ، أو بالغرق في البحر كقوم فرعون ، أو بريح صرصر عاتية كعاد قوم هود ، أو

بالريح الحاصب التي تأتي بالحصباء وخسف الأرض وهم قوم لوط ، أو بالصيحة وهم ثمود وأهل مدين وأصحاب الرس وأصحاب الأيكة قوم شعيب ، أو بالخسف وهو قارون وأصحابه.

والسبب أن كلا من هذه الأمم كذب رسوله الذي أرسله الله إليه ، فوجب عليهم ما أوعدهم الله تعالى ، وحقّت عليهم كلمة العذاب على التكذيب ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم مثلما أصاب هؤلاء الأقوام ، لاشتراكهم في العلة ، وتكذيبهم رسولهم كما كذب أولئك رسلهم.

ثم ذكر الله تعالى دليلا على إمكان البعث من الأنفس ، فقال :

﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ؟﴾ أي أفعجزنا بالخلق المبتدأ الأول حين خلقناهم ولم يكونوا شيئا ، أو بابتداء الخلق ، فكيف نعجز عن بعثهم وإعادتهم مرة أخرى؟!

الحق أننا لم نعجز ، والإعادة أسهل من الابتداء ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٧] وقال جل جلاله : ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس ٣٦ / ٧٨ ـ ٧٩].

وجاء في الحديث القدسي الصحيح : «يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يقول : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

وإنما هم في شك وحيرة واختلاط من خلق مبتدأ مستأنف ، وهو بعث الأموات ، فهم معترفون بأن الله هو مبدئ الخلق أولا ، فلا وجه لإنكارهم البعث. وهذا توبيخ للكفار وإقامة الحجة الواضحة عليهم.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

هذا تهديد لكفار قريش وأمثالهم بأحوال الأمم السابقة ، وقد تكرر ذلك في القرآن مرارا ، لتأكيد العبرة والعظة ، فإن من كذب رسول الله ﷺ استحق مثل عقاب الأمم الذين كذبوا رسلهم ، فهو تذكير بأنباء من قبلهم من المكذبين ، وتخويف بما أصابهم من العذاب الأليم في الدنيا.

وفيه أيضا تسلية للنبي ﷺ حتى لا يضيق صدره بتكذيب قومه له ، وكفرهم برسالته.
وفي الآيات إشارة إلى أن الرسل جميعا جاؤوا بالتوحيد وبإثبات البعث.

ثم وبّخ الله تعالى منكري البعث ، وأجاب عن قولهم : ﴿ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ بأنه هل عجز الله عن ابتداء الخلق حتى يعجز عن إعادته؟ وهذا دليل من الأنفس مضاف إلى الأدلة السابقة من الآفاق على صحة البعث وإمكانه عقلا وعادة ، فالذي لم يعجز عن الخلق الأول ، كيف يعجز عن الإعادة؟!

والحقيقة أنهم في حيرة من البعث والحشر ، منهم المصدّق ، ومنهم المكذّب ، وليس تكذيب المكذبين إلا كفرا وعنادا.

**تقرير خلق الإنسان وعلم الله بأحواله**

**﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (١٧) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾**

**الإعراب :**

﴿وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ نَعْلَمُ﴾ : في محل حال ، أي نحن نعلم. و ﴿ما﴾ : اسم موصول بمعنى الذي ، و ﴿تُوَسْوِسُ﴾ : صلته ، و ﴿بِهِ﴾ : في موضع نصب متعلق بصلة الموصول ، وهاء ﴿بِهِ﴾ تعود على ﴿ما﴾.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى إِذْ﴾ : ظرف ، منصوب باذكر مقدرا.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ قَعِيدٌ﴾ : إما خبر عن الأول أو عن الثاني ، فإن كان عن الأول فأخّر اتساعا ، وحذف من الثاني لدلالة الأول عليه ، وإن كان عن الثاني ، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه. أو هو خبر عن الاثنين ، ولا حذف في الكلام ، في قول الفراء.

﴿مَعَها سائِقٌ سائِقٌ﴾ : إما مبتدأ ، وخبره ﴿مَعَها﴾ والجملة في موضع جر ، لأنها صفة ل ﴿نَفْسٍ﴾ أو مرفوع بالظرف.

**البلاغة :**

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ استعارة تمثيلية ، مثّل الله تعالى علمه بأحوال العبد بحبل الوريد القريب من القلب ، للدلالة على القرب بطريق الاستعارة.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ حذف بالإيجاز ، أصله عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد ، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه. وبين ﴿الْيَمِينِ﴾ و ﴿الشِّمالِ﴾ طباق.

﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ استعارة تصريحية ، استعار لفظ السكرة لهول الموت وشدته.

﴿الْوَرِيدِ﴾ ، ﴿قَعِيدٌ﴾ ، ﴿عَتِيدٌ﴾ ، ﴿تَحِيدُ﴾ ، ﴿الْوَعِيدِ﴾ ، ﴿شَهِيدٌ﴾ ، ﴿حَدِيدٌ﴾ توافق فواصل وسجع غير متكلف.

**المفردات اللغوية :**

﴿تُوَسْوِسُ﴾ تحدث ، من الوسوسة : الصوت الخفي ، ومنها وسواس الحلي والمراد : ما يخطر بالبال أو حديث النفس ﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ العرق في صفحة العنق ، ولكل إنسان وريدان ، والإضافة للبيان ﴿إِذْ﴾ أي اذكر حين ﴿يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ﴾ يأخذ ويثبت الملكان الموكلان بالإنسان ما يعمله ﴿قَعِيدٌ﴾ مقاعد ، كجليس بمعنى مجالس.

﴿رَقِيبٌ﴾ ملك يرقب قوله وعمله ويكتبه ويحفظه ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر مهيأ لكتابة الخير

والشر ، فملك اليمين يكتب الخير ، وهو أمير على كاتب السيئات ، وملك الشمال يكتب الشر ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ شدته التي تذهب بالعقل ﴿بِالْحَقِ﴾ بحقيقة الأمر ﴿ذلِكَ﴾ الموت ﴿ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تهرب وتفزع وتميل عنه ، والخطاب للإنسان.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي نفخة البعث ﴿ذلِكَ﴾ النفخ ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي يوم إنجاز الوعيد وتحققه للكفار بالعذاب ﴿وَجاءَتْ﴾ فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلى المحشر ﴿سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان أحدهما يسوقها إلى أمر الله ، والآخر يشهد على النفس بعملها.

﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾ الذي ينزل بك ﴿غِطاءَكَ﴾ الغطاء الحاجب لأمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك في ملذات الدنيا ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ حادّ نافذ تدرك به ما أنكرته في الدنيا.

**المناسبة :**

بعد أن أقام الله تعالى الأدلة الساطعة على إمكان البعث في الآفاق والأنفس ، شرع في تقرير خلق الإنسان الدال على شمول علم الله تعالى ، وعظيم قدرته على بدئه وإعادته. ثم أخبر عن انكشاف الحقيقة بالموت ، وإتيان ملكين بكل نفس يوم القيامة للسوق إلى المحشر والشهادة عليها ، ورفع حجاب الغفلة عن كل إنسان ، وإدراكه أحوال المعاد والحشر.

**التفسير والبيان :**

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

أي تالله لقد أوجدنا الإنسان (وهو اسم جنس) ونعلم بجميع أموره ، حتى ما يختلج في سره وقلبه وضميره من الخير والشر ، ونحن أقرب إليه من حبل وريده ، فكيف يخفى علينا شيء مما في قلبه ، فقوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ معناه أن الله تعالى لا يحجب عنه شيء ، وقال ابن كثير : يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده.

فهذا إخبار من الله تعالى بأنه خلق الإنسان ، وأن علمه محيط بجميع أموره ،

حتى ما يجول في خاطره ، وحتى حديث النفس ، وأنه لا يخفى عليه شيء من أحواله. لكن لا عقاب على حديث النفس ، لقوله ﷺ في الصحيح : «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به» [١].

والآية لإقامة الحجج على الكفار في إنكارهم البعث.

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه بما في قلب ابن آدم وكّل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله ، إلزاما للحجة ، فقال :

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ أي ونحن أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الملكان الحفيظان ما يتلفظ به وما يعمل به ، فيأخذان ذلك ويثبتانه ، عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد ، والقعيد : من يقعد معك. فملك اليمين يكتب الحسنات ، وملك الشمال يكتب السيئات.

جاء في الحديث عن أبي أمامة : «كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات ، لعله يسبّح أو يستغفر». [٢].

﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي ما يتكلم ابن آدم من كلمة إلا ولها من يرقبها ، وهو حاضر معدّ لذلك ، يكتبها ، لا يترك كلمة

---

(١) أخرجه أصحاب الكتب الستة (البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) عن أبي هريرة ، وأخرجه الطبراني عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٢) ذكره الزمخشري والقرطبي والبيضاوي ، وروى ابن أبي حاتم عن الأحنف بن قيس مثل ذلك ، فقال : صاحب اليمين يكتب الخير ، وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها ، وإن أبى كتبها.

ولا حركة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ. كِراماً كاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار ٨٢ / ١٠ ـ ١٢]. والرقيب : المتبع للأمور ، والحافظ لها ، والعتيد : الحاضر الذي لا يغيب والمهيأ للحفظ والشهادة.

وظاهر الآية أن الملك يكتب كل شيء من الكلام ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب. يؤيد الأول الحديث الحسن الصحيح : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عزوجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة» (١) فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث. قال الحسن البصري وقتادة : يكتبان جميع الكلام ، فيثبت الله تعالى من ذلك الحسنات والسيئات ، ويمحو غير ذلك.

وقال الحسن البصري ، وتلا هذه الآية : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ : يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفة ، ووكّل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك ، فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا متّ ، طويت صحيفتك ، وجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً ، اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ثم يقول : عدل ، والله ، فيك من جعلك حسيب نفسك.

وبعد بيان إنكارهم للبعث والردّ عليهم بإخبارهم عن قدرته وعلمه ، أخبرهم

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وله شاهد في الصحيح.

الله تعالى عن ملاقاة صدق ذلك حين الموت وحين القيامة ، وعن قرب القيامتين : الصغرى والكبرى ، فقال عن الأولى :

﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي يا أيها الإنسان ، جاءت شدة الموت وغمرته التي تغشي الإنسان ، وتغلب على عقله ببيان اليقين الذي يتضح له الحق ، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الأخبار بالبعث والوعد والوعيد ، والذي كنت تمتري فيه ، ذلك الموت أو ذلك الحق الذي كنت تميل عنه وتفرّ منه. والخطاب للإنسان على طريق الالتفات في قوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ إذا فسر ب : ذلك الموت ، والخطاب للفاجر إذا فسر ب : ذلك الحق.

والباء في ﴿بِالْحَقِ﴾ للتعدية ، أي أحضرت السكرة حقيقة الأمر وجلية الحال ، من تحقق وقوع الموت ، أو من سعادة الميت أو ضدها ، كما نطق بها الكتاب والسّنة.

جاء في الحديث الصحيح عن عائشة عن النّبي ﷺ : أنه لما تغشاه الموت ، جعل يمسح العرق عن وجهه ، ويقول : «سبحان الله ، إن للموت لسكرات».

ثم قال الله تعالى مخبرا عن القيامة الكبرى :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي ونفخ في الصور نفخة البعث ، ذلك الوقت الذي يكون عظيم الأهوال هو يوم الوعيد الذي أوعد الله به الكفار بالعذاب في الآخرة.

جاء في الحديث الثابت : أن رسول الله ﷺ قال : «كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له؟ قالوا : يا رسول الله ، كيف نقول؟ قال ﷺ : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل».

﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي وأتت كل نفس من نفوس البشر ، بالبدن والروح ، معها ملك يسوقها إلى المحشر ، وملك يشهد عليها أو لها بالأعمال من خير أو شرّ.

ويقال للإنسان حينئذ :

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا ، فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ ، فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي يقال للكافر أو لكل أحد من برّ وفاجر : لقد كنت في الدنيا غافلا عن هذا المصير وهذا اليوم ، فرفعنا عنك الحجاب الذي كان لديك ، والذي كان بينك وبين أمور الآخرة ، فبصرك اليوم قوي نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في حياتك ، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرا مصيره ، ومدركا ما أنكره في الدنيا.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن خلق الله تعالى الإنسان ، وعلمه بكل ما يصدر منه حتى حديث النفس ، دليل على قدرته تعالى على البعث ، وإعادة الناس أحياء يوم القيامة.

٢ ـ إن علم الله بالإنسان وغيره شامل ، لا يخفى عليه شيء ، ولا يحجب عنه شيء ، وقد مثّل تعالى قربه من الإنسان بأنه أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو مجاز يراد به قرب علمه منه ، وشمول معلومه عنه ، وليس المراد قرب المسافة. قال القشيري في آية : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ : في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم.

٣ ـ إن الله تعالى أعلم بأحوال الإنسان من غير وساطة ملك ، فهو لا يحتاج إلى ملك يخبر ، ولكن توكيل ملكي اليمين والشمال بكل إنسان للإلزام بالحجة ، وتوكيد الأمر عليه.

٤ ـ يحصي الملكان كل شيء من أقوال الإنسان وأعماله ، فما يتكلم بشيء إلا كتب عليه ، وما يفعل من شيء إلا دوّن عليه ، قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه.

٥ ـ ما دام الإنسان حيا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت ويدرك الحق : وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده ، ويقال لمن جاءته سكرة الموت : ذلك ما كنت تفر منه وتهرب.

٦ ـ إذا نفخ في الصور النفخة الآخرة للبعث ، فذلك اليوم الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه.

٧ ـ يصحب كل إنسان يوم القيامة ملكان : سائق يسوقه إلى المحشر ، وشاهد يشهد له وعليه بأعماله. قال أبو حيان : والظاهر أن قوله : ﴿سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ اسما جنس ، فالسائق ملائكة موكلون بذلك ، والشهيد : الحفظة وكل من يشهد.

٨ ـ يقال للإنسان البر والفاجر يوم القيامة : لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من عواقب الأمور ، فاليوم تتيقظ وتبصر ما لم تكن تبصره من الحقائق ، وما لم تكن تصدّق به في الدنيا ، وتتغافل عن النظر فيه ، كالإيمان بالله وحده لا شريك له ، والتصديق برسوله ، وبالبعث والحشر والحساب.

## الحوار بين الكافر وقرينه الشيطان يوم القيامة.

﴿وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)﴾

**الإعراب :**

﴿هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ هذا﴾ : مبتدأ ، وخبره : ﴿ما﴾ التي هي نكرة موصوفة بمعنى شيء. و ﴿عَتِيدٌ﴾ : إما خبر ثان ، أو صفة ل ﴿ما﴾ أو بدل من ﴿ما﴾.

﴿أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ أَلْقِيا﴾ : الخطاب للسائق والشهيد ، فهو خطاب لاثنين ، أو الخطاب لملك واحد هو مالك خازن النار ، لأن من عادة العرب مخاطبة الواحد بلفظ الاثنين ، أو تثنية ما يقال له : ألق ألق ، أو ألقين بنون التوكيد الخفيفة ، لكنه ضعيف ، لأن مثل هذا يكون في الوقف على الكلام لا في الوصل.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ الَّذِي﴾ : إما مرفوع على أنه مبتدأ ضمّن معنى الشرط ، وخبره: ﴿فَأَلْقِياهُ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو الذي ، أو منصوب على أنه بدل من قوله تعالى : ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ أو منصوب بفعل مقدّر يفسره ﴿فَأَلْقِياهُ﴾.

﴿يَوْمَ نَقُولُ يَوْمَ﴾ : ناصبه ظلّام.

**البلاغة :**

بين قوله ﴿عَتِيدٌ﴾ و ﴿عَنِيدٍ﴾ جناس ناقص لتغاير حرفي النون والتاء.

**المفردات اللغوية :**

﴿قَرِينُهُ﴾ الملك الموكّل به أو الشيطان الذي قيض له ، والثاني أصح بدليل قوله : ﴿قالَ قَرِينُهُ : رَبَّنا ..﴾. ﴿عَتِيدٌ﴾ مهيأ معدّ لجهنم ، حاضر لدي ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق. ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمفروض كالزكاة ، وقيل : المراد بالخير : الإسلام. ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متعد للحق. ﴿مُرِيبٍ﴾ شاك في الله وفي دينه وأخباره.

﴿فَأَلْقِياهُ﴾ تكرار للتأكيد. ﴿قالَ قَرِينُهُ﴾ الشيطان المقيض له في قوله تعالى : ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً ، فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣٦]. ﴿رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ﴾ أضللته ، كأن الكافر قال : هو أطغاني ، فقال : ﴿رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ ، وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ بعيد عن الحق ، أي فأعنته على ضلاله ، فإن إغواء الشيطان إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي ، مائلا إلى الفجور ، كما قال : ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم ١٤ / ٢٢].

﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ لا تتجادلوا عندي في موقف الحساب ، فلا ينفع الخصام والجدال هنا. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أخبرتكم في الدنيا وتقدمت إليكم في الكتب بالرسل بوعيدي بالعذاب في الآخرة إذا لم تؤمنوا. ﴿ما يُبَدَّلُ﴾ بغير. ﴿وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي فلا أعذب بغير جرم ، وظلام : ذو ظلم ، لقوله تعالى : ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر ٤٠ / ١٧].

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ : هَلِ امْتَلَأْتِ ، وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ زيادة ، وهذا سؤال وجواب جيء بهما لتصوير ملء النار بالناس والجن ، وهي من السعة بحيث يدخلها من يدخلها ، ويبقى فيها فراغ بعدئذ.

**سبب النزول :**

**نزول الآيات (٢٤ ـ ٢٦):**

﴿أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ ..﴾ : قيل : نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة ، لما منع بني أخيه عن الخير وهو الإسلام.

**المناسبة :**

بعد بيان أحوال الناس يوم القيامة وعند الموت ، ذكر الله تعالى صورة حوار بين الكافر وقرينه الشيطان ، في يوم القيامة ، لمعرفة مدى جناية الإنسان على

نفسه ، وزجّها في نيران جهنم ، وإصغائه لوساوس الشيطان وإغراءاته ، وتأثره بها بسبب خلل رأيه ، وضعف عقله ، وميله إلى الفجور.

**التفسير والبيان :**

﴿وَقالَ قَرِينُهُ : هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي قال الملك الموكل به بابن آدم : هذا ما عندي من كتاب عملك معدّ محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد : هذا كلام الملك السائق يقول : هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته ، واختار ابن جرير : أنه يعم السائق والشهيد.

وفسر الزمخشري القرين هنا بأنه هو الشيطان الذي قيض للإنسان في قوله تعالى : ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً ، فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣٦] ويشهد له قوله تعالى بعدئذ : ﴿قالَ قَرِينُهُ : رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ﴾ يقول الشيطان : هذا شيء لديّ وفي ملكتي عتيد لجهنم ، والمعنى : أن ملكا يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطانا مقرونا به يقول : قد اعتدته لجهنم وهيّأته لها بإغوائي وإضلالي.

وقد رجحت الرأي الثاني ، لأن الشيطان هو قرين كل فاجر ، يقول لأهل المحشر ، أو لسائر القرناء : قد هيّأت قريني لجهنم.

﴿أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ، الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ﴾ أي يقول الله تعالى للسائق والشهيد : اطرحا في جهنم كل من كفر بالله أو أشرك به شريكا آخر ، مكابر معاند للحق وأهله ، كثير الكفر والتكذيب بالحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك.

وهو أيضا كثير المنع للخير كالزكاة ، ولا يؤدي ما عليه من الحقوق ، ولا يبذل خيرا لأحد من قريب أو فقير بصلة رحم أو صدقة ، ويمنع أقاربه عن الدخول في الإسلام ، قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كما تقدم ، كان يمنع بني

أخيه من الإسلام ، وكان يقول : من دخل منكم في الإسلام ، لم أنفعه بخير ما عشت.

وهو متعد على الناس بالفحش والأذى والبطش ، متجاوز الحد في الإنفاق من ماله ، ظالم لنفسه لا يقر بتوحيد الله ، شاكّ في الحق وفي أمره وفي دين الله ، ومشكك غيره.

لكل هذا أكد الله تعالى إلقاءه في جهنم فقال للملكين ، أو لمالك خازن النار جريا على عادة الكلام في مخاطبة الواحد بخطاب الاثنين : فألقياه في النار ذات العذاب الشديد.

جاء في الحديث : أن عنقا من النار يبرز للخلائق ، فينادي بصوت يسمع الخلائق : إني وكّلت بثلاثة : بكل جبّار عنيد ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، وبالمصوّرين ، ثم تنطوي عليهم.

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يخرج عنق من النار ، يتكلم يقول : وكّلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفسا بغير نفس ، فتنطوي عليهم ، فتقذفهم في غمرات جهنم».

ثم ذكر الله تعالى صورة من الحوار بين الكافر والشيطان قرينه ، فقال :

﴿قالَ قَرِينُهُ : رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ ، وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أي يقول الشيطان عن قرينه الذي وافى القيامة كافرا ، متبرئا منه : يا ربنا ما أضللته أو أوقعته في الطغيان ، بل كان هو في نفسه ضالا ، مؤثرا الباطل ، معاندا للحق بعيدا عنه ، فدعوته فاستجاب لي ، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه ، أي وكأن الكافر يريد الاعتذار قائلا : يا ربّ إن قريني الشيطان أطغاني ، فأجاب القرين الذي قيض له وهو الشيطان : ﴿رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ﴾.

وهذا اعتراف بالحقيقة ، كما قال الشيطان في آية أخرى : ﴿وقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ : إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلا تَلُومُونِي ، وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٢٢].

﴿قالَ : لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ، وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أي قال الرب عزّ وجلّ لهما ـ للكافر وقرينه الشيطان : لا تتخاصموا ولا تتجادلوا عندي في موقف الحساب ، فإني تقدمت إليكم في الدنيا بالإنذار والوعيد ، وأعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب ، وقامت عليكم الحجج والبراهين ، والمراد أن اعتذاركم الآن غير نافع لدي.

وأضاف الله تعالى برد آخر قائلا :

﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي قضيت ما أنا قاض ، ولا يغير حكمي وقضائي ، ولا خلف لوعدي ، بل هو كائن لا محالة ، وقد قضيت عليكم بالعذاب بسبب كفركم ، فلا تبديل له ، ولا أعذب أحدا ظلما بغير جرم اجترمه أو ذنب اقترفه أو أذنبه بعد قيام الحجة عليه.

ثم أكد الله تعالى حلول العذاب في جهنم قائلا :

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ : هَلِ امْتَلَأْتِ؟ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟﴾ أي اذكر يا محمد لقومك وأنذرهم حين يقول الله تعالى لجهنم : هل امتلأت بالأفواج من الجنّة والناس؟ فتنطق جهنم وتجيبه قائلة : هل بقي شيء من زيادة تزيدونني بها؟ والمراد أنها اكتفت وامتلأت بما ألقي فيها ، أي لا أسع أكثر من ذلك فإني قد

امتلأت [١] ، ويحتمل أنها تطلب الزيادة بعد امتلائها غيظا على العصاة ، وتضييقا للمكان عليهم.

قال أهل المعاني : سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل والتصوير الذي يقصد به تقرير وتصوير المعنى في النفس وتثبيته ، وفيه معنيان كما تقدم : أحدهما ـ أنها تمتلئ مع اتساعها ، حتى لا يزاد عليها شيء ، والثاني ـ أنها من السعة حيث يدخلها من يدخلها ، وفيها موضع للمزيد [٢].

وقد أورد ابن كثير عدة أحاديث تؤيد مدلول الآية بالمعنى الأول وهو استكثارها الداخلين ، لقوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود ١١ / ١١٩] منها : ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «يلقى في النار ، وتقول : هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها ، فتقول : قط قط» أي كفى كفى.

وأخرج مسلم في صحيحة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «احتجّت الجنة والنار ، فقالت النار : فيّ الجبّارون والمتكبرون ، وقالت الجنة : فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم ، فقضي بينهما ، فقال للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذّب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحد منكما ملؤها».

**فقه الحياة أو الأحكام :**

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ يقدّم الملك الموكّل بالإنسان ما عنده من كتابة عمله المعدّ المحفوظ.

---

(١) وعلى هذا يكون الاستفهام الأول للتقرير ، فالله يقررها بأنها امتلأت ، أي يجعلها تقر بذلك ، والاستفهام الثاني بمعنى النفي ، أي لا أسع غير ذلك ، وهو جواب الاستفهام الأول.

(٢) الكشاف : ٣ / ١٦٣

ويقدّم الشيطان قرناءه فيقول : هذا العاصي معدّ عندي لجهنم ، أعددته بالإغواء والإضلال.

٢ . إن من كبائر الأعمال الموجبة لعذاب جهنم : الكفر بالله والشرك به ، ومعاندة الحق ومكابرته ، وإيثار الباطل وأهله ، ومنع المال عن حقوقه ، أو منع الناس عن الإسلام ، وتجاوز الحد المعتدل في الإنفاق ، والتكذيب بالحق ، والشك في دين الله ، وتشكيك الآخرين ، وجعل شريك آخر معبود مع الله.

٣ . يؤمر الملكان : السائق والشهيد بإلقاء الكافر العنيد المتصف بما ذكر في نار جهنم ذات العذاب الأليم الشديد ، ويؤكد الله تعالى أمره بإلقاء الكفار.

٤ . كل من الشيطان والفاجر الكافر يلقي التبعة في كفره على الآخر ويتبرأ الشيطان من الكافر ويكذبه يوم القيامة ، وينسب الطغيان والكفر له ، لا لنفسه ، والحق أن كلا الفريقين في النار ، وقد أعذر من أنذر ، والله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية الإنس والجن ، فاختار كل منهما ما يحلو له.

٥ . يستحيل الظلم على الله تعالى ، فهو سبحانه لا يعذب أحدا بغير جرم ، ولا يعذب من لا يستحق العذاب ، ولا يغير قضاءه المبرم ، وحكمه العادل الذي حكم به.

٦ . يملأ الله تعالى جهنم بالكفار والمشركين والملحدين والماديين والعصاة حتى لا يبقى فيها موضع لزيادة ، أو أنها تطلب الزيادة تغيظا على الكفار ، وتضييقا للمكان عليهم.

## حال المتقين

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (٣٥)﴾

**الإعراب :**

﴿هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ .. مَنْ﴾ : إما بالجر على البدل من ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ وإما بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوها﴾ على تقدير ، يقال لهم : ادخلوها.

و ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ : بدل من قوله : ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، بإعادة الجارّ.

**المفردات اللغوية :**

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قرّبت لهم. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي في مكان غير بعيد منهم ، بل هو بمرأى منهم ، فهي منصوبة على الظرف ، ويجوز أن تكون ﴿غَيْرَ﴾ حالا ، وذكّرت كلمة ﴿بَعِيدٍ﴾ لأنها صفة لشيء محذوف ، أي شيئا غير بعيد ، أو لأن الجنة بمعنى البستان ، أو على زنة المصدر كالزفير والصهيل ، كما تقرر في قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٦].

﴿هذا ما تُوعَدُونَ﴾ أي يقال لهم : هذا ما توعدون ، والإشارة إلى الثواب ، أي هذا هو الثواب الذي وعدتم به على ألسنة الرسل ، ويقرأ أيضا بالياء : يوعدون. ﴿أَوَّابٍ﴾ كثير الرجوع إلى الله تعالى وطاعته. ﴿حَفِيظٍ﴾ كثير الحفظ أي حافظ لحدود الله وشرائعه.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ﴾ من خاف عقاب الله ، وهو غائب عن الأعين ، فلم يره أحد. ﴿مُنِيبٍ﴾ مقبل على طاعة الله. ﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ﴾ أي يقال لهم : أدخلوها سالمين من كل خوف أو مسلّما عليكم من الله وملائكته. ﴿ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي ذلك اليوم الذي حصل فيه الدخول يوم الخلود في الجنة ، إذ لا موت فيها ، أي يوم تقدير الخلود ، كقوله تعالى : ﴿فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٧٣].

﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ أي زيادة ، وهو ما لا يخطر ببالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

**المناسبة :**

بعد بيان الحوار الذي يحصل يوم القيامة بين الكافر وقرينه من الشياطين ، بيّن الله تعالى حال المتقين ، جريا على عادة القرآن بالمقارنة بين الأضداد ، وإيراد الشيء بعد نقيضه ، فيحذر الإنسان ويخاف ، ويطمع ويتأمل ويرجو رحمة الله تعالى ، وبه تم الجمع بين الترهيب والترغيب وبين الخوف والرجاء أو الطمع.

**التفسير والبيان :**

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي أدنيت وقرّبت لأهل التقوى تقريبا غير بعيد ، أو في مكان غير بعيد ، بل هي بمرأى منهم ، يشاهدونها في الموقف ، وينظرون ما فيها ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

﴿هذا ما تُوعَدُونَ ، لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي تقول الملائكة لهم : هذا النعيم الذي ترونه من الجنة هو ما وعدتم به في كتب ربكم وعلى ألسنة الرسل الذين أرسلهم الله لكم ، وهذا الثواب بعينه هو لكل رجّاع إلى الله تعالى وطاعته بالتوبة عن المعصية ، والإقلاع عن الذنب ، كثير الحفظ لحدود الله وشرائعه ، ويحفظ العهد ، فلا ينقضه ولا ينكثه ولا يهمل شيئا منه.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ، وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي ذلك المحافظ على الحدود ، فلا يقربها : هو من خاف الله ولم يكن رآه ، وخاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عزوجل ، كقوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم في ظله يوم القيامة فيما أخرجه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة : «ورجل ذكر الله تعالى خاليا ، ففاضت عيناه» أي : بالدموع.

وهو أيضا من رجع إلى الله بقلب مخلص في طاعة الله ، ولقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة بقلب سليم إليه ، خاضع لديه.

﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ ، ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي ويقال لهم : ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب ، ومن زوال النعم ، ومن كل المخاوف ، أو مسلّما عليكم من الله وملائكته ، ذلك اليوم الذي تدخلون فيه هو يوم الخلود الدائم أبدا ، الذي لا موت بعده ، ولا تحوّل عنه.

﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها ، وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ أي لهؤلاء المتقين الموصوفين بما ذكر كل ما يريدون في الجنة ، وتشتهيه أنفسهم ، وتلذ أعينهم ، من أنواع الخير ، وأصناف النعم بحسب رغبتهم ، فمهما اختاروا وجدوا ومن أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم. ولدينا مزيد من النعم التي لم تخطر لهم على بال ، ولا مرت لهم في خيال ، كقوله عزّ وجلّ : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ [يونس ١٠ / ٢٦] جاء في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي : أنها النظر إلى وجه الله الكريم.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن في وصف جهنم الملأى بالكفار والفجار والعصاة ، وفي وصف الجنة المقربة المرئية للمتقين تثبيتا للإيمان بالبعث وتقوية له ، وتحذيرا وتخويفا من عمل أهل النار ، وترغيبا في اقتفاء آثار وأعمال المؤمنين الذين يدخلون الجنة ، كما أن في تقريب الجنة للمتقين وإدنائها لهم غير بعيدة عنهم إشعارا لهم بتيسير الوصول إليها.

٢ ـ يؤكد الله تعالى الشعور بالنعمة والاطمئنان في الجنة للمتقين ، فتقول

الملائكة لهم : هذا الجزاء الذي وعدتم به في الدنيا على ألسنة الرسل.

٣ ـ أهل الجنة هم كل أوّاب رجاع إلى الله عن المعاصي ، حافظ لحدود الله وشرائعه ، فيعمل بها ولا يتجاوزها ولا يتخطاها إلى غيرها ، خائف من الله رب العزة ، وإن لم يره ، وجل منه في سره وعلانيته ، يجيء إلى ربه يوم القيامة بقلب منيب أي مقبل على الطاعة ، محبّ لها ، مرتاح بفعلها ، غير متضجّر بها.

٤ ـ تقول الملائكة للمتقين أهل الجنة : ادخلوها بسلام من العذاب ومن زوال النعم ، وبسلام من الله وملائكته عليكم.

٥ ـ في الجنة للمتقين ما تشتهيه أنفسهم وتلذّ أعينهم ، ويجدون لدى ربهم مزيدا من النعم ، مما لم يخطر على بالهم ، زيادة على النعم : وهو النظر إلى وجه الله تعالى بلا حصر ولا كيف ولا تجسيد.

ذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة ، فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة ، كل يوم جمعة ، في كثيب من كافور أبيض ، فيكونون منه في القرب. وروى الإمام الشافعي في مسنده عن أنس بن مالك قريبا من ذلك ، وجاء فيه : «.. فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من الملائكة ، وحوله منابر من نور ، عليها مقاعد النبيين ، وحفت تلك المنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، عليها الشهداء والصديقون ، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب ، فيقول الله عزّوجلّ : أنا ربكم ، قد صدقتكم وعدي ، فسلوني أعطكم ، فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : قد رضيت عنكم ، ولكم علي ما تمنيتم ، ولدي مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش ، وفيه خلق آدم ، وفيه تقوم الساعة».

## تهديد منكري البعث وإثباته لهم مرة أخرى

## وأوامر للرسول ﷺ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ
(٣٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ
(٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ
الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ
حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ
وَعِيدِ (٤٥)﴾

**الإعراب :**

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ يَوْمَ﴾ : بدل من يوم في قوله : ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ﴾.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً يَوْمَ﴾ : منصوب من وجهين :

أحدهما : أنه منصوب على البدل من ﴿يَوْمَ﴾ في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ ..﴾ أي واستمع حديث يوم ينادي المنادي ، فحذف المضاف ، وهو مفعول به.

والثاني : أنه منصوب لتعلقه بقوله تعالى : ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ وتقديره : وإلينا يصيرون في يوم تشقق.

و ﴿سِراعاً﴾ : حال من الهاء والميم في ﴿عَنْهُمْ﴾ وعوامله : إما ﴿تَشَقَّقُ﴾ أو فعل مقدر ، أي فيخرجون سراعا.

### المفردات اللغوية :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا﴾ أي كثيرا ما أهلكنا. ﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك كفار قريش. ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ القرن : الأمة والجماعة والجيل من الناس ، أي أهلكنا قبل كفار قريش أمما وقرونا وجماعات كثيرة من الكفار. ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ قوة ، كعاد وفرعون. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾ بحثوا وفتشوا وساروا في الأرض يطلبون الرزق والمكسب. ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب لهم من الله أو من الموت.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى﴾ أي إن فيما ذكر في هذه السورة لتذكرة وعظة وعبرة ﴿لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ عقل يعي به ويتفكر في الحقائق. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أصغى بسمعه للوعظ. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر الذهن ليفهم المعاني. وفي تنكير كلمة ﴿قَلْبٌ﴾ وإبهامه إشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كأنه غير موجود.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة. ﴿لُغُوبٍ﴾ تعب وإعياء ، وهو رد لما زعمت اليهود من أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فالله منزه عن صفات المخلوقين ، لا يتعرض لتعب حتى يستريح منه ، وإذا أراد شيئا قال له : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾ أي اصبر أيها النبي على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث ، فإن من قدر على خلق العالم بلا إعياء ، قادر على بعثهم والانتقام منهم ، واصبر أيضا على ما يقول اليهود وغيرهم من التشبيه للخالق والتكذيب لك ، والكفر. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزهه عن العجز وعن كل نقص ، مصحوبا بالحمد والشكر. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي صلاة الفجر والعصر والظهر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي سبحه بعض الليل ، وصل العشاءين. ﴿وَأَدْبارَ السُّجُودِ﴾ أعقاب الصلوات ، جمع دبر ، وقرئ بالكسر : ﴿وَأَدْبارَ﴾ مصدر أدبر ، أي صل النوافل المسنونة عقب الصلوات الفرائض المكتوبة ، وسبح التسبيح المعروف في هذه الأوقات مع الحمد.

﴿وَاسْتَمِعْ﴾ أيها المخاطب لما أخبرك به من أحوال القيامة ، وفي هذا تهويل وتعظيم للمخبر به. ﴿يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ﴾ هو إسرافيل ، فيقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ أي كما ذكر الزمخشري : من صخرة بيت المقدس [١] ، وهي أقرب الأرض من السماء ، وهي وسط الأرض ، أو من أقرب الأماكن إلى الناس بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء.

---

(١) هذا ـ كما قال قتادة ـ منقول عن كعب الأحبار. وفي تقديري كما ذكر الرازي أن المراد ظهور النداء لكل مخلوق ، وليس المراد من المكان القريب المكان نفسه.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ يسمع الخلق كلهم. ﴿الصَّيْحَةَ بِالْحَقِ﴾ صيحة البعث وهي النفخة الثانية من إسرافيل بالبعث والحشر للجزاء. ﴿ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي ذلك يوم النداء والسماع هو يوم الخروج من القبور. ﴿الْمَصِيرُ﴾ المرجع والمآب للجزاء في الآخرة.

﴿تَشَقَّقُ﴾ تتشقق ، وقرئ بتشديد الشين ، أي تشقّق. ﴿سِراعاً﴾ مسرعين ، جمع سريع. ﴿ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ﴾ أي ذلك بعث وجمع هيّن علينا ، وتقديم الظرف : ﴿عَلَيْنا﴾ للاختصاص ، لأن الإحياء بعد الإفناء ، والجمع للعرض والحساب لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته ، الذي لا يشغله شأن عن شأن ، كما قال سبحانه : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٨].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ﴾ أي كفار قريش ، وهو تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد لهم. ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بمسلط عليهم تقسرهم أو تجبرهم على الإيمان ، أو تفعل بهم ما تريد ، وإنما أنت داع. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ أي يخاف وعيدي ، وهم المؤمنون ، فإنه لا ينتفع بالقرآن غيرهم.

**سبب النزول :**

**نزول الآية (٣٨):**

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ ..﴾ : أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : أن اليهود أتت رسول الله ﷺ ، فسألته عن خلق السموات والأرض ، فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر إلى ثلاث ساعات بقين منه ، فخلق أول ساعة الآجال حتى يموت من مات ، وفي الثانية ألقى الآفة عن كل شيء مما ينتفع به الناس ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة.

قالت اليهود : ثم ما ذا يا محمد؟ قال : ثم استوى على العرش ، قالوا : قد أصبت لو أتممت ، قالوا : استراح ، فغضب النبي ﷺ غضبا شديدا ، فنزل :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ ، فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ..﴾.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله ، لو خوفتنا؟ فنزلت : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾.

وقال الحسن وقتادة : قالت اليهود : إن الله خلق الخلق في ستة أيام ، واستراح يوم السابع ، وهو يوم السبت ، يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

**المناسبة :**

بعد أن أنذر الله تعالى منكري البعث بالعذاب الأليم في الآخرة ، عاد إلى التهديد والإنذار بعذاب الدنيا المهلك والدمار الشامل ، وتوسط الإنذارين بيان حال المتقين في الجنان للجمع بين الترهيب والترغيب كما تقدم ، ثم أبان تعالى أن الإهلاك عظة وتذكير وعبرة لكل ذي عقل واع ، مفكر بالربط بين الأسباب والنتائج.

ثم أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث من خلق السموات والأرض مرة أخرى مع تنزيه نفسه عن العناء والتعب في الخلق ، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بالصبر على ما يقولون من إنكار البعث ومن حديث التعب بالاستلقاء ، وبتنزيه الله عن كل نقص منتظرا المنادي ، ولا تكن من الغافلين حتى لا تصعق يوم الصيحة ، فقد اقترب يوم البعث ، وسمع صوت الداعي إليه ، فالله هو المحيي والمميت وإليه المصير ، يوم تتشقق الأرض سراعا ويخرج الناس من القبور ، ثم أخبر سبحانه رسوله ﷺ بعلمه بما يقول المشركون في البعث ، فلست عليهم بجبار مصيطر ، وتابع مهمتك في الإنذار وتبليغ الدعوة بالتوحيد ، وذكّر بهذا القرآن من يخاف عقابي ويخشى وعيدي.

**التفسير والبيان :**

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً ، فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ ، هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾؟ أي وكثيرا ما أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين من قريش ومن وافقهم ، من أمم وجماعات ، كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة ، وآثارا في الأرض ، كعاد وثمود وقوم تبّع وغيرهم ، وقد أثروا في البلاد ، فساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب ، أكثر مما طفتم بها ، فهل لهم من مفر أو مهرب يهربون إليه ، يتخلصون به من العذاب ، ومن قضاء الله وقدره ، وهل نفعهم ما جمعوه من أموال ، وردّ عنهم عذاب الله لما جاءهم لتكذيبهم الرسل ، فأنتم أيضا لا مفر لكم ، ولا محيد ، ولا مناص ، ولا مهرب.

ثم ذكر الله تعالى أن تلك الإنذارات والتهديدات والزواجر لا ينتفع بها إلا المفكرون ، فقال :

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ، وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي إن فيما ذكر من قصة هؤلاء الأمم ، وما ذكر في هذه السورة وما قبلها من الآداب والمواعظ ، سواء بين الأفراد أو بين الجماعات ، لتذكرة وموعظة وعبرة لمن يعتبر بها ، من كل ذي عقل واع ، يتأمل به ، ويتدبر الحقائق والأسباب والنتائج.

ثم أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث مرة أخرى ، فقال :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي وتالله لقد أوجدنا من غير مثال سبق السموات والأرض وما بينهما من عجائب المخلوقات ، في أيام ستة ، وما أصابنا أي إعياء ولا تعب ولا نصب. وهذا رد على اليهود ، فإنهم ـ كما قال قتادة ـ قالوا : خلق الله السموات والأرض في ستة أيام أولها الأحد ، وآخرها الجمعة ، ثم استراح في اليوم السابع ، وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه.

والآية تقرير للمعاد ، لأن من قدر على خلق السموات والأرض ، ولم يتعب بخلقها ، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ، بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ، بَلى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣٣] وكما قال عزّجلّ : ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر ٤٠ / ٥٧].

ذكر الرازي أن المراد بقوله ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ستة أطوار ، لا الأيام المعروفة في وضع اللغة ، لأن اليوم عبارة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب ، وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولا قمر ، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت أو الحين (١).

ثم أوضح الله تعالى لنبيه الموقف الذي يتخذه في مواجهة منكري البعث واليهود المشبّهة للخالق بالمخلوق ، فقال آمرا له بعدة أوامر هي :

١ ـ ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾ أي اصبر أيها الرسول على ما يقوله المشركون المكذبون بالبعث ، وعلى ما يقوله اليهود من حديث التعب والاستلقاء ، فتلك أقوال باطلة لا دليل عليها.

٢ ـ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ﴾ أي ونزّه دائما الله ربك عن كل عجز ونقص ، واحمده دائما ، قائلا : سبحان الله وبحمده ، وقت الفجر ووقت العصر ، وبعض الليل ، وفي أعقاب الصلوات.

وقال ابن عباس : المراد بالتسبيح والتحميد قبل طلوع الشمس : صلاة الفجر ، وقبل الغروب : الظهر والعصر ، ومن الليل : العشاءان ، وأدبار

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ١٨٣ ـ ١٨٤

السجود : النوافل بعد الفرائض أو التسبيح بعد الصلاة. ومن قال : إن المراد بالتسبيح الصلاة ، فلأن الصلاة تسمى تسبيحا ، لما فيها من تسبيح الله تعالى.

وقد جاء الأمر بالتسبيح بعد الصلاة في أحاديث كثيرة منها : ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : «جاء فقراء المهاجرين ، فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدّثور [1] بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ، قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون كما نتصدق ، ويعتقون كما نعتق ، قال صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلمكم شيئا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبّحون وتحمّدون وتكبّرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، فقالوا : يا رسول الله ، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ﴾» [المائدة ٥ / ٥٤]. وجاء في صحيح الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ» أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه ، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة.

٣ ـ ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع أيها الرسول صيحة القيامة وهي النفخة الثانية في الصور من إسرافيل عليه السلام ، يوم ينادي نداء يسمعه كل فرد من أفراد المحشر ، قائلا : هلموا إلى الحساب ، فيخرجون من قبورهم.

ولا مانع من عطف ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ على ﴿فَاصْبِرْ وَسَبِّحْ﴾ مع أن الصبر والتسبيح يكون في الدنيا ، والاستماع يكون يوم القيامة ، لأن المراد كما في

---

(١) المراد بهم : الأغنياء أصحاب الثراء ، من الدّثار : وهي الثياب الخارجية.

قولهم : صل وادخل الجنة ، أي صل في الدنيا ، وادخل الجنة في العقبى. ويحتمل أن يقال : بأنّ ﴿اسْتَمِعْ﴾ بمعنى انتظر.

قال الرازي : وقوله تعالى : ﴿مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد ، بل يستوي في استماعه كل أحد ، وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى ؛ إذ ليس المراد من المكان القريب المكان نفسه ، بل ظهور النداء ، وهو من الله تعالى أقرب(١).

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ، ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ يعني أن صيحة البعث كائنة حقا ، وهي يوم سماع النفخة الثانية في الصور التي تنذر بالبعث والحشر والجزاء على الأعمال ، وذلك اليوم يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ، وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي إننا نحن نحيي في الدنيا والآخرة ، ونميت في الدنيا حين انقضاء الآجال ، لا يشاركنا في ذلك مشارك ، وإلينا المرجع في الآخرة للحساب والجزاء ، فنجازي كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر. وهذا تقرير القدرة الإلهية على الإحياء ابتداء وإعادة ، وعلى الإماتة ، وإجراء الحساب ، وأكد ذلك بقوله :

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ، ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ﴾ أي وإلينا المصير وقت أن تتصدع الأرض عنهم ، فيخرجون من القبور ، ويساقون إلى المحشّر ، مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم ، ذلك بعث وجمع هيّن لدينا وعلينا ، لا مشقة فيه ولا عسر ، كما قال تعالى: ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر ٥٤ / ٥٠] وقال سبحانه : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٨].

---

(١) تفسير الرازي : ٢٨ / ١٨٨.

ثم هدد المشركين بقوله :

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي نحن نعلم علما محيطا بما يقول لك المشركون ، من التكذيب فيما جئت به ، ومن إنكار البعث والتوحيد ، وما أنت عليهم بمسلّط يجبرهم ، ويقسرهم على الإيمان ، إنما أنت مبلّغ ، كقوله تعالى : ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ ، وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ [الرعد ١٣ / ٤٠] وقوله سبحانه : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية ٨٨ / ٢١ ـ ٢٢].

٤ ـ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ أي فذكّر أيها الرسول بهذا القرآن العظيم ، وبلّغ أنت رسالة ربك ، فإنما يتذكر به من يخاف الله ويخشى عقابه ووعيده للعصاة بالعذاب ، ويرجو وعده وفضله ورحمته ، وأما من عداهم فلا تشتغل بهم.

**فقه الحياة أو الأحكام :**

هذه الآيات تعبر عن التحدي لدعوة النبي ﷺ وكيفية مواجهة التحدي والصمود أمامه ، أو ما يعبر عنه اليوم الفعل ورد الفعل. ويفهم منها ما يأتي :

١ ـ هدد الله المشركين من كفار قريش وأمثالهم وأنذرهم وحذرهم بعذاب الآخرة الأليم ، وبعذاب الدنيا المدمر الذي أوقعه بمن قبلهم من الأمم والشعوب المكذبة رسلها ، مع أنهم كانوا أقوى وأصلب وأغنى وأكثر مالا وأرقى مدنية وحضارة من أهل مكة.

فلم يجدوا مهربا ولا مفرا من الإهلاك والتدمير ، وكذلك لا يجد أمثالهم ملجأ ولا محيدا من إيقاع العذاب المماثل بهم.

٢ ـ إن في هذا الإنذار والتهديد والتخويف والمذكور في هذه السورة تذكرة وموعظة لكل ذي قلب أي عقل يتدبر به ، فكنى بالقلب عن العقل ، لأنه

موضعه في رأي القرطبي وغيره من المتقدمين.

٣ ـ بالرغم من هذا التذكير العام بما سبق ، أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث مرة أخرى للرد على منكريه ، وللرد على اليهود الذين زعموا أن الله تعالى بعد خلق السموات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت ، فأكذبهم الله تعالى في ذلك.

٤ ـ علّم الله نبيه محمدا ﷺ في مواجهة هذه التحديات لرسالته بأربعة أوامر : هي الصبر على ما يقولون ، والاستعانة على ذلك بالتسبيح والصلاة ، لتقوية الإرادة والعزيمة بالصبر ، وتقوية الروح بالتسبيح والصلاة ، ففي ذلك لقاء مع خالق الوجود ، وتفويض له ، واستلهام منه ، واستعانة واستغاثة به وبقدرته الفائقة الباهرة.

والأمر الثالث : الاشتغال بتنزيه الله تعالى مدى الدهر ، كقوله سبحانه : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر ١٥ / ٩٩] أي الموت ، والاستماع لما يخبره الله به من أهوال القيامة ، وتحذيره أن يكون مثل هؤلاء المعرضين.

والأمر الرابع : التذكير بالقرآن ، ومتابعة تبليغ الرسالة ودعوة الله ، لمن يخاف عقاب الله ويخشى وعيده. كان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك يا بارّ يا رحيم. ونحن نقول معه ذلك إلى الأبد.

وتخلل هذه الأوامر الأربعة إخبار بأمور أربعة تساعد على امتثال الأوامر واستهلاك طاقات التحدي واستيعابها وإنهائها : وهي التذكير بسماع صيحة القيامة وصيحة البعث والحشر للجزاء والحساب يوم خروج الناس من القبور ، وإعلان حقيقة كون الله هو المحيي والمميت وإليه مصير الخلائق للحساب والجزاء ، وإظهار كيفية تصدع الأرض وتشققها لخروج الناس الموتى منها أحياء مسرعين لإجابة نداء المنادي إلى المحشر ، علما بأن ذلك الحشر والجمع هيّن يسير على الله ،

وإعلام الكفار وغيرهم بأن علم الله محيط شامل لكل ما يقولون ، وما يعملون من تكذيب وشتم.

وهذه الأمور الأربعة في غاية التهويل والتفخيم والتهديد لأهل التحدي ودعاة التحدي وأعوانهم وسلالاتهم وأشياعهم في كل عصر.

**انتهى الجزء**

**فلله الحمد والمنة**

# فهرس

## الجزء السادس والعشرين

الموضوع الصفحة


تفسير سورة الأحقاف ........................................ ٥

تسميتها مناسبتها لما قبلها........................................ ٥

ما اشتملت عليه السورة........................................ ٦

إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته ووقوع الحشر والرد على عبدة الأوثان.................. ٧

١ ـ شبهات المشركين حول الوحي والنبوة والقرآن..................... ١٣

٢ ـ شبهات أخرى للكفار........................................ ٢٣

الوصية ببر الوالدين........................................ ٢٩

١ ـ وصف الولد البار بوالديه........................................ ٢٩

٢ ـ وصف الولد العاقّ لوالديه منكر البعث........................ ٤٠

قصة هود عليه السلام مع قومه عاد........................................ ٤٩

إيمان الجن بالقرآن........................................ ٥٩

إثبات البعث والأمر بالصبر........................................ ٦٨

تفسير سورة محمّد ﷺ........................................ ٧٥

تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة.................. ٧٥

بيان الفرق بين الكفار والمؤمنين........................................ ٧٧

أحكام القتال والأسرى والقتلى في سبيل الله ونصرة الإسلام................ ٨٢

النظر في آثار الأمم السابقة والتأمل في أحوال المؤمنين والكافرين................ ٩٤

صفة نعيم الجنة وعذاب النار ........................................ ١٠٠
أوصاف المنافقين والمؤمنين ............................................ ١٠٦
١ ـ حال المنافقين والمهتدين عند استماع آيات العقيدة........................ ١٠٦
٢ ـ حال المنافقين والمؤمنين عند نزول الآيات العملية........................ ١١٣
٣ ـ حال المنافقين بعد ردتهم وعند قبض أرواحهم والتذكير وبحكمة الجهاد .......... ١٢٠
حال بعض كفار أهل الكتاب وبعض المؤمنين في الدنيا والآخرة.................. ١٢٩
تأكيد الحث على الجهاد بالتزهيد في الدنيا ................................ ١٣٦
تفسير سورة الفتح.................................................... ١٤٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها............................................. ١٤٢
ما اشتملت عليه السورة................................................ ١٤٣
أضواء من السيرة على سبب نزول السورة (صلح الحديبية وبيعة الرضوان) ............ ١٤٥
فضائل صلح الحديبية على النبي ﷺ ....................................... ١٤٨
آثار صلح الحديبية في المؤمنين والمنافقين والمشركين.......................... ١٥٣
وظائف النّبي ﷺ وفائدة بعثته ومعنى بيعته في الحديبية ........................ ١٦٠
أحوال المتخلفين عن الحديبية ............................................ ١٦٥
جزاء أهل بيعة الرضوان ................................................ ١٨٠
مغانم وفتوحات ونعم كثيرة أخرى للمؤمنين .................................. ١٨٤
ذمّ المشركين وحكمة المصالحة يوم الحديبية .................................. ١٩١
تصديق رؤيا الرسول ﷺ عام الفتح........................................ ١٩٨
أوصاف الرسول ﷺ والمرسل إليهم......................................... ٢٠٤
تفسير سورة الحجرات.................................................. ٢١١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها............................................. ٢١١
ما اشتملت عليه السورة................................................ ٢١٢

طاعة الله تعالى والرسول ﷺ والتأدب في خطاب النبي ﷺ ......................... ٢١٤
الآداب العامة ............................................................. ٢٢٤
١ ـ وجوب التثبت من الأخبار ................................................ ٢٢٤
٢ ـ وسائل فض المنازعات الداخلية حكم البغاة ................................. ٢٣٤
٣ ـ آداب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة .................................... ٢٤٦
أصول الإيمان الصحيح ...................................................... ٢٦٧
تفسير سورة ق ............................................................. ٢٧٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ............................ ٢٧٥
إنكار المشركين البعث والرّد عليهم ............................................ ٢٧٨
التذكير بحال المكذبين الأولين ................................................ ٢٨٨
تقرير خلق الإنسان وعلم الله بأحواله ........................................... ٢٩١
الحوار بين الكافر وقرينه الشيطان يوم القيامة ................................... ٢٩٩
حال المتقين ............................................................... ٣٠٦
تهديد منكري البعث وإثباته لهم مرة أخرى وأوامر للرسول ﷺ ........................ ٣١٠